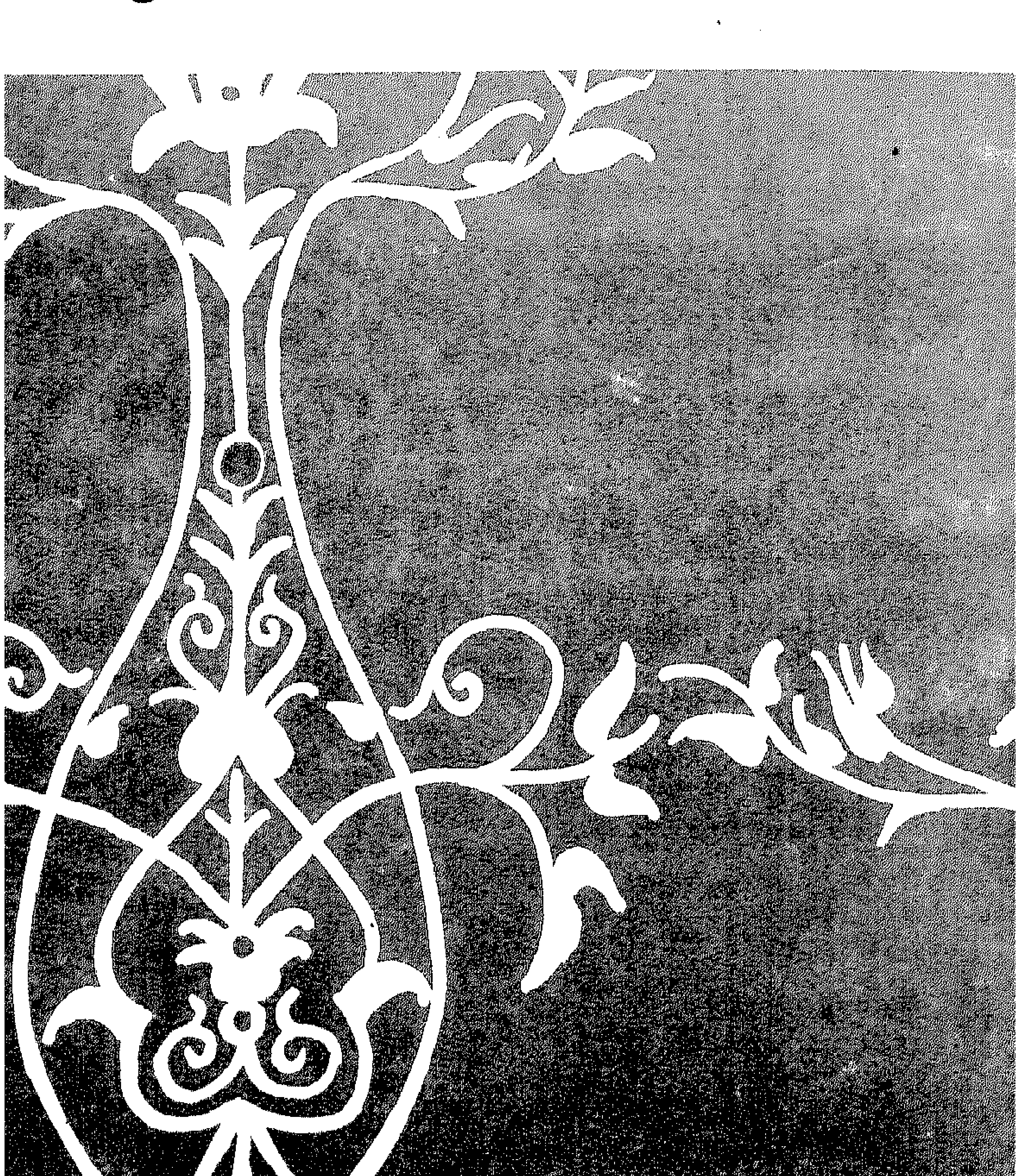
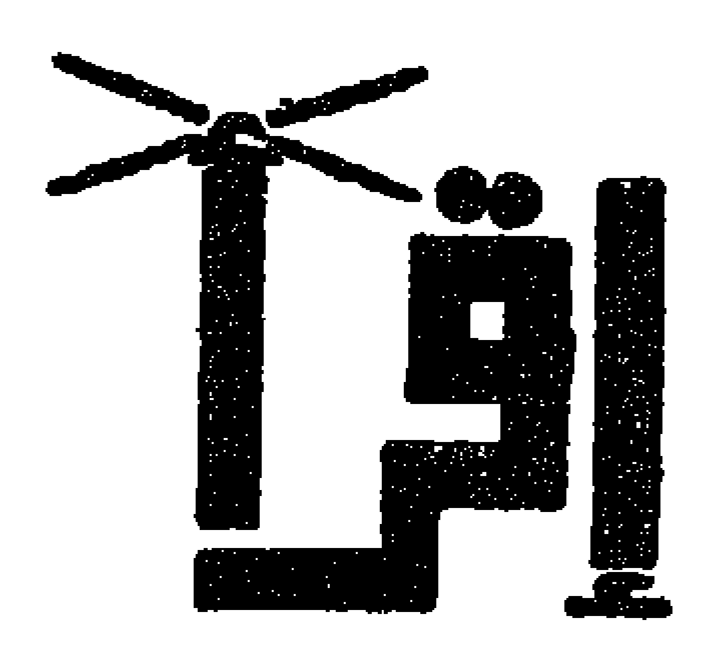
اقرأ

الإسلام

والمذاهب الحديثة

فتحي رضوان





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



فتحي رضوان

الإسلام والمذاهب الحديثة

اقرأ ٤١٥
دار المعارف بمصر

(اقرأ - ٤١٥)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

العامل الاقتصادي في القرآن

أراد بعض الذين لم يقرأوا القرآن ، أو الذين قرأوه ، دون أن يتدبروه ، أو الذين قرأوه وتدبروا معانيه ، وأدركوا آياته ومراميه ، ولكن لمرض في قلوبهم : نسبوا إليه ما ليس فيه : أولئك جميعاً : أرادوا أن يصوروا الدين الإسلامي بأنه ذهول عن حقائق الدنيا ، التي لا فرار منها ، ولا فكاك من أثرها ، في حياة الآدميين ، وأنه [دين روحاني فقط] . والروحانية عندهم ، قرين الغيبوبة ، يفر بها الإنسان المغلوب على أمره ، من متاعب جوعه وفقره ، وآلام عجزه وضعفه ، إلى عالم يتخيله ، هو عالم الآخرة ، يعوض فيه عن الجوع ، بأنهار من عسل مصفي ، وأنهار من ماء غير آسن : وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، ويعوض عن حرمانه وهوانه ، بولدان مخلدين ، وحور عين ، ويعوض عن خوفه وقلقه ، عن حياة لا خوف عليهم فيها ولا يحزنون .

أما الحقائق المادية للحياة ، من سعي في الدنيا ، يؤدي إلى جمع المال : وإحسان توزيعه ، وسد حاجة المحتاجين بالطعام يأكلونه ، وبالكساء يرتدونه ، وبالمسكن يأوون إليه ، وتطيب نفوسهم فيه ، بعد عناء المجاهدة ، من أجل الرزق واللقمة ، فوقف على جماعة من أقوياء المجتمع ، تنتهي إليهم السلطة ، وتسلم لهم مقاليد التجارة والصناعة والزراعة ، ويجمعون بين جاه الدنيا : مناصب الرياسة والسيادة ، وجاه الدين : أحباراً وكهاناً وسدنة للمعابد .

وليس ثمة شيء أبعد من الحق والحقيقة من هذا الافتراء ، فالعرب أمة ، لم تكن تنعم فى أرضها بمصادر الثروة الميسرة ، ولا السخية ، فأرضهم جدب ، وماؤهم غور ، لذلك كانت التجارة ، أصل موردهم الأول ، ينتقلون بين الدول الغنية بما تنتجه تلك الدول ، من نفائس الصناعة ، وخيرات الزراعة ، وتجنى من وراء هذه الوساطة ، ما يوفر لها الرزق ، وما يحقق لكبار التجار ، العيش الناعم ، والفراش الوثير ، فيهيئونهم للرياسة والسلطان ، لا بما بين أيديهم من مال فحسب ، بل لما تتيحه لهم التجارة ، من الاتصال بالأمم والشعوب ، ومعرفة أحوالها ، والوقوف على خبايا السياسة ، وخفايا الحكم ، والاقتراب من ذوى السلطة من الوزراء وأعوانهم ، فيقتبسون من خبرتهم ، وينقلون عنهم أساليبهم فى الإدارة ، وفنونهم فى الاقتصاد ، فتأتى للعربى ، فى بلاده القاحلة ، المعزولة عن الناس من المعرفة ، ما لم يتأت لغيره من الدول التى تتكون مجتمعاتها من المدن ، لا من الواحات التى يتجمع حولها رعاة الأغنام ، كما كان الحال ، فى شبه الجزيرة العربية . ولما كان القرآن الكريم قد جاء فيه قول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » : فقد تحتم أن يكون الرسول ، قادراً لا على مخاطبة القوم الذين أرسل إليهم بلغتهم فقط ، لا أن يكون فوق ذلك مبيناً ، فصيحاً ، ليفهموا عنه ، ما يقول ، وليتأثروا بما فهموه من قوله ، بل إن مقتضى هذا الشرط اللازم توفره فى الرسول ، أى شرط قيام وسيلة التفاهم المشتركة بين المرسلين والذين أرسل إليهم ، أن يكون مدار الحديث بين الطرفين ، أموراً تشغل بال أهل الرسول وعشيرته لأن اللغة ليست مجرد ألفاظ وأصوات تسمع ، بل إن

معانيها هي جوهر هذه اللغة ، وهى الغاية منها . ولولا دواعى المصلحة المشتركة بين الأقوام لما نشأت لغة من اللغات ، ومن هنا كان حديث الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إلى أهله وعشيرته الذين يعيشون على ما تدره التجارة من رزق ، والذين يتأثرون بدواعى اتساعها ، ويسر سبلها ، أو ما يعترض طريقها ووسائلها من الصعاب والمتاعب . . كان غير قليل من حديثه ، وغير قليل من آيات القرآن ، فى شئون المال والتجارة ، وتدبيرهما ، وتتبع كل عنصر من عناصرهما ، جمعاً وإنفاقاً ، وشحًّا وسخاء ، وأخذاً وعطاء ، وحلالا وحراماً ، وبيعاً وإيجاراً ، ورهناً وبدلا ، وتبرعاً وعوضاً . ومن هنا كانت سورة قريش ، من أوائل السور ، وكانت جماعاً لما تقوم عليه حياة هذه القبيلة ، التى أتقنت التجارة ، وأصبحت [مكة] عاصمتها ، ملتقى الطرق التجارية العالمية قبل بعثة رسول الله ، بعهود . قال الله تعالى : « لإيلاف قريش . إيلافهم رِحْلَةَ الشِّتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » .

ولم تكن رحلة الشتاء والصيف التى ألفتها قبيلة قريش ، والتى يمن الله تعالى عليهم بها ، إلا قوام حياة العرب التجارية ، وركن الزاوية فى شئونهم الاقتصادية . فقوافل قريش كانت – كما قلت – تروح وتغدو بين اليمن فى الشتاء ، والشام فى الشمال فى الصيف . تنقل عروض التجارة ، والمحاصيل والأقوات ، من الغرب الأوربى ، إلى الشرق الآسيوى ، فتصل عالمين مختلفين لوناً ولغة وسحنة وعقلية ، وتجنى من هذه الوساطة ، المال والخبرة والعلم ، على ما قدمنا .

ويستطيع أن يقف المفسر طويلا أمام هذه السورة التي تتكون عبارتها من عدد جد قليل من الألفاظ ، ذلك لأن ورودها فى مفتتح كتاب سماوى نزل إلى الناس ، ليدعوهم إلى الإيمان بإله واحد ، لا تراه الأبصار ، ولا تدركه ، ولا يتجسد فى شيء ولا فى شخص ، ولا ينتمى لأمة ولا لطبقة ولا لعهد ، ولا لزمن ولا لمكان ، أن ترد فى كتاب هذه طبيعته ، وتلك غايته ، هذه السورة التي تتحدث عن رحلة بين الشمال والجنوب ، أى بين الشام واليمن ، لتنقل البضائع ، ويكسب منها التجار ورجال المال ، وتنعقد عليها آمالهم ، ويترتب على استقرارها ، استقرارهم ، وعلى نجاحها رواج أحوالهم ، فمعنى ذلك أنه كتاب ، لا يتعالى على حقائق حياة البشر اليومية ، وحاجياتهم المادية ، ولا على شئون المال ، ولا على أساليب استنباطه واستكثاره ، وتداوله وتوزيعه . .

وإذا كانت السورة الكريمة قد بدأت بتقديم « أطعمهم من جوع » ! ثم أردفت « وآمنهم من خوف » فلأنها سورة فى كتاب منزل من السماء ، والله أعلم بعباده من أنفسهم ، والثابت أن غريزة حب البقاء ، هى أقوى غرائز الإنسان ، فلابد له من لقمة عيش تقيم أوده ، وتحميه من خطر الموت ، فإذا أمن ذلك الخطر ، هدأت نفسه ، وبدأ يدير عينيه ، فى نفسه هذه وفى الآفاق . ولو توقفت السورة عند الطعام وحده ، وجعلت منه ، الغاية التي لا غاية وراءها ، لما كان ذلك الكتاب ربانيًّا ، ولكان دعوة إلى اتباع الغرائز الدنيا ، والوقوف عندها ، ولذلك كان قوله تعالى : « وآمنهم من خوف » ، وهو المصراع الثانى فالإنسان فى ظل القرآن . ليس بدناً فحسب ، وليس روحاً محلقة ، مجردة ، وإنما هو جماع تلك

القوتين الهائلتين ، التي أصبح باجتماعهما ، جديراً بخلافة الله تعالى فى أرضه . فالإنسان الذى صنعه الله بيده ، من طين ، وصلصال ، أو حمأ مسنون ، هو الإنسان الذى قال عنه خالقه الأعظم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى » . .

وقوله عز وعلا : « ونفخت فيه من روحى » بياناً لخاصية الإنسان الروحية ، وبياناً لمصدر هذه الخاصية ، وكون هذا المصدر هو خالق الأكوان مباشرة .

فتقابل العنصرين المكونين للإنسان ، من مادة حقيرة الشأن ، قليلة القدر ، يتحول بعدها إلى ماء مهين ، ثم من عنصر لا يرى ولا يمسك باليد ولا يوزن ، ويعلو فوق كل مادة ، ونعنى بها نفخة الله العظيم من روحه ، هو التوازن الذى يجعل العامل المادى فى حياة الإنسان ، عاملا معتبراً ، لا يهمل ، ولا يغض النظر عنه ، ولا يخرج من حساب الإنسان المسلم ، وإلا لما كان ثمة معنى من النص بهذا القدر من القوة والإبانة والوضوح والتأكيد ، فى قصة خلق الإنسان كما رواها القرآن الكريم ، وفى كثير من مواضعه . والشواهد على ذلك النظر فى القرآن عديدة ، بعضها يؤيد بعضاً . فإذا كان الله تعالى قد ذكر قريشاً برحلتها السنوية إلى الشمال والجنوب ، إلى الشام ، وما بعد الشام حتى بلاد العجم والهنود ، وإلى اليمن وما بعد اليمن فى الحبشة والصومال والشاطئ الشرقى الأفريقى ، وهى رحلة تجارة وكسب وارتزاق وجمع مال ، فإن الجزء الأول من القرآن ، هو الذى ضم السور الأوائل فيه من دلائل التفات كتاب الله تعالى إلى جانب المادى ، من حياة الإنسان ، المتصل بإشباع غرائزه ، وإرضاء

بدنه ، مما لا يخفى على نظر .

نسوق منه على سبيل المثال من سورة عبس قوله تعالى . « فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنباً وقصباً . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا . متاعاً لكم ولأنعامكم » ! والمعنى واضح ، وننقل عن تفسير الشيخ محمد عبده لجزء « عم » ما يلى :

فإن زعم الإنسان أنه لم يشهد خلق نفسه ، ورمى عينيه بالعمى ، عما فى بدنه ، وعقله ، بالغباوة عما فى ذاته ، وعما كان من أمرها فى بدايتها ونهايتها ، وعلل هواه فى الغواية بأن شيئاً مما خلقه لا يقوم دليلا على وحدانية خالقه وانفراده بالإحسان إليه ، لأنه لم يشهد تلك النشأة ، إن خطر ذلك ببال أحد من أفراد الإنسان [فلينظر] إلى ما بين يديه من أقرب الأشياء إليه [إلى طعامه] الذى يقيم بنيته ، ويجد لذته ، ويحفظ به منته ، ماذا حدث حقا فى إحداثه وتهيئته لأن يكون غذاء صالحاً « أنا صببنا الماء » من المزن « صبا » شديداً طاهراً « ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء ، شققناها شقا مرئيا مشهوداً ، كما نراه فى الأرض بعد الرى . . . » .

وهذا قول حسن ، ولكن يكمله أن نقول إن الله تعالى ، وقد خلق الإنسان من هذين العنصرين المتباينين تماماً الطين ، [ونفخه منه] سبحانه عز وعلا ، فإن الدروس التى يجب أن تلقى عليه ، يجب أن تكون شاملة لما نسميه الآن « الروحى » ، ولما نسميه « المادى » شاملة للغيب أى لما لا تراه عيوننا ، ولا تسمعه آذاننا ، ولا تلمسه أيدينا ، ومع ذلك نحس ببعضه

فى أعماق وجداننا، ونؤمن به، كما نؤمن بالمادى ، كالمعانى المجردة ، من الوفاء والكمال والسمو والوطنية والإيمان ، فهذه حقائق فى حياتنا ، . لا تقاس ولا توزن ، ولكننا نتأثر بها ، ونستوحيها فيما نفعل وفيما ندع ، ونختلف عليها ، ونحارب من أجلها ، ومن هنا كان كتاب الله الذى يعلم الناس ، ويأخذ بأيديهم ،ويدير عيونهم وأبصارهم ، إلى ماقد يستصغرون شأنه ، أو يستقلون قدره ، ومن ذلك هذا الطعام الذى إن أعوزهم ، ولم يحصلوا عليه هلكوا ، فإن شبعوا منه ، انصرفوا عنه ، وعزفوا ، ، هذا الطعام ، يجب أن يتأمله الإنسان خطوة فخطوة ، ويعرف كيف يحصل عليه . كيف يصنع ، ومما يصنع . كما يجب أن يعرف الدلائل التى تنطوى عليها هذه الخطوات على قدرة الله أولا ، وعلى غرائب هذه الصنعة ودقائقها ، مما يجب على عقل الإنسان أن يتأملها ويعيها ، ويستخلص منها ، ما يزيده علماً ، فيزيده قوة ، فيزيده سعادة ، وجماع كل هذا يزيده قرباً من الله ، واحتراماً لأوامره ، ، وابتعاداً عن نواهيه مما يجمله القرآن الكريم فى كلمة واحدة : التقوى .

* * *

وأود أن أعجل بإيراد الشواهد الدالة على استعارة القرآن الكريم ، مصطلحات التجارة والمال ، بياناً عن شئون العقيدة والعبادة .

ففى سورة الصف : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ! .

وفى سورة فاطر : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة ،

وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » .

وفى سورة البقرة : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

وفى سورة التوبة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله : فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

وفى سورتى البقرة وإبراهيم ، يتحدث الله تعالى عن اليوم الآخر فيصفه بقوله : « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » البقرة « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » إبراهيم .

والمعاهدة ، وتبادل المواثيق ، يعبر عنها فى القرآن بالمبايعة ، ، وهو لفظ مشتق من البيع ، فى سورة الفتح لفظ المبايعة يرد مرتين « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » . « لقد رضى الله عن المؤمنين ، إذ يبايعونك تحت الشجرة » .

واستعمال مصطلحات التجارة ، فى تقريب الأمور الدينية والقواعد التعبدية ، إلى عقل العربى ، الذى يعيش حياته فى التجارة ؛ ويستمد منها رزقه ، ويبذل فيها أقصى الجهد ، ليحقق أعظم الربح لها دلالات كثيرة منها ما قدمناه من أن كتاب المسلمين ، كتاب أنزل ليخاطب الناس ، ليؤثر فيهم ، ويستميلهم إلى مبادئه ، وييسر عليهم الأخذ بقواعده ، لا ليفرضها عليهم فرضاً ، بقوة السلطان أو بسلطة الكهان ، ولا ليكون دين السادة دون العامة ، أو دون الخاصة من أهل الفكر ،

دون صغار المسلمين ، ممن قلت حظوظهم من المعرفة . وإلى جانب هذا المعنى ، فإن احتفال القرآن ، بما يتعارفه العرب من ألفاظ حياتهم اليومية ، ويتبادلونه فى صفقاتهم ومعاملاتهم ، معناه احتفال القرآن بالجانب المادى من حياة المسلم ، أى الجانب المتصل برزقه ، وشئون حياته اليومية لا ليقف عند هذا الجانب ، ويقنع به ويرضاه ، وإنما ليتخذ هذا الجانب نفسه ، درجة يستند عليها ويرقى منها إلى الجانب الأعلى والأبقى ، ولكى يرتفع بهذا الجانب ذاته ، ويضفى عليه من رقة الإنسان ولطفه ، وعدله وصدقه ، واستقامته وأمانته ، ما يجعل التجارة ، والأخذ والعطاء ، والسعى لكسب المال والاستزادة منه ، عبادة ، ينفع بها الناس وينفع بها نفسه ، فلا تقوم الحواجز بينها وبين سائر ما يأمر به الدين ، فالتاجر المسلم ، لا يخدع ، ولا يحتكر ، ولا يستحل فى أساليب تعامله ، مالا يستحله فى صلته مع ربه وخالقه .

ومع ذلك نجح التجار المسلمون أن يكونوا من أبرع تجار الأمم ، وأشدهم حذقًا لفنون إدارة المال ، وتبادله ، وأن يصلوا بسفنهم المحملة بالبضائع النفيسة والسلع الغالية النادرة إلى أقصى الشرق فى الصين ، وأقصى الغرب فى أوربا ، وأن تكون لهم محطات وقواعد لسفنهم وقوافلهم . . أستغفر الله ، لهذا – لا على الرغم من هذا – كان نجاح التاجر المسلم وتفوقه وثرائه العظيم الحلال ، فالهمة واليقظة ، مع الأمانة والاستقامة هى رأس مال التاجر ، وليس الغش والكذب والحيلة الوضيعة .

ولا يزال القرآن الكريم ينطوى على المزيد من الشواهد على احتفاله بالعامل الاقتصادى أو المادى فى حياة الناس ، من ذلك ، ماسبق لنا أن

نبهنا إليه ، من أن لفظى المال والنفس لا يجتمعان فى موضع فى القرآن الكريم ، إلا وسبق المال النفس ، باستثناء موضع واحد فى سورة التوبة .

مثال ذلك : فى سورة الأنفال : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم » وفى سورة التوبة « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » وفى سورة التوبة « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » وفى سورة النساء : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » .

وليس تقديم المال على النفس فى القرآن الكريم فقط فى مواضع الحديث عن الجهاد ، بل إنه تقديم ثابت فى كل المواضع الأخرى ، من ذلك قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » « يوم لا ينفع مال ولا بنون » « إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا » «ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس ! .

ليس معنى التقديم على هذه الصورة ، أن القرآن الكريم يغض من قدر النفس الإنسانية ، ويراها فى درجة أدنى من درجة المال ، فالإنسان أكرم عند القرآن من المال ، ومن كل متاع آخر فى هذه الدنيا ، ولكن لهذا التقديم حكمته ، ومن عناصر هذه الحكمة ، مما يتصل بحديثنا هنا ، هو ما جبل عليه الإنسان من حرص شديد على المال ، وحب له ، ورغبة فى الاستكثار منه والاستزادة من النعيم الذى يوفره لصاحبه ، والجاه الذى يضفيه على جامعه ، فضلا عن أن المرحلة الأولى من جهاد المسلمين ، قبل أن يؤذن لهم بالحرب ، ورد العدوان المسلح بالسلاح ، كان قوامه وعدته المال

ولهذا انتقل القرآن الكريم من الآيات التى تتحدث عن جوانب متفرقة من أخلاق الإنسان الاقتصادية ، إذا جاز مثل هذا التعبير ، مثل قوله تعالى : « وكان الإنسان قتورا » « وأحضرت الأنفس الشح » « إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد » إلى آية كلية ، تجمل موقف الإنسان ، من متع الحياة المادية ومغرياتها جميعاً ، كقوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا » .

وقد يقع فى الوهم ، أنه ما دامت هذه المتع والرغبات ، قد وصفت بأنها متاع الحياة الدنيا ، فهى ملعونة عند الإسلام على الإطلاق ، إذ حسبها أن تكون متاع الحياة ، وأن تكون الحياة موصوفة [بالدنيا] ، حتى يتضح رأى الإسلام فيها ، وهذا أبعد شيء عن حقيقة رأى الإسلام فى كل ما يتصل بمقومات الحياة ، من حب النساء والبنين والذهب والفضة ، فهى وإن كانت متاعاً ، أى وسيلة انتفاع واستمتاع بالحياة ، وإنها ليست ملعونة فى ذاتها ، والمسلم ليس منهيا قط ، عن السعى فى اكتسابها ، والتمتع بها ، وطلب الراحة واللذة ، والسعادة من ورائها ، فليس فى الإسلام رهبنة ، ولم يزهد أحداً من أتباعه ، فى أن يكون قويا ، بل إنه نهى عن النقيض ، وفى الآية الكريمة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » الدليل على ما تقول بل إن القرآن يتساءل عن هؤلاء الذين يريدون أن يحولوا حياة الناس إلى عيش ثقيل ، لا يطاق ، وعبء باهظ لا يحتمل ، وحرمان قاس ، بغير مبرر ولا مقتضٍ :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » بل إن الله يعاتب الذين ، يجعلون من أنفسهم أوصياء على البشر ، فيحرمون عليهم ما أحل الله ، قول الله تعالى : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ، فجعلتم منه حراماً وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » .

فالإسلام ، على عكس ، ما يتوهم الواهمون ، أو ما يذهب إليه المتجنون ، لا يغفل عن العامل الاقتصادى ولا يغض من قدره ، بل يعتد به ، ويحسب حسابه ، ويحتفل بأثره فى حياة الناس ، وينظمه ويقومه ويجعله حافزًا ، لحياة أكرم ، ولعدالة أشمل ، مما يحتاج إلى تفصيل وبيان ، سنتولاه فى موضع آخر من هذا الكتاب ، بإذن الله .

لذلك قد جاهد نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، مستندًا إلى القرآن ، مؤيدًا بأحكامه وآياته ، ليجعل العامل الاقتصادى ، سبيلا إلى قوة الإنسان ورقيه ، وإلى إحكام علائق الأخوة بين الناس فى المجتمع الصغير ، وفى المجتمعات الكبرى ، دون أن يصبح العامل الاقتصادى هو السيد المطاع ، فى صورته الغريزية الأولى ، ولا أن ينفى تشابك العوامل المختلفة التى تتكون فيها الحياة الإنسانية ، فتخرج نسيجًا مجدولا ، مضفورًا ، لا يمكن فصل خيط منه ، من مجموع النسيج ، وإلا تهتك ، وانحل ، ويصبح من تسول له نفسه ذلك ، كالتى نقضت غزلها أنكاثا .

آية ذلك ، أن القرآن الكريم ، دعا الناس ، دعوة متكررة ، لأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله ، وليس بعد هذا ، دلالة على حرص كتاب الله ، على أن يعطى الجانب المادى ، المتصل بطعام الإنسان وشرابه ،

ما يستحقه من العناية ، فضلا عن أن نغفله ، وقد يزيد هذا المعنى أن نعرف أن الدعوة إلى أكل الطيبات ، والحلال ، وردت فى القرآن ، أكثر مما ورد لفظ « الحج » وهو عبادة من عبادات المسلمين المفروضة عليهم ، وتكاد تبلغ عدد المواضع التى ورد فيها لفظ الأكل ومشتقاته ما بلغه عدد المواضع التى ورد فيها لفظ الصلاة ذاتها ، ومن أمثلة ما ورد فى القرآن الكريم فى هذا الصدد - لأننا لا نستطيع أن نورده كله ، ولا جانباً كبيراً منه - « كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا فى الأرض » « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً » « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » وعما يصطاده الناس من الطير قال الله تعالى : « فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه » ثم قال تعالى « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » « كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » وعن البدن التى تذبح عند البيت الحرام قال تعالى : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ».« فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » ! ولابد أن يستوقف النظر أن الله تعالى لا يقنع بدعوته إلينا إلى أن نأكل ، ولا أن نأكل ونشرب ، بل أن يكون أكلنا وشربنا ، متاعاً لنا وبهجة ، قال تبارك وتعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ».« فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً ، فكلوه هنيئاً مريئاً » والحديث هنا عما يأكله الأزواج من مال أزواجهم . ويقدم كتاب الله العزيز صورا لما يوفره الطعام للإنسان من نفع ولذة فيقول : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » وعن صيد البحر يقول القرآن : « ومن كل تأكلون لحما طريا » ويضرب للناس أمثلة عن أطعمة خاصة ،

وعن كيفية تكونها فيقول عن اللبن « نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا ، سائغًا للشاربين » .

والحق أن الإنسان يجب . أن يقف مأخوذًا مشدوها من هذا التتبع الدقيق لمصادر الطعام وصوره المختلفة ، من صيد البر والبحر ، ومن اللبن والعسل ومما يستخرجه الإنسان من الشجر من سكر ، ومن رزق حسن ، وليس هذا كله إلا تفصيلا للآيتين الواردتين فى الجزء الأول من كتاب الله واللتين تبدآن بقوله تعالى « فلينظرِ الإنسان إلى طعامه » فهذا النظر ، تعليم وتلقين ، تزداد به معرفة الإنسان لدنياه ، والعلم مطلوب عند المسلم ، ثم هو تأمل فى قدرة الله ، وهذاالتأمل تسبيح للخالق عز وعلا ، واقتراب منه ، وركون إليه ، وهو أمر يسعى إليه المسلم ، وهو بعد ذلك التفات إلى جانب من حياة الإنسان ، قد يظن أنها لا تستحق منه الرعاية ، ولا العناية ، وهو أبعد الأمور عن الإسلام ، وعن أساس أحكامه وقواعده ، وعن حكمته وفلسفته .

* * *

وقد لا تظهر خاصية التكامل فى جانب من جوانب الحياة الإنسانية ، ظهورها فى الجانب الذى نسميه الآن « الجانب الاقتصادى من الحياة » ونعنى به جمع المال ، وإنفاقه ، وكسب الأرزاق والأقوات ، والاستمتاع بها ، وعلاقات الناس ، من أغنياء وفقراء ، وأصحاب أموال ، يستخدمون غيرهم ، فى صناعاتهم ومزارعهم ، ومتاجرهم . والمقصود بالتكامل ،

هو النظرة الشاملة ، التى تجعل الحياة الإنسانية ، بناء يتصل بعضه ببعض ، ولا يبدو فتاتا متناثرة ، يجهد المرء فى جمعها ، وضم بعضها إلى بعض ، فينجح حينا ، ويخفق حينا آخر ، لما بين هذه الأجزاء والكسور ، من تنافر يمنع انسجامها وتناسقها ، ويحول بين خلقها الكل أو الواحد الصحيح .

فالإسلام مثلا ، قد أسقط الحاجز الموهوم بين الدين والدنيا ، وبين الأولى والآخرة ، وبين المعنوى والمادى ، بل إنه أزال الحاجز بين الخير والشر ، لا بجعل الخير والشر ، متشابهين لا يتميزان ولا يتفاضلان ، بحيث يفعل الواحد منا الجريمة ، فكأنه يفعل العمل الصالح . بل بمعنى أن جعل مرد الخير والشر ، إلى عقيدة الإنسان ونصيبه من التقوى ، فإذا صلحت عقيدته ، تحول كل ما يراه الناس، عند الآخرين شرًّا أوخيرًا عند المتقين فالمرض والجوع ، ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، يمكن أن يكون دافعاً للمسلم المتقي ، إلى خير عظيم ، مصداقاً لقول الله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

فالتكامل القرآنى ، فى الجانب الاقتصادى من الحياة الإنسانية ، كائن فى أنه لا يفصل بين إقامة الدين ، وأداء العبادات ، وبين دنيا الكسب والمال ، والاستمتاع بما أحل الله للناس من طعام وشراب ، وسائر ما يمكن أن نسميه « زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

ويبدو هذا التكامل على أعظم ما يكون من الوضوح فى كثير من

آيات القرآن ولكنه فى الآيات التالية لا يخفى على أحد .

قال الله تعالى فى سورة الجمعة « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً ، لعلكم تفلحون » .

وقال تعالى فى سورة الحج « وأذن فى الناس بالحج ، يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق » .

ففى الشاهد الأول ، ترى كيف يتعاقب النشاط الدنيوى ، والنشاط الروحى ، تعاقباً ، يريك صورة الحياة فى نظر القرآن ، وكيف تجدل فيها العناصر المختلفة وتتداخل فى توازن رائع ، فتبدأ الآية بالنداء للصلاة ، ثم يعقبها البيع والدعوة إلى تركه ، لذكر الله ، فإذا قضيت الصلاة ، فلا تقنع الآية ، بالعودة إلى التجارة والبيع ، بل يستعمل لفظاً هو غاية فى الإبانة والدلالة ، على ما يطلبه القرآن ، من المسلمين والمؤمنين به ، من بذل أقصى الجهد ، فى تحصيل المنافع الدنيوية ، والنزول على مقتضى الحياة البشرية فقالت الآية « فانتشروا » ثم أردفت « فى الأرض » وثلثت بقولها « وابتغوا من فضل الله » .

ولكل عبارة من هذه العبارات الثلاث ، وقع فى الأذن وفى السمع ، غايةفى القوة وفى الوضوح .

فالانتشار ، شيء أكثر من مجرد ممارسة البيع والشراء ، والعودة إلى التجارة ، وغيرها من ضروب النشاط المؤدى إلى كسب الرزق ، وجمع المال ، وتحقيق المصالح الإنسانية التى تكفل للناس ، راحة البال ، وعلو المكانة ، والقدرة على نفع الغير . إذ أن لفظ « الانتشار » يبعث فى النفس ، الإحساس ، بأن الدعوة من القرآن هى الحركة على أوسع صورها ، فهى تتجاوز الانتقال من عميل إلى عميل ، ومن صفقة إلى صفقة ، إلى الانتقال من صقع إلى صقع ، وما يتبع هذا الانتقال من جهد التحضير والإعداد والتدبير . فإذا أضيف إلى لفظ الانتشار ، عبارة « فى الأرض » كمل الإحساس بأن الدعوة من القرآن ، هى دعوة حركة لا يحدها قيد ، وهذه الدعوة لم ترد فى هذا الموضع من القرآن فقط ، فقد ترددت فى أكثر من موضع :

فى موضعين من سورة النساء يوجه القول تارة إلى أولئك الذين اطمأنوا إلى الظلم ورضوا به ، فيقول تعالى « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » . ويوجه الخطاب تارة أخرى إلى جميع الناس فيقول عز وعلا : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيرًا وسعة » .

فالأرض عند القرآن هى الساحة المفتوحة لنشاط الإنسان ، فليست بلدته وحدها ، ولا وطنه فقط ، هو المجال الذى يستطيع أن يمارس فيه قدراته وطاقاته ، وهو مدعو إلى هذه الممارسة ، مثاب عليها من الله ، يرضى عنها تعالى ويباركها ، ويكافئ عليها ، وإذا كانت الأرض كلها هى ميدان النشاط الإنسانى ، فغاية هذا النشاط الواسع المترامى الآفاق هى لابتغاء فضل الله ، ومعنى ذلك أن السعى فى الكسب وتحصيل

الرزق ، هو سعي من أجل شيء لا خطأ فيه ، ولا عيب ، بدلالة وصفه « بفضل الله » وألا تلبث الآية أن تعود إلى « ذكر الله » حتى لا يتحول النشاط الاقتصادي : تجارة كان أو صناعة أو زراعة ، إلى عمل يتجرد من دوافع الإنسان السوى ، وحوافز الإنسانية ، فيكون ابتزازاً لمال الناس ، واستغلالا لحاجتهم ، وانتفاعاً بضعف تجربتهم : أو بساطتهم أو قلة حيلتهم : فيستباح فيه الكذب والإيهام ، والاحتكار والاختزان ويهبط الناس بفضله إلى وحوش يأكل بعضها بعضاً ، بدعوى أن الله دعانا إلى الانتشار فى الأرض كلها ، مادمنا قد أدينا الفرض كأن أداء العبادة إجازة للمتعبدين ، ليفعلوا ما شاء لهم أن يفعلوا ، فذكر الله هو الضمان لأن يبقى العمل الإنسانى من أجل الرزق ، والمال والكسب ، فى حدود ما تفرضه إنسانية الناس عليهم . وهذا هو الجدل الرائع ، والضفر النبيل بين دواعى الحياة القوية ، ومتطلبات السمو العظيمة .

وترى مثل هذا فى الشاهد ، فالناس مدعوون لأداء الحج ، ولكن هذا الحج الذى هو عبادة ، لا يخلو من منافع للناس ، يشهدونها ، أى منافع دنيوية ، ولقد كان الحج منذ ما قبل الإسلام ، موسما تنشط فيه التجارة ، وتتوثق فيه علاقات العاملين فى ميدانها وأعوانهم فى كل العالم الإسلامى ، قريبة وبعيدة ، والناطق منه بالعربية ، والناطق بغيرها . وكان المسلم يجد فى مكة وما حولها فى هذا الموسم الإلهى طرائف الصناعة ولطائفها ، وغرائبها ونفائسها من أنحاء العالم كله ، فتتحقق فعلا لا مجازا فكرة « الانتشار فى الأرض » وفكرة « السعى فى مناكبها » وتبدأ الآية — على أسلوب القرآن الحكيم — الذى تضفر فيه شئون العبادة بشئون

الحياة ، على أجمل وألطف نسق - بالدعوة إلى الحج ، ثم تصور تدفق الحجيج إلى مكة ، من كل فج ، بعبارة تفيض بالحركة ، ليشهدوا منافع لهم ، ثم يذكروا اسم الله شكرا على ما رزقهم من بهيمة الأنعام أى على متعة دنيوية ، ورزق مما يقيم أود الناس ، ويعينهم فى شئون معاشهم ، ثم يدعوهم إلى الأكل من هذه الأنعام ، ثم يثنى بالدعوة إلى إطعام الفقير البائس من هذه الأنعام ذاتها ، ثم يختم هذه الحلقات المتماسكة بأداء منسك من مناسك الحج ، فيتطهروا ، ثم يطوفوا بالبيت العتيق . فالحياة الدنيا ، والآخرة ، والعبادة ، ثم التجارة ، وذكر الله ، والتمتع بأطايب الحياة ، حلقات فى سلسلة واحدة ، يمسك بعضها برقاب بعض ، إن انفرط سلكها ، لم تعد إسلاما ، ولم تعد نداء قرآنيا .

ولذلك فإن هؤلاء الذين يقرأون فى القرآن ، قول الله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فيصيحون هذه هى غاية الإسلام انقطاع الناس للعبادة ، فيصدق الصغار والضعفاء والفقراء والمحرومون هذه الدعوة ، وينفذونها فيخلو الجو لكبار رجال الدين ، أعوان الحكام ، وسطائه ، وأدواته ليكتنزوا الذهب والفضة ، ويتخموا ويترهلوا ، ويتخذوا من ظهور البشر مطايا يركبونها إلى أحقر غاياتهم وشهواتهم .

هؤلاء لا يعرفون هذه الآيات التى سقنا بعضها ، ولا يرون كيف تتعاقب فيها الدعوة لأداء الفروض وإقامة دعائم الدين ، بالإقبال على الحياة ، والفرح بها والحرص على تجميلها ، وترقيقها ، وجعلها متعة للأقوياء المؤمنين بأعلى ما طمحت إليه البشرية من مثل الحق والعدل والعلم والإخاء ، وهم لا يعرفون معنى العبادة فى الإسلام ، وأنها

ليست فقط الصلاة والصيام والزكاة ، والحج ، وحسبهم أن يعرفوا أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام قال « يثاب المرء على اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » ليدركوا أن العبادة عند الإسلام شيء آخر غير العبادة بمعناها الضيق المعزول عن الحياة ، وهموم البشر ، فى غيره ، وأن الرجل فى الإسلام يكافأ ويجازى على اللقمة يضعها فى فم زوجته ، لأن سعادة الزوجين هدف من أهداف الإسلام ، وغاية من غاياته بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حديثا أبلغ وأعظم دلالة على المعنى الذى نحاول بسطه، فقد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم : « إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصيام ولا القيام » فقالوا ، وما يكفرها » قال : « الهموم فى طلب العيش » .

جملة القول أن القرآن احتفل بالعامل الاقتصادى فى حياة الناس احتفالا كبيرا ، فبعد أن ذكر فى أكثر من موضع ، عظيم تأثر الإنسان بهذا العامل الاقتصادى ، وباستعداده وتهيئه ، للانحراف الروحى والخلقى ، تحت وطأة هذا العامل ، ما لم تتداركه عقيدة ، تجعل هذا العامل فى خدمة نفع الإنسان الفرد ، وفى خدمة الإنسان كمجموع ، أورد الأحكام العديدة ، المجملة والمفصلة ، التى تضع قواعد هذه العقيدة وأسسها .

[illegible] القول إلى أن القرآن سلك مسلكا فريدا فى ربط العقيدة التى جاء بها لتنظيم حياة الإنسان فى كل دروبه وفروعه واتجاهاته ، وفى مقدمة تلك الدروب والفروع والاتجاهات النشاط الاقتصادى ، بحياة الإنسان اليومية ، وعلى وجه أخص بنشاطه الاقتصادى .

كما سبقت الإشارة إلى أن القرآن نزل لأمة كان عماد اقتصادها التجارة ، لجدب أرضها ، وخلوها ظاهرا وباطنا من الثروات التى مكنت أمما غيرهم من استنباط الثروة ، ومن تحقيق أسباب السيادة . لذلك قرب لهم مبادئ هذه العقيدة الجديدة ، باستعارة مصطلحات حياتهم التجارية ، مثل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله » وقوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ثم قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » .

وقد أضاف القرآن الكريم إلى مصطلحات التجارة وألفاظها ، مصطلحات الزراعة فجاء فى القرآن الكريم عن : محمد رسول الله والذين معه ، « مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شَطْأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار » وقوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » وقوله تبارك وتعالى فى بيان مثل الحياة الدنيا : « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًّا ثم يكون حطاماً » .

فالدين الإسلامى ، بقرآنه ، والقرآن بآياته وأحكامه ، شديد الاتصال — كما قلنا وكررنا — بالحياة ، وبكل جوانبها ، وبالجانب الاقتصادى منها ، فليس القرآن مواعظ خلقية ، تدعو الناس إلى الرفق بالضعيف ، والشفقة بالفقير ، والعطف على المحروم ، وليس دعوة إلى الصدق والإحسان إلى هؤلاء جميعا ، ليس ذلك فقط ، وإنما هو

أولا – تقرير واضح وبين وجلى لخصائص وصفات وميول وشهوات الإنسان فيما يتعلق بالمال ، والحرص عليه ، والطمع فيه ، وكراهية الإنفاق منه .

ثانيا – تجنب مصادرة هذا الميل الإنسانى إطلاقا ، الوقوف فى وجهه ، والميل إلى الرهبنة وتحبيب الناس فى الانصراف عن الدنيا وإهمال أمرها إعلانا منه بأنه نزل لبشر فيهم النقص والضعف ، ولكن فيهم أيضا قدرة لا حدود لها ، للتسامى على هذا الضعف ، والارتفاع عنه إلى البذل بالمال وبالحياة ، والتضحية بالولد وبلذائذ الدنيا ، وإن المذهب السليم ، والعقيدة الصالحة هى التى تعرف الإنسان على حقيقته بخيره وشره ، وقوته وضعفه ، والتى تحول غرائزه إلى طموح الإنسان واستشراقه إلى أعلى المراتب : مراتب النبيين والصديقين والشهداء « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

ثالثا – دعوة الناس ، والإهابة بهم ، ليؤمنوا بالعقيدة التى تجعل المال فى خدمة الإنسان ، وتمنع جعل الإنسان فى خدمة المال ، وتحبيبهم فى إنفاق المال ، من أجل الصالح العام ، ووضع نظام يمنع من تكديس المال فى يد جماعة ، تتحكم عن طريقه فى رقاب الناس وحرياتهم ، وتستذلهم بجاه هذا المال وسلطانه . والبدء بالدعوة الكلامية ، والتحريض والإهابة والإثارة ، فإن لم تفلح هذه الوسائل ، وجبت الحرب ، وتعين اللجوء إلى القتال .

ويجب أن نستحضر فى الذهن ، بأن الإسلام لم يكن حركة فقراء ضد أغنياء ، وإنما كان دعوة إلى الإيمان بالتوحيد ضد الشرك والكفر بالله الواحد ، ذلك لأن الإيمان بآلهة عديدة ، هو الحاجز الأكبر ضد العلم ببدهية من بدهيات المعرفة ، لا يمكن الاهتداء إلى بدهية أخرى ، إلا بعد التسليم والاقتناع الكامل بهـا ، فالاهتداء إلى وحدة الإله ، معناها الاهتداء إلى القانون العلمى الأسمى الذى يحكم الكون ، بل الأكوان كلها ، ما نعرفه وما نجهله ، وما نشهده بأعيننا ، وما نتصوره بعقولنا . ذلك أن التسليم بإله واحد ، معناه أن لهذا الكون نواميس ثابتة ، تجرى آثارها فى الأشياء والأشخاص ، على وتيرة مستقرة ، وأن البحث وراء هذه النواميس ، والوقوف على حقائقها ، وتفاصيلها ، يؤدى إلى الانتفاع بكل ما فى الكون من قوى ، حتى الشمس والقمر والكواكب المسخرات بأمر الله ، للإنسان . إذا اهتدى إلى القوانين الضابطة والمحركة لها .

ولكن لم تكن مجردمصادفة محضة ، أن يكون أكثر من فى معسكر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، من الفقراء ، وإن كان فيه عدد من كبار الأغنياء ، كما كان فيه نفر غير قليل من أشراف العرب المنحدرين من أسمى أرومة وأصول فيها ، كما لم يكن مجرد صدفة محضة أن معسكر الشرك ، كان أكثره أو كله من الأغنياء أصحاب المقامات الموروثة ، وأصحاب الكلمة النافذة فى شئون الحكم والمال والتجارة ، والدين . وأن تكون هذه القلة المؤمنة بمحمد ، ممن قبلوا عن رضا وطواعية ، أن يتخذوا من عبيدهم — إن لم يعتقوهم تماماً — إخواناً لهم

يؤاكلونهم ما يأكلون ، ويلبسونهم مما يلبسون ، فى حين أن معسكر الشرك ، كان يرفض أن ينظر إلى أحد من الرقيق والإماء ، وغيرهم ممن يشبهونهم فى رقة الحال ، وضعف المكانة ، من العمال والأجراء ، إلا كنظرة الآدمى إلى الحيوان الأعجم ، يسخره فى حمل الأثقال ، ويكل إليه أشق الأعمال ، ولا يجود عليه إلا بأقل القليل من الطعام ليقيم أوده ويحفظ عليه رمقه ، ولقد كبر على معسكر الشرك أن يكون رسول الله ، بشراً ، وأن يكون يتيما فقيراً ، وألا يكون مسلكه فى الحياة كمسلكهم ، اعتزازاً ، بالمال ، وإدلالا بالجاه ، فقالوا « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وكان طلبهم المتكرر الذى تقدموا به إلى محمد ، بعد أن استقرت دعوته ، ورأوا أنها تقوم على منطق مقبول ، وحجة صادقة ، أن يطرد الصغار المجهولين ، الذى لا شأن لهم فى المجتمع ، ولا مال فى أيديهم ، حتى لا يتساووا بهم ، إذا دخلوا فى الدين الجديد ، وسلموا بصدق النبى المرسل ، علانية ، وفى غير مواربة ، فكان أمر الله لرسوله « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » وجاء رد الرسول « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون » ثم جاء رد الرسول أيضاً : « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً » .

وبذلك تحدد الموقف بين المعسكرين ، وزادت معالمه وضوحا . معسكر الأشراف ذوى المال الكثير ، والجاه العريض ، والنفوذ القائم على العصبية الموروثة ، والمناصب الموقوفة على عشائر بعينها ، والهيبة التى تخضع الجميع ، والتى تأبى أن يشاركها فى جاهها وعلو كلمتها ،

مشارك . ومعسكر التجديد والتطور ، الداعي إلى إزالة الحواجز الكاذبة بين الناس، وإبقاء الضعيف ضعيفا ، والفقير فقيرا ، والمحكوم مجردا من السلطة ، ومن المشاركة فيها ، ومن النصح ، للمتمتعين بسلطانها وهيلمانها . معسكر الذى يقول إن كل إنسان بعمله ، وإن المال مال الله ، يداوله بين الناس ، وإن للفقراء فيه حقا معلوما ، وإن الأرقاء يعتقون ، ويعانون على فك أسرهم ، ويصبحون أندادا للأحرار ، يتولون من شئون المسلمين ، ولاة ومعلمين وهداة ومرشدين ، ما كان وقفا على أبناء البيوتات ، والمنتمين إلى الأشراف جيلا بعد جيل .

لكن كيف أصبح معسكر التوحيد ، والتجديد ، وإطلاق القيود ، وتحرير العبيد ، معسكر الفقراء والمحرومين ؟

لقد قلت إن عقيدة التوحيد ، بذاتها ، تؤدى إلى رفض إبقاء الفقير فقيرا ، مهما حباه الله بالعقل ، والقدرة على العمل ، ومهما ميزه بالأمانة والصدق . ذلك لأن النتيجة الطبيعية ، لكون الإله ، واحدا لا يتعدد أن يكون جميع المخلوقات من صنعه ، أن تزول فكرة الإله « المحلى » ، و« الإله » الخاص فيتساوى الناس جميعا ، ومادام الناس مشمولين بعناية الإله الواحد ، ومنتمين إليه ، ولم يعد لكل قبيلة إله ، ولكل شعب إله ، ولكل طبقة إله ، انعدمت فكرة التميز والتباين ، التى قامت أساسا على أن الله ، يأبى أن يكون إله الفقراء والضعفاء والمحرومين والجهال ، وإله الأغنياء والأقوياء والحاكمين والحكماء .

وحينما يفقد الأغنياء والأقوياء ، حماية الإله الخاص ، يدركون أنه الطوفان ، وأن امتيازاتهم ستسقط ، وأن دولهم ستدول ، ولذلك

يقفون أمام الدعوة الجديدة بكل قواهم ، ويشتدون فى اضطهاد الفقراء . وملاحقتهم بصنوف الأذى حتى لا يتكاثرون فى المعسكر المضاد ، ويقوى عزمهم ، بازديادهم ، وبإقبال الآخرين على الدعوة الجديدة ، والدخول فى الدين الجديد أفواجا .

على أن القرآن الكريم ، لم يدع إلى التوحيد فحسب ، ففى السور الأولى ، إشارات صريحة إلى المنهج الجديد ، للدين الجديد ، فى جانب علاقة الناس المادية بعضهم ببعض ، وبالمكان الذى يضع فيه هذا الدين والمحرومين – ففى سورة المسد ، وهى سورة صغيرة من خمس آيات قصار يقول الله تعالى عن « أبى لهب » « ما أغنى عنه ماله وما كسب » وهذه الآية على قصرها ، يعدها معسكر الأغنياء زلزالا ، يهز بناءهم من قواعده ، لأنها تقرر أن المال لا يحمى الكافر ، ولا يغنى من كفره شيئاً ، والعهد بهم قبل ذلك أن المال يمنحهم العزة فى الدنيا وأنه لا آخرة بعد هذه الدنيا ، فكأن المال يكفل لهم خيراً غير ممنوع ، وحماية لاشك فيها ، ولا نهاية لها . ثم تأتى سورة أخرى هى سورة « الماعون » التى تبين وتحدد خصائص الذين لا يسلمون بهذا الدين ، ولا يؤمنون به ، فإذا هى خصائص تنصب كلها على علاقة هؤلاء الكافرين بالمال ، وطريقتهم فى إدارته وإنفاقه فقد قال الله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين . فويلٌ للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون.ويمنعون الماعون » .

فخصائص المكذبين للدين أنهم يهينون ، ولا يرحمون المسكين فيطعمونه ، ثم يمنعون الماعون .

وتتوالى السور على نفس النسق ، ففى سورة الهمزة يتوعد الله الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، بأنه « لينبذن فى الحطمة » .

فإذا وصلنا إلى سورة « الذاريات » ، وضحت هذه المعانى ، بما لا يدع مجالا للمشركين والكفار فى تبين ما يدعو إليه الدين الذى أرسل به محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، فقد قال الله تعالى فى وصف المؤمنين بأنه « فى أموالهم حق للسائل والمحروم » . فليس ما يعطاه الفقراء المعوزون ، والذين لا يجدون قوتهم ، تبرعاً أو نزولا من الغنى للفقير ، عن بعض ماله إنما هو حق فرضه الله تعالى ، فى هذه الأموال ، ومن هنا فقد اشتد الصراع بين المعسكرين اشتداداً ، بلغ حد القتال ، فسالت له دماء ، وبذلت فيه أرواح ، حتى كتب الله للدين الجديد أن تكون كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وفى بيان هذا الصراع ، نقول بإذن الله كلمة :

لقد أضفت عقيدة الإسلام ، أول ما أضفت — حماية سابغة على الفقراء والمحرومين والضعفاء والكادحين فى سبيل تحصيل لقمة العيش ، وإقامة الأود ، ولذلك رفض الأغنياء والأقوياء وأصحاب الكلمة النافذة ، والسلطة الباطشة ، هذه العقيدة ما وسعهم الرفض ، وقاوموها ما وسعتهم المقاومة .

والسر فى خلق هذه الحماية ، وبسط ظلها ، كما سبق القول ، أن الإله الخاص كان من صنع الجماعة القوية من البشر ، فكانت طقوس الدين الذى يتخذ من « الإله الخاص » رباً ، تقضى كلها ، بتقديم الغنى ، وتأخير الفقير وتكريم القوى ، وإهانة الضعيف ، وكان الأحبار والسدنة يكتبون الكتاب بأيديهم ، ويقولون إنه من عند الله ، ولم يكن

هذا الكتاب المفترى ، إلا تأييداً لسلطة الأقوياء الأغنياء ، وحماية لأموالهم ، وصيانة لثرواتهم ، وتأكيداً لعبودية العبيد ، ولذلهم وهوانهم .

فالدين الإسلامى ، وإن جاء يدعو إلى توحيد الله ، وهدم وهم الشرك وتعدد الآلهة ، وإنه فى سبيله إلى نشر هذه العقيدة ، ودعوة الناس إليها ، حطم كل ما كان المجتمع الجاهلى يؤمن به من التمييز بين الناس ، فالقرآن أعلن المساواة بين الناس بأكثر آياته ، صراحة وضمناً ، بالقول والمثل ، والأمر والنهى ، وأجمل هذا كله فى قول الله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى والعمل الصالح » .

ولكن لم يكن ممكناً أن ينزل الأقوياء عما استأثروا به من سلطة وجاه ولا أن يتزل الأغنياء ، عما حظوا به من مال ومتاع ، بمجرد الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، الذى لا يتعدد ، والذى لا يشركه فى ألوهيته وربوبيته شريك من صنم أو بشر .

فالناس على ما بين القرآن الكريم ، مجبولون على حب المال وجمع الذهب والفضة ، ومن هنا ، تحتم أن يكافح المؤمنون ، بعقيدة التوحيد ، فى سبيل نصرة هذه العقيدة ، كفاحاً متصلاً مراً لا يقف عند حد الدعوة الكلامية ، بل يأخذ صورة المعارك والوقائع . وقد قبل المسلمون ، بنفس راضية ، أن يخوضوا هذه المعارك ، ويصطلوا بنارها ، لأنهم آمنوا بأن عقيدتهم لن ترتفع أعلامها إلا بهذا الجهاد .

فالذين يرمون الدين الإسلامى ، بتهمة مهادنة الأغنياء فى المجتمع القرشى ، وإن تألف قلوب أمثال أبى سفيان وأسيد بن خلف ، هو صورة من صور المصالحة ، لا يقولون إلا منكراً من القول وزوراً وبهتاناً عظيماً . فالإسلام منذ يومه الأول ، وهو يحارب من أجل حقوق الفقراء ، ويستخلصها من المجتمع الجاهلى ، لا على أنها تبرع محض ، متروك إلى المرء ، يعطيه إن شاء ، ويمنعه إن أراد ، إنما هو قرض يؤدى ، وعبادة يحاسب على التفريط فيها ، أو التقاعس فى القيام بها ، وهذه الحقوق كلها ليست سوى لبنة فى بناء متكامل ، لا يقام حتى لا يكون المال ، الكثير والقليل ، فى يد الحاكم أو المحكوم ، فى يد المسلم أو الذمى ، إلا عبداً للإنسان لا سيداً له ، وأداة لا غاية ، ومتاعاً للحياة الدنيا وزينة ، وليس جوهراً ، يكتفى به ، ويطمئن إليه .

وسنرى أن القرآن الكريم ، والسنة والسيرة المحمديتين ، تفيض كلها ، بالأدلة والشواهد على صدق دعوانا . فضلاً عن تاريخ صدر الإسلام .

ونحن وإن لم نكن فى صدد بيان النظام الاقتصادى فى الإسلام لكنا فى حاجة إلى الإشارة إلى المعالم الكبرى لهذا النظام ، حتى يتيسر لنا ، إظهار مكان العامل الاقتصادى فى البناء الشامل للإسلام كله .

فالقاعدة الأولى من قواعد النظام الاقتصادى الإسلامى ، هى أن الملكية أو المال « وظيفة » وأن أيدى الناس عليه ، أشبه شىء بيد صاحب الوظيفة ، على ما تمنحه هذه الوظيفة من سلطات وقدرات ، وجاه ونفوذ . فهذه السلطات ، والقدرات ليست منحاً وامتيازات شخصية لصاحب الوظيفة وإنما هى وسائل ووسائط ، لخدمة الناس ، وإسعادهم ، وتحقيق

العدل بينهم، ورد عادية الشر عنهم . وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى بالكثير من آياته منها قوله تعالى : آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

فما يظفر به الإنسان من مال ، هو مستخلف فيه ، أى أنه يديره بالنيابة أو بالوكالة أو كخليفة عن الخالق الأعظم ، الذى يعطى الملك لمن يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، فالمال مال الله صراحة ، ويد الإنسان عليه ، يد وديع ، فالثروة التى يحصل عليها ومتاع الدنيا الذى يظفر به ، هو مال الخالق المصرف لكل شىء فى هذا الكون ، وعليه أن يتحرى مقاصد هذا الخالق الأعظم ، من إنشاء هذا المال ، ومن تنقله بين أيدى الناس ، وتداولهم إياه

فإذا كان وصول المال إلى يده يكسبه مكانة ؛ ويضفى عليه مهابة أو يزيد نصيبه من متع الحياة ولذائذها ، ، فلا بد له لاستبقاء هذه النعم كلها ، ألا تشغله هذه المتع العابرة ، عن المعنى الأعظم ، المستفاد ، من اختيار الله إياه ، لحراسة هذا المال ، وإدارته بين الناس ، فيوسع من نطاق الخير الذى يمكن لهذا المال تحقيقه ، وألا يتخذه وسيلة للاستعلاء على الناس ، أو البطش بهم ، أو تسخيرهم لخدمته ، وإظهار الطاعة له ، والخوف منه ، وصرفهم عن العمل من أجل الخير العام ، وصالح المسلمين ثم صالح الناس أجمعين .

هذه القاعدة ، هى ركن الزاوية فى بناء النظام الاقتصادى الإسلامى ، تتفرع منه جميع الأحكام التالية والفرعية . لأن أساس الأحكام فى الإسلام ، هو « الأخلاق » التى تصنعها العقيدة ، والإسلام حريص على

أن يكون هذا الأساس قويا وثابتاً وجليا ، لأن سلامته ، ووضوح مقتضياته يحول بين الناس وبين أن يضلوا ، فالخطر الناجم من المال ليس مرده كثرة المال فى يد فرد أو يد جماعة ، إنما مرده نظرة الحائز المال ، إلى هذا المال ، فإن حب المال سلاح كالبندقية أو المدفع ، وضع فى يده ليخيف الناس ، ويرهبهم ، وينزع منهم مالهم ، ويهدد أمنهم ، وينشر الفزع بينهم ، فقد خرج من ربقة الإسلام ، وخالف ما أمر به الله ، أما إذا اعتبر المال ، الذى اؤتمن عليه ، سلاحاً ، يدفع به غائلة المعتدين ، ويحمى بحده ، المحتاجين ، ويجعله سبيلاً لزيادة الخير بين الناس ، فقد اهتدى بهدى الإسلام ، وعمل بأحكامه .

فوصف المال فى القرآن بأنه « مال الله » وتقريره بأن هذا المال نحن « مستخلفون » فيه ، يتضاءل إلى جانبه كل ما يقال فى كتب الاقتصاد الحديثة ، وكتب الاجتماع المعاصرة ، من أن الملكية وظيفة اجتماعية لأن الله سبحانه – عند المسلمين – المثل الأعلى ، فحينما بكون المال ماله ، فمعنى ذلك أن المال يجب أن يرتقى دوره ، فى بناء المجتمع ، وتحديد علاقات الأفراد والسلطات فيه بين بعضها البعض ، إلى أعلى ما يصبو إليه الإنسان ، المتجرد من الهوى الذى تلتوى به الأمور ، وتفسد له شئون الناس .

ولقد فاضت آيات القرآن الكريم ، بأن المال ، لا يرفع قدر الإنسان ؛ وإنما عمله الصالح ، هو السبيل إلى رفعة القدر ، وعلو المكانة :

قال الله تعالى :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها ، إنا بما أرسلتم به كافرون .وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ، وما نحن بمعذبين . قل إن ربى

يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ، ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف ، بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون . والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون . قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقدر له وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

فالقرآن الكريم الذى دعانا إلى الانتشار فى الأرض ، والذى دعانا إلى السعى فى مناكبها ، والأكل من رزقه ، والذى استنكر أن تحرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، والذى أمرنا ، أن نجعل المثل الأعلى ، أى الدار الآخرة ، نصب أعيننا مما أفاءه الله علينا من نعم الدنيا ، حثنا فى الوقت نفسه ، ألا ننسى نصيبنا من هذه الدنيا ، وأن نفرح ، ونجلو صدأ النفس به ، لنواصل سعينا إلى الدار الآخرة ، التى هى غاية غايات الرقى والسمو .

وقد أجملت الآية السادسة والأربعون من سورة الكهف هذا المعنى الكلى :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » .

فالمال غير ملعون، ولا منهى عن جمعه والسعى فى الحصول عليه ضرورة لافرار منها ، لأنها السبيل إلى عمران هذا الكون ، وتجميله ، وتذليل صعابه ، ولكن نظر المسلم ، لا يثبت عنده ، بل هو يتجاوزه دائماً ، إلى ماهو أعلى منه مقاماً ، وأعظم منه دواماً ، أى « الباقيات الصالحات » التى هى خير

عند ربك ثواباً وخير أملاً .

ولما كان البناء الإسلامى ، فى كل نواحيه ، منطقيًّا ، بمعنى أنه مقدمات تفضى إلى نتائجها ، وتتصل بها اتصالاً محكماً وثيقاً ، كأنهما شيء واحد ، فإنه ينبنى على القاعدة السابقة ، قاعدة تتكون من شطرين ، كل منهما من الآخر ، بمثابة حد المقص :

الشق الأول ، أن الاستكثار من المال ، وإن كان حلالاً ، أمر مكروه. والشق الثانى أن حبس المال عن الإنفاق بعامة ، وعن الإنفاق من أجل المصلحة المشتركة أو القومية بخاصة ، معصية يكرهها الإسلام ، وينهى عنها ، ويعاقب عليها . ومرد كراهية الإسلام للاستكثار من المال ، ولو عن طريقة الحلال ، والانهماك فى جمعه ، والانشغال به دون سواه ، من النشاط الإنسانى بوجوهه المختلفة ، إن هذا الجمع والانهماك يؤدى بطبيعة الحال إلى موبقتين . الأولى أن يصبح الإنسان عبداً للمال فيكون صاحب المال عبداً له ، والأمر الثانى أن يكون المال أداة صاحبه لاستعباد الآخرين . أما كراهية الانهماك فى جمع المال ، والانشغال به والاستزادة منه فقد دلت عليه الآيات السادسة عشرة وما بعدها فى سورة الفجر :

« كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال حبا جما » .

أما اكتناز المال والضن به على الإنفاق العام ، المفضى إلى خير الجميع ، فقد خوف القرآن الكريم من نتائجه ، بآية صورت عواقب ذلك الاكتناز ، بما تنخلع له قلوب العضاة ، الذين بلغ حب المال من نفوسهم أقصى الغاية ، قال الله تعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » ! .

أما الدعوة إلى الإنفاق فى سبيل المصلحة العامة ، أى سبيل الله ، وفى سبيل البر بالفقراء والتخفيف عنهم ، والأخذ بيد الضعفاء والمساكين ، والذين نزلت بهم النوازل والضوائق ، فتجدها فى كل جانب فى القرآن الكريم منها :

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء » « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة ، مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » .

كل هذا ، الجانب الأخلاقى ، أو الأساس الروحى ، للنظام المالى للإسلام ، ولكن لهذا النظام دعائم ثلاثة متجسد فيها :

الأولى – الزكاة .

الثانية – تحريم الربا .

الثالثة – نظام الميراث أى توزيع الثروة وعدم تكديسها فى يد أو أيد قليلة .

والذى نقصد إليه فى هذه الحلقة من حديثنا ، أن نثبت أن الإسلام : لم يقف عند حد حض المسلمين على اتباع نظرته إلى المال ، وإنما جند أتباعه والمؤمنين بأحكامه ليحاربوا فى سبيل هذا النظام ، لا يقصد تحرير الفقراء من أسر المال والأغنياء ، وتحطيم أغلال فقرهم ، فقط ، وإنما لتحرير الأغنياء ،

أنفسهم من ذل المال ، وحبه ، والخضوع لمغرياته ، ثم لتحرير المجتمع كله من سيادة المال وتسلطه ، وفى جملة ، إقامة نظام ، المال فيه خاضع لعقيدة الإسلام .

وأهمية الزكاة أنها إضافة جزء من أربعين جزءاً من رأس مال صاحب المال الخاص إلى المال العام .

وتاريخ الدعوة الإسلامية ، فى عهد الرسول ، وفى عهد خلفائه الراشدين ، دال على أن المسلمين خرجوا من مجرد الدعوة إلى أحكام الدين ، ومبادئه ، إلى الحرب من أجل إقامة حكم الزكاة ، والوفاء بها للخليفة ، وإمام المسلمين ، المشرف على أمورهم ، والمصرف لشؤونهم ، ليصرفها فى مصارفها .

وما حروب الردة إلا الصراع الحربى بين المسلمين وعلى رأسهم أميرهم ، الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، وبين المعسكر الذين كبر عليهم أن يؤدوا الزكاة لوالى مكة ، وقد ألفوا ألا يخضعوا لحكم يأتى لهم من خارج القبيلة التى ينتمون إليها ، وإن كانوا قد أذعنوا لحكم مكة ، إبان عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان مما يخفف عنهم هذا الخضوع ، أنه لرجل اختاره الله تعالى ، فالإذعان ليس له ، وإنما لله سبحانه وتعالى . فلما قبض الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وحل محله رجل لا يدعى لنفسه صلة بالله ، فلم يعد فى الأمر رسالة ولا نبوة ولا اختيار من عند الله .

ولقد قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بأخذ المرتدين بالرفق ، والانتفاع بسيوفهم فى سبيل نشر دعوة الإسلام ، وأقام رأيه على قول رسول صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا بأنه لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله ، ومن قالها فقد عصم منى دمه وماله إلا بحقهما » ، ورأى أبو بكر أن الزكاة حق المال ، وأنه سيحارب كل من منعه عقال بعير كان يعطيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وأدرك عمر أن ما رآه أبو بكر هو الرأى ، وخاض المسلمون حرباً كانت أشد عليهم ، وأعظم فتكاً بهم ، وبالخيرة من أصحاب رسول الله ، وقراء كتاب الله ، من معارك المشركين . وقد ثبت المسلمون لهذه الحرب الخطرة ، حتى خرج الإسلام سليماً بكل أحكامه ومبادئه ، ولم يعد ثمة مكان للتطرف أو اعتدال فى أحكام النبى الكبرى ، لأنها عند جميع طوائف المسلمين ، واجبة والوفاء بها أمر من الله لا يعصى .

وإذا كانت الزكاة ، فرضاً وعبادة ، فإنها تكشف بجلاء عن نظر الإسلام إلى المال ، وكونه مال الله ، أى أنه يجب أن يكون فى خدمة الناس ، عباد الله ، ولا أن يكون سيدهم المخوف ، وحاكمهم الآمر ، فإنهم إن سودوه عليهم ، ذلوا ، وأحاطت بهم المحن ، وزال ملكهم ، وهلك سلطانهم وهو ما أصابهم فى حقب جاءت بعد أن ازدهر الإسلام ، وارتفعت راياته ، وسادت حضاراته وثقافاته . أقول حضاراته وثقافاته ، ذلك لأنه كان للإسلام فى كل عصر ، حضارة ، تأخذ من الزمان والمكان سمات تميزها ، ويبقى جوهرها ، جوهر الإسلام الباقى الخالد .

ولكن هدية الإسلام إلى البشرية ، فتلك هى تحريمه المؤكد للربا ، وكراهيته له ، ووقوفه أمام جبروته الطاغى ، وإغرائه الساحر . فالإسلام بتحريمه الربا ، أهاض جناحى رأس المال ، وروض شراسته ، وأزال عنه عنفه ، فقاده من خطامه ، فبعد أن كان بالفائدة الربوية ، وحشاً لا سبيل

إلى التفاهم معه ، أصبح غلاماً مطيعاً ، يقاد من خطامه ، صاغراً صابراً .

والإسلام كالعهد به ، لم يقفز إلى تحريم الربا فى وثبة واحدة ، ذلك لأن الإسلام يعرف من نفوس الناس ، وما ينطوى عليها من ضعف ، الأمر الذى قرره القرآن كثيراً ، فتكشف عن ضعفه ، فى أكثر من موضع منه ، فقد خلق الإنسان من ضعف ، « وخلق الإنسان ضعيفاً » لذلك بدأ القرآن الكريم فى إشارة خفيفة يهيىء بها الأذهان ، والنفوس معاً ، لأمر التحريم الذى يتهيأ للنزول إلى المسلمين ، فقال الله تعالى وهو يتحدث عن أخطاء اليهود ، ومعاصيهم — فى الآية الحادية والستين بعد المائة من سورة النساء « وأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه » وإن كان الحديث عنه عن بنى إسرائيل ، فإنه حيث قال إن أخذ الربا فى ذاته ، معصية ، ولكن التحريم لهذه المعصية لم يعلن بعد ، فليتدبر المسلمون هذا التمهيد ، وليهيئوا أنفسهم وحياتهم له ، فلا يفجؤهم وينزل بهم نزول المصاب ، وخطا الإسلام بعد ذلك خطوة إذ جاء فى الآية التاسعة والثلاثين فى سورة الروم : « وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس ، فلا يربوا عند الله » ثم جاء التحريم صريحاً وقاطعاً فى الآية الخامسة والسبعين بعد المائتين من سورة البقرة : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ». « يمحق الله الربا ، ويربى الصدقات » فى نفس الموضع من السورة قال الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ، إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم

لا تظلمون ، ولا تظلمون » .
وتأكد هذا التحريم القاطع بالآية الثلاثين بعد المائة من سورة آل عمران :
« يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

والثابت أن الفائدة بعامة ، والفائدة الربوية بخاصة هي سبيل أصحاب رأس المال فى الاستزادة منه ، والاستكثار من ألوفه المؤلفة ، التى تزيد على مر الأيام ، وكلما زاد نجاح رأس المال وسطوته ، وكلما اطـرد نجاحه ، واتسع نطاقه ، وزادت قدرته على استخدام العقول المبتكرة ، والإدارات الحازمة القادرة على إدارة المئات والألوف من العمال والموظفين وأصحاب المهارات اليدوية والعقلية المختلفة. ولقد بتنا اليوم لا نسمع إلا المليارات بعد أن كان المليون فى الفترة ما بين الحربين العالميتين ، رقماً خيالياً ، فأصبح الآن رقماً هزيلا ، لا يذكر إلا فى صدد المشروعات الصغيرة فى البلاد الفقيرة ، ولا يتصور فى بلاد المال والصناعة ، مجرد التفكير فى تحديد الفائدة الربوية ، وردها إلى الفائدة البسيطة التى لا تتراكم بعضها فوق بعض ، بل لا يتصور أحـد من رجال المال والصناعة حـد أعلى للفائدة فى المعاملات الدولية ، ولذلك كان الإسلام مدركاً حقائق الحياة الاقتصادية من الأفراد ، وفى داخل الوطن الواحد ، وفى نطاق المعاملات بين الدول ، فما رفع حماة رأس المال التى بها يلدغ والتى بها يقتل ، وهى الحماة التى يسميها عامة الناس « بالزبان » ، فإن رأس المال بعد رفعها منه ، يصبح طائراً وديعاً ، لا يؤذى .

ولقد تواصى علماء الاقتصاد العالميون على اعتبار تحريـم الفائدة

الربوية خيالا لا يتفق مع حقائق الأمور العملية ، وعلى اعتبار أن النظام الذى يحرمه لا يمكن أن يكتب له البقاء ، ولقد تولت حياة الدولة الإسلامية العظيمة ، وما تم خلالها من فتوحات الحرب والسلم ، فى ميادين العلم والفكر والثقافة ، الرد على هذه الدعوى الباطلة ، فقد قامت مؤسسات ودور للتجارة والصناعة ، فى جميع بلاد العالم الإسلامى كله ، دون أن يتلوث الاقتصاد الإسلامى ، بشبهة الربا . ثم لما اشتد ألم الطبقات الفقيرة من سطوة رأس المال فى الغرب ، ومن الفائدة الربوية الخانقة ، اندفع المجتمع الغربى إلى أشد الاتجاهات المتطرفة ، فقامت بالفعل دول ، تلغى رأس المال كله ، ولا تلغى فائدته وحدها ، وهى تخوض تجربة ، أثارت ولا تزال تثير ما نعرفه جميعاً من أصداء ، لا نود أن نقف أمامها ، حتى لا نخرج عن نطاق هذا البحث الدينى البحت .

ولكن لابد أن نقف أمام لفظ القرآن الكريم ، وهو يأمر المسلمين أن يذروا الربا ، ثم وهو يحذرهم من عواقب التردد أو التكاسل فى إطاعة هذا التحذير والأخذ بمقتضاه قال الله تعالى : « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ، فالمذاهب الحديثة تؤمن بالصراع ، وتعتبره الفضيلة التى تقوم عليها ، وتدعو إليها ، وهى تتهم الدين ، بأنه يعمل على تهدئة هذا الصراع ، أو صرفه إلى غير غاياته ، فى حين أن الإسلام ذهب بهذا الصراع ، وهو الذى يسميه القرآن والإسلام « بالجهاد » إلى أسمى غاياته ، وإلى أقصى حدوده ، فهو يرتفع به من صراع الفقراء ضد الأغنياء فقط ، إلى جهاد ضد المشركين والكفار ، وإلى نظرتهم إلى الحياة كلها وأقيمها بما فيها المال ، واعتدادهم به ، وسوء استغلالهم له ، واعتباره الغاية من

الحياة ، وأنه ضمان السلطة والقوة والجاه ، فى حين يرى الإسلام فى المال أنه « متاع » و« تراث » ، وأن الباقيات الصالحات ، هى خير ثواباً ، وخير أملا . ولا أحسب أن مذهباً ، حارب كما حارب الإسلام من أجل الزكاة ، وهى حق الفقراء فى ظروف كان فيها المسلمون فى أحرج فترات حياتهم ، بعد أن قبض رسول الله إلى ربه تعالى ، وبعد أن خرج جيش المسلمين لأول مرة من حدود شبه الجزيرة العربية ليصطدم بقوة عالمية هى قوة الروم ، إحدى القوتين الكبيرتين فى دنيا تلك الأيام ، التى اقتسم الجزء المعمور والمعروف فيها الفرس ، وأبناء روما ، وتهيؤ العديد من القبائل ، للوقوف فى وجه حكومة مكة ، والعودة إلى عصبية الجاهلية ، وتربص المنافقين الذين يعايشون كبار الصحابة ، ويؤليونهم من المدينة ، ويستطيعون أن يعرفوا ما يدور فى رءوسهم ، وما تقف فى وجوههم من صعاب ، وعقبات .

ولقد شاء الله تعالى أن يكتب النصر للمسلمين فى حروب الردة وأن يبقى الإسلام وأن يتسع ملكه ، وتنتشر دعوته ، لتقوم عقيدة ، لا تنكر المال ، ولا تتجاهل أثره فى حياة الناس ، ولا تمنعهم من السعى فى مناكب الأرض ، بل تدعوهم إلى الإنتشار فيها التماسا لفضل الله ، وفضل الله واسع ، يشمل المادى والأدبى ، يشمل ما يتصل بالبدن وما يشبع ويرضى النفس والعقل . . فقامت حكومة ، تضع المال فى مكانه بلا زيادة ولا نقصان ، فلا يذل أحداً ، ولا يخيف أحداً ، وإنما يكون فى خدمة الجميع ، يؤمر فيأتمر ، ويوجه فيتجه ، وتفيض خيراته على الكل وتتبدى علماً وعدلا ، وسكينة وطمأنينة ، وتفكيراً سليماً ، وتدبيراً صائباً ، وخيراً عميماً .

ولكن لقد دارت دورة الزمن ، وأصبح أبناء المسلمين الناشئون بعيدين

عن مصادر دينهم ، وعن مطولات شريعتهم ، وأصبح فهم العربية عسيرا على أذواقهم وعقولهم ، فتحتم أن نبادر بوضع هذه المجموعات فى غير عجلة ولا لهفة ، لتكون مدخلا إلى قراءة المراجع الكبرى .

وإذا كان ذلك واجباً بالنسبة للشريعة فى أحكامها ، فإنه أوجب فى الجانب الخاص بأحكام المال ، فإن الصراع حوله فى الدنيا شديد ، ومن خلفه تثور الأهواء والمطامع ، وتحاك الدسائس والمؤامرات ، وأبناء المسلمين ، لا يجدون بين أيديهم مرجعاً كاملا ، يعينهم على الفهم ، ويثبت أقدامهم عند المحاجة .

على أنه حتى نضع هذه المراجع الميسرة ، يجب أن يستقر فى يقين المسلم ، أن الإسلام لم ينظر قط إلى أحكام الشريعة ، على أنها نص قائم ، تسنده حراب السلطة ، ويحمل عليه الناس خوفا وطمعاً ، فإن القاعدة الكبرى فى الإسلام هى **أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وهى قاعدة أقامت حكومة الضمير ، وطبقت على أحسن وأسمى ما يكون التطبيق قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » فأصبح فى مقدور المال أن يذهب إلى أى سبيل يشاء فى حدود ما أمر الله به دون أن يكون أداة للقهر أو الإذلال أو الاستغلال ، ذلك لأن الإسلام نجح بالتربية والإعداد والتلقين ، أن يجعل الغنى والفقير ، والحاكم والمحكوم ، والعامل وصاحب المال ، جميعا شركاء فى إدارة هذا المال ، وإن سولت لواحد أو لجماعة ، أن تخرج على حكم الله ، وجدت من جماعة المسلمين من يردها إلى حكم الله ، بالنصيحة القولية ثم بالسيف .**

* * *

يجدر بنا ، أن نتأمل، بصورة شاملة ، العامل الاقتصادى فى القرآن ، ودوره فى الإسلام ، ومكانته فى بناء مجتمع المسلمين . فنخلص من هذا التأمل إلى الكلام فيما يستطيع أن يقدمه الإسلام إلى الإنسانية من علاج فى دورها الحاضر من القلق والحيرة ، ومن تفاقم مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعيه ، واستعصاء هذه المشكلات على الحل ، واضطراب الأمور فى الشرق والغرب. عند من آمن برأس المال ، وحريته فى التزايد والاستكثار من السلطة والتحكم ، وعند من كفر برأس المال وألغاه ، أو سحبه من أيدى الناس ، وأضافه إلى ذمة الدولة ، توجهه كيف تشاء ، وترسم له السبل ، وتفرض له الخطط .

وقد سبق القول بأن الحقيقة الأولى ، فى بيان موقف الإسلام من العامل الاقتصادى ، أن القرآن قد قرر ما يعرفه الله من طبيعة الإنسان ، من تسلط الشهوات عليه ، ومن حبه للمال ، ومباهاته به ، وحرصه على جمعه ، وكرها للإنفاق .

ومن ذلك قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب »

وقوله عز وعلا : « ألهاكم التكاثر » و « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق » « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض »

وهذه التقريرات القرانية تريناباديءَ ذى بدء موقف القرآن من الإنسان بعامة ،

فهى تكشف طبيعة الإنسان ، وما تنطوى عليه من ضعف ، وهى تقريرات تراها منبثة فى أكثر من موضع فى كتاب الله ، مثل « وكان الإنسان قتورا » « وكان الإنسان كفوراً » « وأحضرت الأنفس الشح » « وكان الإنسان ضعيفاً » « إن الإنسان خلق هلوعاً. إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً » « وإذا مسه الشر كان يئوساً » « وكان الإنسان عجولا » « إنه كان ظلوماً جهولا » « إن الإنسان لربه لكنود » وخلق الإنسان ضعيفاً » .

ولكن هذه التقريرات ، لا تعنى فى قليل أو كثير ، أن خالقه سبحانه وتعالى ، نفض اليد منه ، أو عده مخلوقاً ميئوساً من إصلاحه ، أو علاجه بل إن هذه التقريرات هى بداية الإصلاح ومقدمة العلاج ، أشبه شيء بهذا الفحص الشامل الذى يجريه الطبيب اليوم مستعيناً بالأشعة التى تنفذ إلى أبعد الأجزاء فى جسم الإنسان عن يد الطبيب وعينه ، وبالتحليلات التى تظهر من الأدواء والعلل ، ما لا يبديه الكشف الظاهرى ، مهما بلغ من الدقة والتحرى . والطبيب الإنسان ، لا يجرى هذه الفحوص ، لينتهى إلى القول بأن موت المريض ، واقع لا محالة ، بل ليبحث عن بصيص من الأمل ، وليهتدى إلى علاج أكثر نجاعة ، وقد يؤدى هذا الامتحان الدقيق لنفس الإنسان وجسمه وأعصابه ، أن العلاج فى متناول اليد ، وأن مرد العلة ، خلل ضعيف ، وأن تقويمه من الهينات .

فالإنسان فى القرآن ، باعث على الأمل ، بل إن الإنسان محرم عليه أن ييأس أو يقنط مهما ضاقت عليه الدنيا ، وسدت فى وجهه المسالك ، وظن أن رحمة ربه ، قد انصرفت عنه ، ففى القرآن لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون والظالمون .

الحقيقة الثانية من حقائق موقف القرآن والإسلام ، من الجانب المادى من حياة الإنسان ، بعد بيان ضعف هذا الإنسان ، ومواطن هذا الضعف وصوره ، أن القرآن لم يغض النظر عن ماديات الحياة الإنسانية ، فلم يمر بها مرًّا خفيفاً ، باعتباره ديناً سماويًّا غايته أن يصل الإنسان بربه ، وأن يعلمه التوحيد ، ويدعو إلى التقوى والفضيلة ، بل إن القرآن وقف طويلا أمام هذا الجانب المادى واحتفل به احتفالاً عظيمًا . وحذر الإنسان من إهماله ، ووضع له قواعد ونظما ، وأطال القول فى هذه القواعد ، وفصل بعضها تفصيلا .

فالقرآن لم يلعن المال ، ولم يعد التفكير فيه شركاً أو كفراً ، أو أنه يؤدى إلى الكفر أو الشرك فى ذاته ، بل إن القرآن خطا خطوة أخرى ، فعدد صور فضل الله على الإنسان ، ونعمه عليه وآلاءه ، فإذا أكثر هذه الأفضال والنعم ، خيرات مادية ، تتصل بالطعام والشراب والثياب والمسكن ، والأنعام التى تحمله من بلد إلى بلد بغير مشقة أو بمشقة يحتملها ، ولا تؤوده .

ومازال القرآن الكريم يبسط على الإنسان الضعيف رحمته ، فدعاه دعوة ملحة ، لأن يتذوق أطيب ما فى هذه الدنيا ، وألا يفسد على نفسه حياته ، فيحرم ما أحل الله ، ولا يفرض على نفسه من القيود والمشقات ، التى أعفاه الله منها ، ورفع تكاليفها عنه « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام » « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم » .

ولم يدع القرآن الكريم الإنسان ، بعد كل هذه الخطوات فلا يزال يمسك بيده ، ويقوى من ثقته بنفسه ، ويبعد عنه الخوف من العالم الذى يعيش فيه ، ويثبت أقدامه ، فى أمرين متنائيين بعيدين ، أولهما السعى فى الدنيا ، وثانيهما كشف المجهول من الكون .

أما السعى فى الدنيا ، فقد سبقت الإشارة إلى أن الإسلام ، جعل « الأرض » كلها مجال نشاط الإنسان ، وميدان سعيه واجتهاده ، فالقرآن لم يسلم بهذه الحدود المصطنعة التى أقامها الإنسان فى وجه حيويته ونشاطه ، وميله إلى الحركة والانتقال ، وحبه لمعرفة كل ما تكشف له مغالقه .

أما كشف المجهول ، والتعرف عليه ، وتجلية غوامضه ، فقد قرر القرآن للإنسان أمرين أيضاً : أولهما أن العالم كله مسخر له ، وأن سبيل الانتفاع من هذا التسخير أن يعرف أن لهذا الكون سنة ثابتة ، وأن على الإنسان أن يهتدى إلى هذه السنة ، فيرى الكون طوع أمره ، يلبى مشيئته ويذعن لتوجيهه .

وكل هذا يتصل بالجانب المادى من حياة الإنسان ، التى ظن الذين لم يعرفوا الإسلام ولم يقرأوا القرآن أنه جانب مهمل ، فى الإسلام والقرآن ، أو أن العناية المخصصة له منهما ، لا تعدو التوجيهات الوعظية العامة .

أما أن الأرض كلها ميدان مفتوح للإنسان ، فآيته قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها » . « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش » « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا » .

ودعوة القرآن للإنسان ليسير فى الأرض وليمشى فى مناكبها ، وليهاجر

من موقع فيها إلى موقع ، وتأكيده لابن آدم أنه سيجد بفضل هذه الهجرة فرصاً عظيمة للرزق والعمل ، هما ثمرة خاصيتين من خصائص الإسلام ، هما عالميته ، وإنسانيته .

وهما خاصيتان تميز بهما الإسلام منذ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعالميته تؤدى إلى أن العالم كله هو موطن الإنسان ، بغض النظر عن لغته وعقيدته ولونه ومقدار حظه من المال .

وإنسانيته ، تجعل المسلم ، أخا للإنسان جميعاً أينما وجد ، فبقدر ما يكون العالم وطن المسلم ، يضرب فى فجاج الأرض ، ويسير فى مسالكها ، غير شاعر لا بالوحشة ولا بالغربة فيها ، تكون الإنسانية قاطبة أمة المسلم وعائلته . يبحث فيها عن الصديق والعون ، والرفيق والشريك ، لا يرد نفسه لشبهة من شبهات التميز أو النقص ، فشعار المسلمين قول الله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وهذه الدعوة ، وإن كانت تبدو أقرب إلى ما يتصل بعقل الإنسان ووجدانه ، أى بعقيدته ودينه ، إلا أنها شديدة الاتصال بالجانب المادى ، فالتجارة والأعمال ، تزدهر ، وتنمو ، وتكثر بفضلها أرزاق الناس ، وثروات الدول ، كلما أزيلت الحواجز فى وجه انتقال الناس من صقع إلى صقع ومن موطن إلى موطن ، كذلك انتقال الأموال والبضائع والسلع ، وأستطيع أن أؤكد جازما ، أنه لم تسبق الإسلام دعوة لا سماوية ولا إنسانية ، قررت أن الإنسان مخلوق عالمى ، وأن وطنه هو الأرض كلها ، وأن عائلته ، هى الإنسانية بقضها وقضيضها ، وأنه فوق ذلك ، مدعو لأن يحقق ذلك

فعلا ، بأن يسير فى مناكبها ، ويسعى فى سبيل رزقه ، ولا أحسب ان هناك نصا فى كتاب منزل أو موضوع أورد مثل هذه الآية : « إن الذين توفاهم الملائكة ، ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

فعقاب الذين لم يصدقوا أن الأرض وطنهم ، ولم ينفذوا أمر الله فى قوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » .

صحيح أن الآية تعد المستضعفين الذين رضوا بسوء الحال ، بجهنم لأنهم مثلوا الظلم ، ولكن للآية دلالة أخرى ، هى أن أرض الله ، واسعة ، وأن الواجب الهجرة إلى جانب منها ، عندما تسوء الحال ، فى جانب آخر ، فهى أرض الإنسان ، وقد أضيف وصف « واسعة » ، ليتأكد معنى السعة بشقيه المادى والمعنوى ، فهى واسعة لأنها لا تضيق بأحد ولا بنشاط ولا براغب فى التنقل والهجرة ، وهى واسعة بمعنى أن الإنسان يجد فيها مخرجاً لضيقه ، وتفريجاً لكربه .

وليس ثمة عبارة يمكن أن تؤكد نظرة الإسلام والقرآن إلى مدى اتساع النشاط الإنسانى ، واحتمالات هذا النشاط المترامى الآفاق غير المحدودة ، كعبارة هذه الآية .

ولكن لا تزال الخاصية الكبرى لدعوة القرآن العظيمة للاحتفال بالعامل الاقتصادى فى النشاط الإنسانى ، والحوافز المادية له .

تلك هى أن الإسلام مع شدة اهتمامه بالجوانب غير الروحية فى الإنسان ، ومع تأكيد صلته بالأرض ، خروجه منها ، وعودته إليها ، وخلقه

من طين، من حمأ مسنون ، ولفت نظر الإنسان إلى ما يجمعه مع الحيوان الأعجم ، فى مثل قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » إلا أنه لا يزال كل شيء وكل حكم، وكل نشاط ، يقوم به الإنسان ، أو يتصل به ، أو يؤثر فى حياته ، خاضعاً للقانون الأسمى ، الذى جاء به القرآن ، وهو خضوعه لعقيدته التى تأمر بأن يكون المثل الأعلى ، هو غاية كل عمل وقول ، وفكر وخاطر . والمثل الأعلى هو الدار الآخرة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

فللإنسان أن يأكل ويشرب ، ويتمتع بكل جميل ولطيف فى الدنيا ، وأن يلتمس زينتها ، وله أن يسير فى الأرض ، ويمشى فى مناكبها ، على ألا يغيب عنه لحظة أن لله عاقبة الأمور ، وأن إليه النشور .

وقد سبقت الإشارة إلى ما سميته بالمنهج الجدلى للقرآن « مع تسكين الدال » . وأعنى بهذا المنهج ، هو جدله المادى بالروحى ، والدنيوى بالأخروى المجرد بالمجسد ، وهذه ميزة الإسلام الكبرى ، على ما عداه من العقائد والمبادئ والمذاهب . فاتصال الروح بالمادة ، والأدبيات المجردة ، بحقائق الحياة وحاجات الإنسان ، وتطلعاته إلى المجهول ، بانشغاله بالحال الزائل من عرض الدنيا ، مما ينشئ بناء « متكاملا » ، لا يتقسم فيه الإنسان ، ويصبح ممالك ودولا متناحرة ، تتجاذبه الأهواء والميول ، فينتهى به الأمر إلى أن تتحطم وينتهى . ولقد رأينا فى سورة الجمعة ، فى الآية التاسعة منها ، على قلة مفرداتها وألفاظها شاهداً حيًّا ناطقاً على ما نقول ، فإن الله تعالى قال فيها « فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض » فجاء الانتشار فى

الأرض ، عقب الصلاة مباشرة ، ولم يعبر عن العودة إلى العمل واستئنافه بلفظ يفى بهذا الغرض ولا يزيد عليه ، بل عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بالانتشار ، وجعل الانتشار فى الأرض ، وعقب على الانتشار فى الأرض بابتغاء فضل الله ، وفضل الله هو لفظ يتسع للمادى والمعنوى معاً مما يشتاق إليه الإنسان ويطمع فيه ، ثم يعقب على ذلك بذكر الله .

فإذا اجتمعت لنا هذه السمات المميزة للإسلام ، ما جاز لأحد أن يقول إن الإسلام ، اكتفى ببنيان أخلاقيات المعاملات الإنسانية من بيع وشراء ، وقرض ورهن ، ووكالة وعارية ذلك لأن الإسلام فى كتابه المبين وضع قواعد بعضها عام وبعضها تفصيلى فى المعاملات وقد يغيب عن الكثيرين ، أن أطول آية فى القرآن ، هى الآية الثانية والثمانون بعد المائتين فى سورة البقرة ، وهى الآية التى تدعو المسلمين إلى أن يثبتوا ديون بعضهم على بعض بالكتابة ، وتبين واجبات كاتب سند الدين ، وما يجب أن يتحلى به من أمانة وحيدة ، ومن الذى يمل على الكاتب ، فى حالة قصر المدين أو سفهه ولا شك فى أنه قد غاب عن الكثيرين أيضاً ، أن هذه الآية ، التى أوردت كل هذه التفاصيل قد أوردت حكماً يعد من أحدث ما انتهت إليه قوانين الإثبات المدنية والتجارية ، فالمعروف أن التعامل المدنى أى التعامل بين غير التجار ، يتم فى هوادة وأناة ، فى حين أن التعامل بين التجار ، يتم فى صفقات سريعة ، ومن هنا كان الدين التجارى قابلاً للإثبات بغير السند الكتابى ، وهو ما أجازته الآية التى نحن بصددها فقد استثنت من حكم الإثبات بالكتابة ديون التجارة : لقوله تعالى : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها » .

والغاية من الاستشهاد بهذه الآية ، هو إثبات أن القرآن لم يكتف بإيراد أخلاقيات التعامل ، دون أحكام هذه المعاملات فى ذاتها ، فالكتاب السماوى الذى يعنى بإيراد هذا النص المفصل فى صدد إثبات الديون ، لا يمكن أن يتجنى عليه بالقول بأنه أورد أخلاقيات الحياة التجارية ، أو التعامل اليومى بين غير التجار ، ولسنا حريصين على فض هذه الشبهة ، لأنها تنتقص من مقام الإسلام ، بل لأنها تخالف الواقع ، وتتحداه ، والغاية من وراء دحضها ، هو أن يعرف المسلمون قبل غيرهم أن دينهم أورد نظاماً كاملا مفصلا ، يتناول الأصول والفروع ، فى شأن المال وتداوله ، وفى شأن العلاقات المالية التى تتشكل فى صورة عقود للبيع والرهن ، والقرض والرهن ، وما أغفله القرآن ، بوصفه دستوراً تولت بيانه السنة المفسرة للقرآن والمبينة لأحكامه ، تطبيقاً لقول الله تعالى ، فى خطابه لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وأنزلنا إليك الذكر ، لتبين للناس ما نزل إليهم » .

ولقد أوردت أحكام المواريث مفصلة وبنظام كامل لتداول الثروة بين أجيال الأسرة الواحدة ، وهو نظام عظيم التأثير فى الحياة المالية والاقتصادية .

وحكم تحريم الربا الوارد فى القرآن ، على إيجازه ، وهو الحكم الذى تولت السنة بيان نطاقه ، هو حكم كاف لإقامة نظام اقتصادى ، قائم بذاته ، ومختلف أشد الاختلاف عن غيره من الأنظمة . يختلف عنها فى أخلاقياته ، اختلافه عنها فى أحكامه الموضوعية .

ولقد آن الأوان ، لأن يعرض المسلمون على غير المسلمين النظام الاقتصادى

الذى جاء به المسلم ، عرضا يتناول الكليات والتفاصيل ، والمبادئ وطرق التنفيذ ، وأن يواجهوا جميع المشكلات التى يمكن أن تنجم عن تطبيق هذا النظام فى الظروف المالية والاقتصادية التى تغيرت فى القرون الخمسة الأخيرة ، والبديل الذى يقدمه الإسلام عن الأنظمة القائمة ، وهو جهد لا يمكن أن ينهض به فرد ، بل يتعين أن تقوم على تنفيذه ، هيئة ، وأن تسوق للناس الأدلة من واقع التاريخ الاقتصادى لدول المسلمين المزدهرة فى الشرق والغرب : فى دمشق وبغداد والقاهرة من جهة ، والأندلس وبلاد المغرب وجنوب أوربا من جهة أخرى وأن يكشفوا للناس ، كيف قامت مشروعات المسلمين فى تلك الفترة الزاهرة ، وكيف ولت ، وكيف اتسع نطاق المعاملات التجارية الإسلامية مع دول غير المسلمين حتى وصلت أساطيلهم إلى الصين ، وأوربا ، وحتى طافت قوافلهم حول أفريقيا شرقاً وغرباً ، فاستطاع التجار ، وهم يبيعون ويشترون ، أن ينشئوا على سواحل أفريقيا ، وجنوب شرقى آسيا ، المستعمرات ، التى كانت قواعد للدين الإسلامى ، تزحف منه ، وتتسع ، فيدخل الوثنيون فى فى دين الله أفواجاً .

إذ لا يكفى مطلقاً أن نتحدث عن مزايا النظام الإسلامى دون أن نقدم للناس ، فى عالم تصطرع فيه العقائد والمذاهب ، بعنف دام ، وضراوة شرسة ، شذرات قصيرة وصغيرة ، أو أن نورد المبادئ والكليات ، وندع لغير المسلمين أن يتولوا تطبيقها ، وأن يجدوا الحلول التى يقتضيها تطبيق هذا النظام الذى انقطع تأثيره فى الحياة المادية والعملية اليومية لملايين الناس منذ قرون .

إن الناس جميعاً فى حاجة إلى أن يقرأوا نصوص الشريعة فى مختلف وجوه الحياة ، كما يقرأون الآن القوانين الحديثة المدنية والجنائية والإجرائية ، لأن ذلك أقرب إلى التفاؤل والفهم ولا سيما لمن لم تواته ظروفه ، لأن يقرأ المطولات ، أو لا تعينه ثقافته على فهمها ، والإحاطة بها ، إن حاول قراءتها . وقد حالت دون تحقيق هذه الغاية صعوبات أهمها عدم توفر النية ، ومنها تعصب كل صاحب مذهب لمذهبه ، وخشية بعض الحكومات ، أن يعرف الناس عن القرآن والسنة ، ويقنعوا بهذه النصوص ، وقد تكتسب مع الزمن ، إن اتجه إليها القاضى والمحامى والشارح والمفسر ، قداسة فتصبح فى مقام الأصول التى أنزلها الله سبحانه وتعالى ، على نبيه المرسل صلى الله عليه وسلم .

وهى مخاوف مردها جميعاً أن حيوية الأمة الإسلامية استنفدتها أحداث الزمان ، فضعفت جميعاً عند مواجهة المخاطر التى تستلزمها تكاليف الحياة ، والصراع بين الأمم ، وفى العهد القريب منا أقدمت حكومة الخلافة العثمانية على إصدار ما أسمته المجلة ، وطبعت هذه المجلة فى سنة ١٢٩٧ هجرية أى منذ قرن كامل ، وقد لخصت محتوى هذه المجلة بأنها تحتوى على القوانين الشرعية والأحكام العدلية المطابقة للكتب الفقهية حررتها لجنة مؤلفة من العلماء المحققين والفقهاء المدققين بعد أن وقعت لدى الباب العالى موقع الاستحسان ، تعلقت الإرادة السنية بأن تكون دستوراً للعمل بها » وقد وضعت هذه المجلة أو ما جاء فيها من أحكام ، على أساس من أظهر الأقوال فى مذهب أبى حنيفة ، وقد جاء فى مقدمة المجلة : « لم يزل الأمل معلقاً بتأليف كتاب فى المعاملات الفقهية

يكون مضبوطاً سهل المأخذ ، عارياً من الاختلافات ، حاوياً للأقوال المختارة ، سهل المطالعة على كل أحد ، لأنه إذا وجد كتاب على هذا الشكل حصل منه فائدة عظيمة عامة لكل من نواب الشرع ومن أعضاء المحاكم النظامية والمأمورين بالإدارة ، فيحصل لهم بمطالعته انتساب إلى الشرع ولدى الإيجاب تصير لهم ملكة بحسب التوسع . . . » .

ولقد بقيت المجلة دستور المحاكم العثمانية زمناً طويلاً ، بل بقيت أساس القضاء فى جميع الأقطار الداخلة فى إمبراطورية بنى عثمان كالعراق والشام وتحققت من وراء هذا المجهود المحدود فائدة غير قليلة .

وقد حاول الخديوى إسماعيل أن يفعل شيئاً من هذا القبيل فجمع علماء الشريعة ، من أساتذة الأزهر ، وكبار القضاة ، ولكنهم لم يتفقوا على منهج العمل ، إذ رفضوا أن يصدروا مجموعة قانونية ، فأخذ بأيسر الآراء فى جميع ، ولكن لم يحل هذا دون إقدام عالم كبير من علماء مصر ، هو المرحوم محمد قدرى باشا ، الذى وضع مجموعتين سمى الأولى منهما « مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان » فى المعاملات الشرعيةعلى مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ملائماً لعرف الديار المصرية وسائر الأمم الإسلامية وسمى الثانية « قانون العدل والإنصاف فى حل مشكلات الأوقاف » وقصرها على أحكام الوقف وحده ، وطبعت المجموعتان تقريباً فى نفس التاريخ الذى طبعت فيه المجلة أى فى سنة ١٨٩٠ ميلادية ، ١٣٠٨ هجرية . ولم تتكرر المحاولة .

تطور الإنسان فى القرآن

لما عاد تشارلس روبرت داروين من رحلته البحرية على سطح الباخرة « بيجل » فرغ لدراسة ، ما جمعه فى هذه الرحلة ، من نماذج عديدة من أحياء مائية ، وطيور وزواحف وقواقع وأصداف ، ثم خرج على الناس ، بكتابه الذائع الصيت فى سنة ١٨٥٩ « أصل الأنواع » فكان لظهور كتابه هذا ، فى دوائر العلم والدين معاً ، وقع كوقع القنبلة المدوية . ولكن بعد أن هدأت العواصف التى أثارها هذا الكتاب ، استطاع عدد من مؤرخى العلوم فى أوربا وأمريكا الذين اتصفوا بالاعتدال ، والشجاعة ، وحب الحقيقة ، أن يثبتوا أن علماء المسلمين اهتدوا إلى هذه النظرية ، نظرية التطور ، قبل داروين بكثير ، وأنهم وسعوا نظريتهم ، فشملت الجمادات والحيوانات معاً ، ومن هؤلاء العلماء « دريبر » الأمريكى الذى كتب كثيراً عن فضل المسلمين على العلم الحديث .

اهتدى المسلمون إلى نظرية فى التطور ، قائمة على أسس علمية صحيحة بعضها ما أقام عليه داروين نظريته ، ولكنهم لم يتورطوا فى الأخطاء التى تورط فيها داروين ، والتى صححتها البحوث والكشوف الحديثة أى علم الأحياء وعلم الوراثة

ولنعلم بادئ ذى بدء : أن الإسلام هو دين التطور : شرح القرآن الكريم ، صوره فى الإنسان ، ومخلوقات الله الأخرى ، وفى الأكوان ،

من نجوم وكواكب وبحار وأنهار ، ورياح وسحب ، وليل ونهار . ثم بين للناس أسس هذا التطور ثم أسبابه ، وأتبع ذلك ببيان نتائجه وغاياته ، وتوج هذا جميعاً ، بدعوة الإنسان إلى التغيير والتطور ، عملاً بسنة التقدم ، الدائب المستمر ، التى أودعها الله فى مخلوقاته من الأحياء .

لقد أورد القرآن الكريم ، فى سورة البينات ، طائفتين من الآيات : الأولى ، تكشف للناس أجمعين ، سنة الله التى لن تجد لها تبديلاً ، فى الحركة الدائمة ، فى الأكوان ، والتطور المستمر ، الذى لا يفتر ولا يهن ، فى الجانب المادى من تلك الأكوان ، ونعنى بذلك الماء ، والأرض والسماء ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والحرارة والبخار ، والجبال والبحار.

والثانية : نفس الحركة المتصلة ، المتجددة ، المثابرة ، فى المجتمعات الإنسانية ، والصراع بين الحق والباطل ، وبين العدل والظلم ، وبين الإيمان والشرك ، وبين الأقوياء المتكبرين ، والضعفاء الصالحين .

وإلى جانب هاتين الطائفتين من الآيات ، آيات تدعو إلى تغيير الواقع القاتم الكريه ، ونبذ التقليد ، وتحريم مسايرة الأقوياء ، والنظر فى الجديد ، وإن يكن غير مألوف ، وشق الطرق إلى عالم حديث ، وإن يكن غير معروف .

فمن الطائفة الأولى ، طائفة الحديث عن التغير الدائب ، فى الجانب المادى من الكون قول الله تعالى : فى سورة الرحمن « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن » وفى سورة يس : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

وفى سورة الزمر : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يجعله حطاماً » وفى سورة الروم : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله » .

وفى سورة يونس : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أونهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » .

وفى سورة الرعد : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً » .

وفى سورة الكهف : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذ روه الرياح » .

وفى الأنبياء : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » .

فإذا انتقلنا إلى جانب الحركة فى المجتمعات الإنسانية ، وتطورها الدائب ، والصراع فيها بين الظلم والعدل ، والحق والباطل ، ألفينا فيضاً من آيات كتاب الله البينات .

وفى مقدمة هذه الآيات قوله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس »

وفى سورة الروم : « غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » ثم فى سورة الروم أيضاً : « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا

كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وفى سورة القصص يروى القرآن حكاية قارون فيقول : « فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذوحظ عظيم » ثم يقول تعالى : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

وفى سورة غافر ، حوار طويل بين رجل من ذوى قربى فرعون ، أى من آله ، مؤمن بالله يكتم إيمانه ، وبين فرعون ، يرينا كيف يدل ذوو السلطان بسلطانهم ، ويصمون عن قول الحق آذانهم ، ثم يرينا عاقبة صدهم عن دعوة السماء ، قال الله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب. يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ، ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » .

وتنتهى هذه القصة ، ككل قصص القرآن ، بسوء عاقبة الكافرين . « وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا فى تباب. وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد » وظفر المؤمن بما يعد به الله عباده الصادقين « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب »

وهذه القصة ، تتكرر فى القرآن ،وإن اختلفت فيها الأسماء ، والأمكنة ، والأزمنة ، إلا أن العاقبة فيها لا تختلف ولا تتبدل ، ففى سورة الكهف ، مثل هذا الحوار ، بمعانيه ، وبعض ألفاظه ، ينتهى بنفس النهاية ، ويؤدى إلى نفس الغاية .

ومن هذه الآيات ، ترى الحركة التى يموج بها المجتمع الإنسانى ، بفضل جهاد المؤمنين ، وإصرارهم على دعوة الحق ، وحرصهم على إيمانهم ، وإن قل النصير ، وضعف المعين . وهم دائماً الغالبون ، ولو بعد حين . فحركة التطور ، كما يصورها القرآن ، ليست حركة عمياء ، تسير اعتباطاً ، بل إنها حركة مستنيرة مبصرة ، تهديها سنة الله فى خلقه ، التى لن تجد لها تبديلاً ، وهى سنة تقضى بانتصار الحق والخير والعدل ، بعد مشقة وعناء ، وامتحان وابتلاء .

أما الطائفة الثالثة ، من آيات الله المبينة ، فهى آيات التنديد بالجمود ، وكراهية التطور ، والاستمساك بالقديم البالى وإن كان ضارا ، لمجرد إلفه ، ولأنه ميراث الآباء والأجداد . وهذه نزعة كابد منها أصحاب الدعوات جميعاً ، وفى مقدمتهم أنبياء الله ورسله . من تلك الآيات ما جاء فى سورة الأعراف : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا » وما جاء فى سورة يونس : « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » .

ثم جاء فى سورة الأنبياء حكاية لما جرى بين إبراهيم وأبيه وقومه : « إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » .

كذلك الآية الرابعة والسبعون فى سورة الشعراء استمرارًا للجدل بين

إبراهيم ، وقومه ، عن الأصنام التى ورثوا عبادتها عن الأقدمين : « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين » .

ونخلص من هذه الآيات الناطقة البليغة أولاً : إلى أن الحقائق الكبرى ، التى كشف عنها كتاب الله العزيز هى أولا أن هذا الكون الذى نعرفه ، ونتصل به ، ونحاول أن نستزيد من العلم به ، والانتفاع بما أودعه الله فيه من قوى ، سخرها لنا إن اهتدينا بهديه ، هو كون متطور ، دائب الحركة ، لا يعرف السكون ، ولا يقبله ، لأن فى السكون نهايته .

ثانياً : أن الناس الذين خلقهم الله تعالى ، وجعلهم خلفاء له ، وبالتالى سادة هذا الكون ، بالتقوى والعمل الصالح ، هم بدورهم فى حركة مستمرة ، وسعى موصول ، وأن فى هذه الحركة التى فطرهم الله تعالى عليها بركة ، هذه الحركة هى ما يسميه القرآن ، فى الحديث عن الدار الآخرة السعى « وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

ثالثاً : أن الله لا يحب لعباده الجمود ، ولا التشبث بالماضى ولو كان موروثاً عن الآباء ، فيجب أن يمحص الإنسان القديم الذى ورثه ، فإن اتفق مع العقل والحق أخذ به ، ولذلك قال النبى إبراهيم لقومه : قال : « أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون. فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » .

وبهذه الحقائق الثلاث الكبرى ، رسم القرآن الكريم ، الإطار العام لقاعدة « التطور » ولكن القرآن الكريم لم يقف عند حد بيان هذه الحقائق ، التى دعا عقول البشر إلى التأمل فيها ، والعمل بهديها ، بل انتقل

إلى الإنسان الفرد ، وأنزل فى حقه ، آيات ، تبين أنه مخلوق متطور ، وأنه قابل للتطور ، ومتطور عليه ، وأن فى تطوره ، الخير له ، وأداء الرسالة التى اختير لها ، والتى سماها القرآن الكريم « الأمانة » ، فارتفع بها إلى أعلى مقام .

ولقد ذكر القرآن الكريم ، الإنسان ، ونبهه إلى طبيعة التطور فيه ، فقال فى سورة الانشقاق : « والقمر إذا اتسق . لتركبن طبقاً عن طبق » . وفى سورة نوح قال عز وعلا : « ما لكم لا ترجون الله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً » . وفى السورة الكريمة التى تحمل اسم الإنسان ، أعاد كتاب الله المنزل تذكير الإنسان بأصله الأصيل : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه » وفى آية واحدة فى سورة الحج ، ذكر القرآن العزيز ، أدوار الإنسان وأطواره ، من قبل أن يولد إلى أن يتوفى ، فى تتابع وتلاحق ، ينبه الذهن الغافل ، ويذكر العقل الذى غلبه النسيان ، فقال : «يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبتغوا أشدكم ومنكم ممن يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » .

ولكن القرآن الكريم ، قرر حقيقتين كبيرتين ، هما فى واقع الأمر ، عنصران أساسيان ، فى مبدأ التطور ، الذى يدعو إليه الإسلام ، لأنه قانون من قوانين هذا العالم ، أى سنة من سنن الله ، ثم لأنه ضمان من ضمانات تقدم الإنسان ، ونجاته من آفات الجمود ، والركون إلى الماضى ،

وكراهية السعى ، والنشاط ، المثمرين المباركين .

أما الحقيقة الأولى ، فهى انبثاق الإنسان ، من مادة قليلة الشأن ، هى الطين ، الذى يصبح صلصالا أو فخاراً ، بعد أن يدخل النار .

فى حين انَّ الحقيقة الثانية ، هى أن أصل الأحياء جميعاً ، سواء كانوا من بنى آدم أو من الحيوانات الراقية ، أو من دواب الأرض ، وهوامها ، هو الماء .

وهاتان الحقيقتان تؤكدان أن التطور ، هو قانون حياة هذا المخلوق ، الذى اختاره الله ، وصنعه ، وصوره ، ونفخ فيه من روحه . تطور من المادة الرخيصة ، إلى هذا البناء العجيب ، المعجز ، الذى يضم المادة والروح ، فى وحدة ، لا انفصام لها ، فحياته لا تستقيم على هذه الأرض ، بغير ارتباطهما الدائم ، وتوازنهما الدقيق . فالإنسان لا يكون بدناً مجرداً من روحه ، واستشراقه المستمر إلى ربه ، وشوقه المتجدد إلى المثل الأعلى ، ممثلاً فى الأنبياء والقديسين والشهداء والصالحين . وابتلاءه وامتحانه ، متجلى فى كيف يحمل جسده ، إلى تطلعات روحه ، وكيف لا يهبط بروحه إلى نزعات بدنه .

ومادية البناء الإنسانى ، تؤكد صلته بهذا الكون الذى يعيش فيه ، والذى أعلن خالقه عز وعلا ، أنه مسخر له ، بفضل ما يلقنه إياه ، بفضل الكتب المنزلة وعلى أيدى الأنبياء المرسلين ، الذين يثيرون شوقه إلى المعرفة حتى يكون لسان حاله الآية : « وقل رب زدنى علماً » .

أما الآية الكريمة : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » فهى تكشف عن حقيقة علمية ثابتة ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فحيث

ينعدم الماء ، فلا حياة لنبات ، مهما كان النبات حقير الدرجة فى سلم النباتات ، كأن يكون من الطحالب، التى لا تنقسم كالنباتات الراقية ، إلى جذور وسيقان ، وأوراق وزهور والتى لا تتناسل ، وتتكاثر ، على وجه يشبه تكاثر الحيوان ، كذلك لا حياة للحيوان ولو كان – كما سبق القول – فى حيوان الخلية الواحدة ، أو إلى ما عرفناه اليوم من الفيروسات التى لا ترى ولا بالمجهر الميكروسكوب . فالماء هو صلب الحياة ومصدرها ، فإن جفت أو نفذت مات الكائن الحى . والكواكب التى تنعدم فيها الحياة ، ينعدم فيها الماء .

ولقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة العلمية ، ونبه الإنسان إليها ، ليؤكد للإنسان صلته بعالم الأحياء جميعاً ، فهى منه ، وهو منها ، وعلم الإنسان بهذه الحقيقة ، وانتفاعه بها ، تجعله أكثر قدرة على أداء الرسالة التى اختاره لها ، والتى قلنا إن القرآن الكريم ، اختار لها اسماً بالغاً أقصى درجات السمو ، إذ أطلق عليها لفظ الأمانة ، فهى ليست مجرد وظيفة ، وإنما هى عهد يطالب بأدائه ، أداء مادياً إبراءه ، بل يجب القضاء به ، بعنصرى الإنسان : مادياً وروحياً . أى كما يؤدى الدين ، وكما يقوم الإنسان بالعبادات المفروضة عليه ، ومن هنا قرر القرآن فى سورة الأنعام : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ولا نجد نصاً يكشف عن وحدة الأحياء مثل هذا النص المتين .

ولا يستطيع الإنسان أن يفهم معنى الأمانة ، ولا أن يدرك حدود خلافته عن الله سبحانه وتعالى ، إلا إذا وعى ، كأعظم ما يكون الوعى ، اتصاله الوثيق ، بهذا الكون الفسيح ، بمادته ، التى أخذ منها ، وبارتباطه

بالأحياء لأنهم خلقوا مثله ، أو خلق مثلهم ، من أصل واحد ، هو هذا العنصر الذى قد لا يحفل به كثيراً ذلك هو الماء .

ومن أجل هذا تكررت الآيات التى تذكر أصل الإنسان ، وأنه من صلصال : أو من طين أو من طين لازب .

ففى سورة الحجر : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » وفى سورة المؤمنون : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

« وبدأ خلق الإنسان من طين » وفى سورة الرحمن : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » .

وإذا كان عالم بريطانى قد اهتدى إلى تطور الأحياء ، وجعل من النتائج التى انتهى إليها قانوناً أو نظرية ، عرفت فى الغرب باسم « نظرية النشوء والارتقاء » ، فإن ما اهتدى إليه ، كان دون ما نصت عليه ، آيات القرآن الكريم ، من بواعث هذا التطور ، ودواعيه ، وكان دون ما كشفته هذه الآيات من نطاق هذا التطور ومجاله . فالتطور فى القرآن ، يشمل جميع عناصر الكون ، لأن الإسلام هو دين الوحدة والشمول ، وبواعث هذا التطور ، ليست مادية محضة ، وإنما هى اجتماعية كذلك ، وهى روحية فوق كل شىء لأن الإنسان – كما سبق القول – وحدة عنصراها الماده والروح ، وهما مندمجان اندماجاً تاماً ، بحيث لا يكون الإنسان إنساناً ، بواحداً منهما ولو لحظة ، فالإنسان وهو فى أشد حالات الخضوع لشهوات البدن لا يبعد قط عن سيادة الروح ، إذ لا يلبث أن يسأم من لذائذ البدن ، ويحس بوخز الضمير ، ويحاول التوبة ، ولو غلبته غرائزه ، والجانب الحيوانى فيه .

وقد قرر داروين أن بواعث التطور فى الأحياء ، هو الصراع الذى سماه تنازع البقاء ، الذى يؤدى إلى بقاء الأصلح ، وجعل تطابق الأحياء مع البيئة التى يعيشون فيها ، أو ما أطلق عليه الإنخاب الطبيعى ، باعث آخر من بواعث التطور .

وهذا كله أشار إليه القرآن فى سورة البقرة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

فصراع الأحياء ، أو صراع الآدميين ، هو سبب صلاح الدنيا ، ولكن هذا الصراع بين الناس ، لا يجرى فى القرآن ، صراعاً بين حيوانات ، أى لا يقتصر على صراع باعثه الغريزة الحيوانية المجردة من العقل ، والبعيدة عن أحكام الحياة الإنسانية السامية ومقتضياتها ، بل هو صراع العقول والنفوس . وهو صراع المبادئ والعقائد ، وهو صراع الحق والظلم ، وصراع العلم والجهل ، وصراع النور والظلام فالصراع الحيوانى ، يقف عند حد ، قد تتطور معه الحياة ، ولكن الصراع الإنسانى ، لا تتطور معه الحياة فقط ، بمعنى التغير فقط ، والارتقاء فى الوظيفة وفى الآلة التى تستعمل فى أدائها ، وفى قدرات الحيوان العضلية ، بل هو ارتقاء نفسى وعقلى وروحى ، يقترب به الإنسان من خالقه ، ما وسعت ذلك طاقته الإنسانية وإذا كان الصراع الداروينى ، ينتهى ببقاء الأصلح أى الأقدر على البقاء وقد يكون فى أحيان كغيره هو الأقوى ، فى حين أن نتيجة الصراع القرآنى هو بقاء الأنفع ، « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

وغير الصالحين محكوم عليهم فى القرآن بالعفاء ، يحل محلهم سواهم ،

« وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » محمد ، وعبارة « وإن تتولوا » تتسع لكل صور التخلف عن تحمل تبعات الحياة المادية والروحية ، فهى تعنى عدم فهم أحكام القرآن ، ودعوته إلى فهم قوانين الكون وكشفها ، وتسخير الشمس والقمر ، والأرض والسماء ، والنور والماء ، والنبات والحيوان ، والأشياء والمواد ، فى خدمة الإنسان ، أى فيما ينفع الناس ، وهى عدم طاعة قوانين القرآن ، من التعاون ، والرفق ، والعدل والرحمة ، والصدق والثبات ، وهى عدم الإنفاق من أجل المصالح المشتركة ، وإعداد القوة ورباط الخيل لمواجهة الأعداء ، كل أولئك يدخلون فى عبارة « وإن تتولوا » فإذا فعل الناس ذلك ، فقد انحدروا إلى الضعف ماديا وروحيا ، وعجزوا عن التكيف مع الحياة ، وفهم دواعيها ، وعندها يقفون ، يحل محلهم قوم آخرون ، لا يكونون فى مثل ضعف وسوء تدبير وسوء تكليف الذين سبقوهم .

وإذا كان القرآن قد هدد الذين لا يطيعون أحكامه ، بأنهم سيهبطون إلى مستوى الحيوان « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » فى سورة « البقرة » كما كرر هذا الوعيد فى سورة المائدة « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » فلكى يؤكد أن الإنسان مرتبته تعلو الحيوان وأن الفارق بين الإنسان والحيوان ليس فارقاً فى الدرجة ، ولكنه فارق فى الطبيعة ، وأن الإسلام على الرغم من نصه على وحدة أصل الحياة ، وعلى حسن علاقة المسلم بالكون كله بمادياته والكبير من مخلوقاته ، والصغير الدنىء منها ، فإن الإنسان يقف على رأس الأحياء ، متميزاً عنها جميعاً ، لا برقى أعضائه ، وقدراتها المتفوقة ، والمتنوعة ، بل

بجانبه الروحي الذى يجعله إماماً للأحياء جميعاً ، ليقودهم إلى عالم ينعدم فيه حكم الغرائز ، وتسوده أحكام الإنسان الأرقى ، المتطلع إلى مزيد من الخير ، والحب . والمعرفة ، والتسامح . والصبر يتطور دائماً ، فى هذا المجال السامى ، ويعلو كل يوم عن المرتبة التى حققها بالأمس .

* * *

ولقد ذهب القرآن الكريم آخر الأمر ، فى تكريم الإنسان ، وبيان رسالته ، والإعلاء من شأن أمانته ، أقصى الغاية ، حينما قرر فى الآية المبينة « إن الله لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، فى هذه الآية على إيجازها ، تقرير أن التغيير أى التطور واجب وتبعة من واجبات الإنسان وتبعاته ، وأن الله تعالى يدعه للإنسان ، لأنه قادر عليه بإذن خالقه ، ولأنه مطلوب منه بأمر مبدعه ، وأنه حينما يتمه ، فقد أدى أمانته وأحسن أداءها ، وأصبح أقدر على مواصلة ، الوفاء بما تقتضيه . فاستحق اللقب العظيم الذى أضفاه الله العظيم ، خليفة الله فى أرضه .

لآيات القرآن الكريم ، فى التطور : وبيان حقائقه ، والإشارة إلى صوره ، حكمتان : حكمة عقلية ، وحكمة روحية أو خلقية .

أما الحكمة العقلية ، فقوامها أن يدرك الإنسان المسلم ، أنه هو يتطور ، وأنه وصل إلى ما وصل إليه فى بدنه ونفسه وعقله ، ودينه ودنياه ، بفضل التطور ، وأن يدرك أن كل ما حوله يتطور : الحيوان والنبات ، والجماد : والأفلاك والشموس والأقمار ، والجبال والبحار والأنهار ، والسحاب والبخار والأمطار . كلها تتغير ، وتتحرك : وتأخذ حسب سنة الله فى مخلوقاته : صوراً وأشكالاً ، فى اليوم الواحد ، وفى السنة بشهورها ،

وفى الآماد والحقب والأجيال .

والتفات ذهن الإنسان المسلم إلى هذه الحقيقة الكبيرة ، ينفعه فى أكثر من وجه : فالعلم فى ذاته ، غاية وهدف للإنسان المسلم : رجلا كان أو امرأة ، لأن العلم قوة ، وزاد ، لا يدخل عقل الإنسان ، حتى ينتقل إلى نفسه ، وأسلوب حياته ، ومنهج معيشته وطريقة تعامله مع إخوانه فى المجتمع . صحيح أن الناس تتفاوت من حيث الإفادة من العلم ، ومن هنا أمر الله المسلمين فى شخص نبيهم « وقل رب زدنى علماً » **ومن هنا أيضاً قال القرآن الكريم** « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » **والوجه الثانى أن يحاول الإنسان المسلم ، الإفادة من حقيقة هذا التطور ، ومساره ، وآثاره ، وأن يتقى المضار التى تلحقه ، إن هو غفل عنه ، أو وقف فى طريقه ، دع عنك تحديه وإنكاره .**

وإذا كان الله تعالى . . قد قال فى سورة واحدة : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » . « وسخر لكم الليل والنهار » ثم قال عز وعلا فى سورة النحل : وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر » « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا » كما قال تبارك فى سورة الحج : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض » وفى سورة لقمان : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » . إذا كان الله تعالى قد من على الإنسان بما سخره له ، من الضخم العظيم ، من مخلوقاته ، وجعله سيداً لهذه الكواكب والأقمار ، والنجوم ، ودواب الأرض وهوامها . وما يلج فيها وما يخرج منها ، وما يعرج فى السماء ، وما ينزل منها ، فالسبيل الوحيد ، لتحقيق هذا

التسخير ، هو أولا التأمل فى هذا الكون ، ومعرفة السنن التى أودعها الله فيه ، والاهتداء إلى مفاتيح هذا الكون ومقاليده ، لإدارتها ، فإذا هو طائع ، يمنح الإنسان العالم ، المفكر ، المتدبر ، خيراته ، كأنه حيوان أليف ، يتبع سيده ، ويلبى إشاراته ، ولا يعصى ما يؤمر به .

فإذا أحسن التأمل ، وأطال النظر فى خفايا هذه الكائنات وخباياها ، وأسلوب تكونها وتحللها ، وطريقة غدوها ورواحها واتصال بعضها ببعض ، وتأثير بعضها فى بعض ، زاد سلطانه عليها ، ونفعه منها ، وزاد قربى لربه الذى وعد عباده بالزيادة فى كل شىء فى قوله تبارك وتعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وقد قلنا من قبل ، إن خير وسيلة لشكر الله ، هو التفكر فى أنعمه ، أى فى أكوانه ، وبدائع مخلوقاته ، والسعى الحثيث للاهتداء إلى نواميسه والوقوف على قوانينه .

والإنسان الذى يسعى هذا السعى ، هو لا يدرى ألف باء البحث والتنقيب ، أى سر أسرار الكون ، وهو تطوره ، أشبه شىء بمن يدخل إلى الصحراء ، وهو لا يدرى تقلب الأجواء فيها ، وما تخدع به السائر فى دروبها ، والسارى فى وهادها ونجادها ، من سراب و « أخيلة » ، فتطور الإنسان ، وقدرته على التحول والتكيف ، وانتقاله منذ خلقه الله فى هذه الأرض ، من طور إلى طور ، وانتقاله هو نفسه منذ دبت فيه الحياة ، فى ظلمات الرحم ، حتى يعود إلى ظلمات القبر ، هو الحقيقة البدهية ، التى يؤدى العلم بها ، إلى بدهيات أخرى تتسلسل وتتعاقب ، فى انتظام بديع ، واتساق رائع .

ولولا اهتداء الإنسان إلى قانون التطور لما اهتدى إلى القوانين الضابطة والحاكمة لهذا الكون ومخلوقاته من أحياء وجمادات : فالحرارة والبرودة ، والصلابة والسيولة ، والتمدد والانكماش ، ليست إلا مظاهر هذا التطور وصوره .

بل التأثر بقانون التطور ، والتأمل فيه ، هو الذى قاد خطى الإنسان إلى كشف أكبر القوانين العلمية حقاً وصدقاً ، هو قانون التوحيد . إذ لولا أن الإنسان قد عرف أن لهذه الأكوان جميعاً إلهاً واحداً ، وأن له قانوناً واحداً ، ثابتاً لا يتغير ، مهما تغير الزمان أو المكان ، فى القديم والحديث ، فى جميع القارات ، وكل المحيطات ، لبقى الإنسان عبداً وأسيراً للخرافة والشعوذة ، وللذين يتسلطون على عقول الناس ونفوسهم ، بما يثيرونه فى تلك العقول والنفوس ، من مخاوف باطلة ، وأوهام زائفة ، بفضل إتقانهم لترويج الخرافة ولاستغلال الشعوذة .

ولقد روى لنا القرآن ، نموذجاً ، لاهتداء الإنسان ، إلى القانون الأسمى ، وهو قانون التوحيد ، بالاهتداء إلى قانون التطور ، وذلك فى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فى سورة الأنعام :

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض : وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل ، رأى كوكباً ، قال هذا ربى ، فلما أفل ، قال لا أحب الأفلين : فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين : فلما رأى الشمس بازغةً قال ، هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا

من المشركين » .

ولقد بدأت هذه الآيات بقول الله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ! أى أن اهتداء إبراهيم عليه السلام ، بدأ بالنظر فى السموات والأرض ، فلم يصل إلى الإيمان بالله ، والاهتداء إلى خالق الأكوان الأكبر ، إلا بتأمل ظواهر الكون المتطورة والمتغيرة ، وإجراء المقارنة بين النجم اللامع ، والقمر الساطع ، والشمس البازغة ، ثم بتبينه أن هذه الأجرام جميعاً تختفى ، وذهنه لم يتفتح إلى استنباط الحقيقة المستفادة من ظهور هذه الأجرام واختفائها من تباين أحجامها ، واختلاف نصيب كل منها من الضوء ، إلا بعد أن تدرب على منهج استنباط الحقائق من تأمل كل ما حوله . ولقد روى لنا القرآن الكريم هذا المثل ، ليرينا أن تأمل ملكوت السموات والأرض ، هى سنة صالحة ، وأن عاقبتها هى الوصول إلى أكبر الحقائق ، التى حينما تمتلئ نفس الإنسان بها يتحرر من الخوف الذى هو الحائل الأكبر دون رقى الإنسان ، واستزادته من القوة والمنعة والسيادة والخوف من مظاهر الطبيعة المجهولة ، والخوف من الإنسان الآخر حاكماً كان أو كاهناً ، لينطلق من أسر الأكاذيب الشائعة التى ترتقى باطلا إلى مستوى الحقيقة ، وتأخذ مكانها ، ومن أسر المتسلطين الذين يكسبون من استبقاء الجهال ، فى الجهل ، والضعفاء فى الضعف ، والفقراء فى الفقر .

هذه هى الفوائد التى يجنيها الإنسان ، فى مجال العقل ، من الاهتداء إلى قانون التطور . أما خيرات الاهتداء إلى هذا القانون ، الروحية أو الخلقية ، فهى كشف أثر تطور الإنسان فى المجتمعات ، وطواعية

الأنظمة ، والأحوال البشرية ، للتطور والتغير . وواجب الإنسان على دفع كل نقص وعيب وقصور وظلم فى مجتمع الإنسان ، ليكون أفضل وأحسن وأعدل وأسلم . .

فلو لم تقم الأدلة على القانون الأسمى « وتلك الأيام نداولها بين الناس » و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » لاستكان الإنسان إلى الظلم ، والفساد ، والجهل ، ولما كانت لرسالة الرسل ، أثر ولا نفع .

وقد قلت وأقرت أن قانون التطور فى القرآن ، قانون مادى أو علمى ، وروحى أى خلقى ، فهو يشمل الكون بماديته ، ويشمل الإنسان الفرد ، والإنسان فى المجتمع ، فيبين قوانين المادة وقوانين الإنسان ، من حب وكره ، وتجمع وتفرق ، وتقدم وتأخر .

والقسمان ، قسم المادة وقسم الروح ، أو قسم العلم وقسم الأخلاق ، ليسا جزءين منفصلين ، بل هما عنصران في شيء واحد . فما يعرفه الإنسان ، ينعكس على علاقاته بأهله ، وبغيره ، وبخالقه ، وما يفيده الإنسان من كشف قوانين الإنسان الداعية إلى رقيه ، وقوانين تدهوره وانحطاطه ، يعينه على تحصيل المعرفة العقلية ، وحسن استيعابها ، وتبويبها وتصنيفها .

وإذا أردت أن أضع تحت نظرك صورة لهذا الكون المتطور ، السائر دائماً ، المتحرك دائماً الذى لفت القرآن الكريم إلى تحركه وتطوره ودورانه ، فيما نقلت إليك من بعض آياته البينات ، فهذه فقرة من كتاب عالم عربى مسلم ، الأستاذ أحمد زكى يقول لك :

« إنه طريق الحياة ، العريض ، الواسع ، الفخم ، يحمل الخلائق ألوفاً مؤلفة ، وهو كالنهر ، يبدأ عند منبعه بميلاد ، وينتهى عند مصبه

با نصباب فى ذلك المحيط الأعظم ، الذى لا تكاد تدرك له غوراً ، وتأتى الشمس إلى هذا المحيط ، تستخلص منه الحياة سحباً ، تعود بها إلى تلك المنابع ترويها وتغذيها ، لتعود سيرتها الأولى من ميلاد فى أعالى الأرض عند منبع ثم انصباب آخر عند محيط فى دورة لا تنتهى » .

أليس هذا الذى يقوله العالم فى كلام كثير ، يقوله كتاب الله العظيم فى كلمات : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج به زرعاً ، مختلفاً ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفراً » أو قوله تعالى : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله » وغير ذلك كثير .

وحيرة إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو ينظر إلى السماء ، هى حيرة العالم اليوم ، تماماً ، لأن الأنبياء هم أئمة العلماء والعلم ، جاء العلماء على أثرهم ، واهتدوا بهديهم ، يقول نفس العالم :

« يرفع الرجل المتعبد كفيه إلى السماء ، يدعو ربه ، فيقولون كفر ، فليس الرب يوجد فى مكان بعينه ، ولكنه يوجد فى كل مكان ، وهل رفع الرجل المتعبد إلى السماء ، إلى مكان معين ؟ وكيف والسماء تدور ، يرفعهما الرجل إلى مكان بعينه ؟ إنه يرفعهما إلى كل مكان ما تواتر الزمان . إن هذا الذى هو فوقه » ، كان منذ نصف يوم « تحته » والذى هو على يمينه « كان منذ نصف يوم على يساره » .

وقد سبق القول إن القرآن الكريم قرر ، فى معرض بيان تطور الإنسان ، أصل الإنسان فرده إلى المادة من جهة ، كما كشف عن الأصل المشترك بينه وبين جميع الأحياء من جهة أخرى ، ثم أفصح عن فضل

الإنسان على جميع الأحياء من جهة ثالثة .

أما أصل الإنسان المادى فتكشف عنه آيات منها : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » ومنها : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » ومنها : « إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » وعن صلة الإنسان بالأرض وارتباطه بها قال تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

وعن وحدة الحياة ، قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » كما قال : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » !

وليس ثمة مجال يتضح فيه تطور الأحياء مثل عالم الحيوان الأعجم ، الذى سخره الله للإنسان فيما سخر من مخلوقاته تبارك وتعالى ، ولذلك لا تجد كتاباً من كتب الإنسان ، سماوية أو بشرية ، احتفل بعالم الحيوان ، ودعى إلى التأمل فيه ، ونعنى بالكتب السماوية أو البشرية ، ما كانت كتب عقائد وتأصيل أصول الحياة الإنسانية الكبرى . فإن ضرب الأمثلة بالحيوان عديدة ، لبيان الأفكار القرآنية من ذلك : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها » ومنها : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً ، لا يستنقذوه منه » . ولعل من الأمور التى تخفى عنا ، أن أكبر سور القرآن ، وأول سورة فى الجزء الأول منه ، هى سورة تحمل اسم حيوان أعجم تلك هى « البقرة » ، والسورة السادسة ، وهى من السور الطوال تحمل اسم « الأنعام » . ولفظ الأنعام يتكرر فى القرآن كثيراً ، ثم هناك سورة تحمل

اسم « العنكبوت » ، وأخرى تحمل اسم « النحل وثالثة تحمل اسم « النمل » فلا عذر للإنسان المسلم إن هو أغمض عينيه عن هذا الكون ، وعن دراسة جميع عناصره الحية ، والجامدة ، وعن تبين صلاته بها ، ووجوه الشبه بينه وبينها ، وتفوقه عليها ، وتميزه بميزة الروح عنها جميعاً ، فالإنسان المخلوق من طين أو طين لازب أو حمأ مسنون أو صلصال كالفخار أو من تراب ، والذى خرج من الأرض ثم سيعود إليها ، ثم سيخرج منها ، والذى تربطه بالحيوان الأعجم وشائج فقد خلق مثله من ماء ، ثم هو بحكم القرآن أمة ، ودواب الأرض وطيور السماء أمم مثله ، ولكن يأتى بعد ذلك كله ، قول الله تعالى فى سورتى « الحجر » و « ص » « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » وهو خطاب موجه من الخالق الأعظم للملائكة ، مخلوقاته التى لا تعصى له أمراً ، فلا تعرف الذنب ، ولا تقارف الخطيئة .

هذه قمة التطور ، التى لا تقف عند حد التسامى المادى العضوى ، بل تخرج من نطاق المادة تماماً ، إلى نطاق تقف الحيوانية والمادية دونه بمراحل كثيرة ، وهذا هو الجانب الذى تعلو فيه نظرية التطور فى القرآن ، عن أية نظرية أخرى ، علمية أو فلسفية .

فالقرآن لا يغفل عن حقائق الإنسان الواقعية المادية الأرضية ، عن صلاته بالماء والهواء ، بالأسماك والطيور ، بالأرض ، بالتراب ، ويدعوه إلى التسليم بانبعاثه منها ، وخروجه من امتزاج واتحاد عناصرها ، ثم يدخل على ذلك كله : ذلك العنصر المجهول ، الذى لم يستطع العلم أن يطرق بابه ، ولا أن يجوس خلاله : عالم الروح ، التى هى - بإجماع علماء المادة - من أمر ربى .

ولكن نظرية القرآن – كما سبق أن قلنا – لا تقف عند حد الجانب المادى ، من الكون ، ولا عند الإنسان ، بوصفه وحدة من وحدات هذا الكون ، بل إنها تشمل جانب المجتمع الذى تدخل دراسته فى نطاق العلوم التى تسمى الآن بالعلوم الإنسانية ، التى منها علم الاجتماع والتاريخ .

ولقد أورد القرآن فى هذا المجال ، المبدأين الكليين اللذين سلفت إليهما الإشارة ، أولهما مبدأ الصراع بين الناس .

وثانيهما مبدأ غلبة الأعظم نفعاً أو الأقوى بالمفهوم الاجتماعى لا بالمفهوم الحيوانى .

فالمبدأ الأول قررته الآية الكريمة : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ! .

والمبدأ الثانى قررته الآية الكريمة : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » ! .

ولكن إلى جانب هذين المبدأين الكليين ترى العديد من الحقائق الاجتماعية التى يهنئ علم الاجتماع الحديث نفسه ، إذ اهتدى إليها وقررها .

من ذلك مبدأ تدهور المجتمعات ، وانحسار قوتها ، بغلبة الترف على أهلها . ومبدأ بدء ضعف المجتمعات ، عند وصولها إلى قمة قوتها ، لما يطرأ على السادة فيها من الاستئثار بالسلطة ، وتجميع الثروة ، والاستبداد بالضعفاء ، وحرمانهم من حقوقهم الأساسية .

فمن ذلك قول الله تعالى فى سورة الإسراء : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » ومعنى الآية ، أنه إذا بلغت قرية أى مجتمع إنسانى ، الغاية من الفساد ، أمر الله سادتها ، الذين ينعمون بالسلطة

وبالثروة ، ويتقلبون فى أعطاف النعيم ، بالعودة إلى الحق ، فلم يلتفتوا إلى مبادئ الصلاح المؤدية إلى القوة ، وآثروا جانب الفسق والطغيان ، فحق عليهم أن ينفذ فيهم قانون الحياة ، القانون الذى يقضى بأن عاقبة الفساد هى الهلاك. ويتكرر حديث القرآن عن الترف والمترفين ، مقروناً بسوء العاقبة ، وزوال السلطة ، والنعمة معاً.

أما بدء التردى فى الضعف ، عن بلوغ الإنسان إلى غاية القوة المادية واكتفائه بهذه القوى المادية ، دون المقومات المعنوية ، فتراه فى الآية الكريمة : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ».

وإذا أردت أن تعرف سر فساد الأمم ، وهلاك سلطاتها ، فإن جزءاً من آية من القرآن الكريم تبرزه لك فى أربع كلمات ، « وبئر معطلة وقصر مشيد » فالمجتمع الذى تشاد فيه القصور ، وتهمل فيه المرافق التى لا غنى عنها للناس ، هو المجتمع الذى يصح فيه قول الله تبارك وتعالى : « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد ».

ولقد شهد القرن العشرون ، مولد فلسفة التاريخ ، على يد اشبنجلر ، مؤلف كتاب « انحلال الغرب » وقبله وضع « جيبون » مؤلف كتاب « سقوط الإمبراطورية الرومانية » مبادئ عامة أو بذورا لهذه الفلسفة ، وسبقهما إلى ذلك الفيلسوف الإسلامى المغربى ابن خلدون ، ولكن هذه المبادئ جميعاً ، ترى ما هو أصح منها ، وأشمل ، وأعمق ، ما انتثر فى

آيات القرآن الكريم ، من أحكام ، لم تكن الغاية منها بطبيعة الحال ؛ وضع منهج لدراسة التاريخ ، أو لتقرير مبادئ لاستنباط معانيه الكلية ، بالمعنى المدرسى ، ولكن ما انطوت عليه من الحقيقة ، وما استظهرته من أصول الحياة الإنسانية ، هاد تماماً إلى هدف التطور الإنسانى ، وغايته ، ومساره .

وجملة القول إن القرآن لم يدع وسيلة لقرع الأذهان ، وتنبيه النفوس ، إلى تطور الكون الدائم ، وتطور الإنسان معه ، ليكون الإنسان أقدر على الحياة ، وعلى استخلاص أسباب القوة ، والنجاة من دواعى الضعف والتحلل ، فالقرآن يؤمن بأن الحياة حق الأقوياء ، ولكن القوة عند القرآن ليست مادية بحتة ، وإن لم تخل قط ، من عناصر مادية . فالمسلم لا يملك أن يحطم بدنه ، ولا أن يهمل حاجياته ، ولا أن يقنع بالدون ، بين الأحياء ، ولا أن يزهد فى متع الحياة ، وأطايب لذائذها ، وإن كان مأموراً بأن ينأى عن الترف ، لأنه استئثار بأكثر مما يحتاج إليه بدنه وحياته الرفيعة من الملبس والمأكل والمسكن ، ولأن هذا الترف ، هو بداية انحلال المجتمعات ، فتقبل الظلم ، وتتعاطاه ، وتسلب الضعفاء حقوقهم ، حرصاً على متع الحياة الدنيا ، التى هى متاع الغرور .

فتنبيه القرآن ذهن المسلم إلى قانون التطور ، وتحذيره من الغفلة عن تبين آثاره غايته ، أن يتقدم الإنسان ، وألا يجمد ، لأن تطور الكون الدائم ، هو سير إلى ما هو أعلى وأسمى بدلالة قول الله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » .

فسير التطور كما قلنا ، ليس سيراً أعمى ، بل هو مستنير ، ولكن ما أيسر أن ينحرف الإنسان ، وإن كان قابلا دائماً للتطور نحو الأفضل والأقوى والأعظم . ولكن لا يتيسر له الوصول إلى ما هو أسمى إلا بالاهتداء إلى منهج القرآن فى الحياة ، وهو منهج يستدعى اللجوء إلى القوة النفسية والروحية التى تلتزم ضبط النفس ، وصبراً على التقشف ، وسهراً فى وجه عوادى التحلل والهلاك . فعقيدة التطور هى عقيدة الأحياء الأقوياء الظافرين .

فسير التاريخ ، وتطور الإنسان فى القرآن يختلف تماماً عن سيره مثلا عند شبنجلر ، الذى يقول ، كما جاء فى كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى ، لا تنخدع بهذه الآمال المعسولة ، آمال السلام الدائم والطمأنينة الهادئة ، فإن الحياة كفاح ، ولا تعرف غير الكفاح ، والانسان حيوان مفترس ، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك ، وما هؤلاء الدعاة إلا منافقون خبيثون فقدوا أنيابهم ، ونزعت منهم أظفارهم ، فحقدوا على من لها مالكون » .

فالحياة عند الإسلام ، كفاح كما يقول شبنجلر وكفاح دائم : « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » والمسلمون أشداء على الكفار ، « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار » ، ولكن هؤلاء الأشداء ، ليسوا فقط « رحماء بينهم » ، بل « تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً » .

فالإنسان حيوان مفترس حقاً ، يأكل لحم أخيه ميتاً وحياً ، وهو « قتور » و « كفور » وأنه « ليطغى أن رآه استغنى » « وإنه لحب الخير

لشديد » « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » هذه كلها حقائق يقررها القرآن ويعلنها ، ويؤكدها ويبدأ القول فيها ويعيد ، ولكن ما إن ينقلب الإنسان إلى مسلم ومؤمن ، حتى تراه قد استحال إلى مخلوق جديد ، يكره العنف ، إلا مضطراً ، ويستعمل السلاح حتى تسود كلمة الحق ، فإن أسلم المعاندون فإخوان المسلمين وشركاؤهم فى الخير والشر ، يقتسمون معهم لقمة العيش ، وشربة الماء ، ولا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح .

ويحذر شبنجلر الناس من وهم أن الحضارات حلقات متصلة ، فى سلسلة محكمة الأواصر هذه تفضى إلى تلك ، درجات فى سلم الرقى ، والإنسان بفضل هذه السلسلة الوثيقة الحلقات ، ينتقل حتماً من خير إلى خير أعظم منه ، ومن سلام إلى سلام أكبر استتباباً ، وأعظم انتشاراً . ففى تاريخ الإنسانية نكسات وردات عودة إلى الجاهلية والشرك ، ولقد حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المسلمين ، بأن الإسلام سيعود غريباً كما بدأ ، وأنه سيأتى عهد يكون فيه القابض على دينه ، كالقابض على الجمر ، كما قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل : يا رسول الله أمن قلة منا نحن يومئذ ؟ قال ، لا ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، يجعل الوهن فى قلوبكم ، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » .

فالمسلمون أنفسهم ، سيدال عليهم ، سيضعف شأنهم ، ويزول سلطانهم ، وتغلبهم أمم غيرهم ، لأنهم سيصبحون كغثاء السيل ، يتطاير فى الهواء لأدنى هبة ، وقد قال الله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاءً » ،

فتطور الإنسان فى القريب ، ليس تطوراً مضموناً ، فى كل زمان ، وعند كل قوم ، بل لا بد لاستهداقه الغاية التى رسمها الله للإنسان ، بأنه لم يخلق السموات والأرض إلا بالحق ، وأنه تعالى لم يخلقهما باطلا ، إلا أن يكون المسلم حريصاً على الحق ، ملتزماً إياه والحق معناه الصدق والشجاعة ، والصراحة وإنكار الذات ، وفى جملة ملتزم ما قاله الله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم.ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون » .

وبعد . فليس التطور ، انفلاتاً من سنن الله ، التى لن تجد لها تحويلا ولا تبديلا ، فالتطور هو فى إطار من ثبات القواعد الكبرى التى أقام الله تعالى أكوانه على أساسها ، فالتطور نفسه ، وإن كان تغيراً وحركة ، إلا أنه سنة ثابتة ، وسير الأحداث المتدافعة ، وإن بدا محموماً وعنيفاً ، كالسيل العرم ، إلا أنه محكوم ، لا يجرى اعتباطاً ، ولا يكتسح فى وجهه قوانين الجاذبية والحرارة وغيرهما من قوانين هذا الكون ، المضطردة ، ولا قوانين الله التى تحكم مخلوقه الأسمى : الإنسان . ونعنى بها التقوى والعمل الصالح ، ودفع الأذى ، والتعاون من أجل الخير ، أى العمل من أجل إنسان أرقى وأعظم ، وأكبر حظاً من العلم ومن السعادة .

لم يتحدث القرآن الكريم ، عن شىء ، بعد التوحيد ، كما تحدث عن تطور الكائنات والأكوان . وتطور الإنسان والحيوان ، وتطور الجمادات والجماعات أبدأ فى هذا وأعاد ، وضرب الأمثال ، وساق المواعظ ، وبين الأدلة والشواهد . حتى حق القول بأن الإسلام هو دين التطور .

وهو كذلك لأنه خاتمة الأديان وخلاصتها ، جاء مصدقاً لما سبقه منها

ومهيمناً على كل ما دعت إليه ، من أصول العقائد ، وهو كذلك لأنه رسالة من عند الله ، وبيان من رب العالمين إلى عباده أجمعين .

ولما كان خلق الله ، سائرين نحو الكمال ، إذ قضت بذلك مشيئته ، فلابد أن يكون قانون هذا الكون الذى نعرفه ، أو الذى يجب علينا أن نعرفه ، هو التطور . لأن الجمود هو ضد التطور ، والتطور هو سبيل وسنة الحياة التى أبدعها الله تعالى ، فلابد أن تقرع فى كتب الله قلوب الناس وأسماعهم ، الدعوة الملحة المضطردة المستمرة إلى تأمل مظاهر هذا التطور ، ودلائله : وشواهده ، وسيره الدائب ، وحركته الموصولة ، فى كل ما يضمه هذا الكون البديع من أدنأ المخلوقات إلى أكبرها ، من الجامد فيها إلى الحى ، ومن البسيط إلى المركب ، ومن الظاهر للأعين إلى الخفى الذى يتضح العلماء ورثة الأنبياء وحدهم بالوسائط من مجاهر وأدوات للكشف ، تتطور هى بدورها وتدق ، وتنفذ إلى أعمق أعماق البحر : وأبعد أجرام السماء ، وأخفى خفايا الإنسان ، فى بدنه : خليته الأولى ، وفى نفسه : عقله وأعصابه .

[ختام]

ولقد كان الأبناء – على ما سبق القول – من البشر – لفرط حرصهم على الجمود ، واستنامتهم إليه ، ورضائهم به ، عن كسل من جهة ، وعن خوف من الجديد من جهة ثانية ، وعن جهل من جهة ثالثة . فأعداء الإنسان الكبار ، لا يتجلون ولا يظهرون على مدى تاريخه ، إلا كما

يظهرون فى محاربتهم للتطور ، وكفرهم به ، وعجزهم عن تبين آيات الله الكبرى ، التى تتجلى فيه ، وتتبدى عن سبيله .

ومن ثم ، فقد لعن القرآن الكريم خصوم التطور ، وأعداءه ، فى مواضع كثيرة منه ، مرت الإشارة إليها ، ولكن لا تزال بقية منها كقوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » [البقرة] .

« وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله : وإلى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا : أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ! [المائدة] . ولم يغير شيء فى حياة الناس ، ويدعوهم إلى التطور ، وطورهم بالفعل ، مثل الدين ، ولما كان الدين الإسلامى هو خاتمة هذه الأديان ، وخلاصتها ، وآخر ما ارتضاه الله تعالى لعباده ، بعد أن شبوا عن الطوق ، وعرفوا سبيل البحث عن أسرار الله فى كائناته ومخلوقاته وفى أنفسهم وفى الآفاق ، فقد كان دين التطور حقاً . وبكل معانى هذه الكلمة .

دعا إليه وعلم الناس إياه ، ووضع أيديهم على صوره ، وكشف لهم آثاره ، وحثهم على كشف قوانينه ، وحذرهم من تجاهله ، والوقوف فى وجهه ، ثم ضرب للبشرية جمعاء مثلا فى تطوير الإنسان ، فى أقل القليل من الزمن . فى ثلاث وعشرين سنة ، قلنا إنها لا تزيد عن عمر شاب واحد فى مطلع حياته ، أن ينقل أمة من حضيض الجهل فعلا إلى أعلى عليين من المعرفة ، وحب تحصيلها ، والإيمان بها ، وتقديم سدنتها ، والعاملين فى حقولها ودروبها ، على كل من سواهم من بنى آدم . فقال الله تعالى فى حقهم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وقال : « شهد الله أنه

لا إله إلا هو والملائكة ، وأولو العلم » فساوى بين شهادته تعالى ، وشهادة الملائكة ، وشهادة العلماء ونظم هذه الشهادات جميعاً فى سلك واحد .

وارتفع بها من الدرك الأسفل من التخلف الاجتماعى الذى كانت أكبر مظاهره فرقة ، لا أمل فى نفى بواعثها ، ولا رجاء فى إنقاذ المتردين فى حمأتها مع عصبية متأججة ، وحمية متوهجة .

أما الفقر ، وجدب الأرض ، وانقطاع الموارد ، فحدث عنه ، كما حدث عنه التاريخ فأطال الحديث .

وقد فعل هذا الدين فى هذه الأمة المتفرقة الفقيرة المتنافرة الأمية ، ما لم تفعله حركة أخرى ، فى الشرق ولا الغرب ، فى القديم ولا الحديث ، فقد سادت الدنيا المعروفة فى أيامه ، لا بقوة السلطة ، وسيادة الحاكم فقط ، بل بالجامعات والمعاهد ، ودور البحث ، وندوات المناظرة والمكتبات والوراقين ، ونسخ المؤلفات وترجمتها وتصحيحها والتعليق عليها والإضافة إليها .

وكان كل شىء يتم فى هذا الدين بسرعة خاطفة : الجيوش تنطلق ، وكأن البوادى قد طويت تحتها ، والمسافات قد زالت أمامها ، فالانتقال مثلا من المدينة ، عاصمة المسلمين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البحرين ، كان يستنفد من الوقت ، فى ذلك العهد المنير ، أكثر مما يحتاج الإنسان إليه ، لينتقل من المدينة إلى نيويورك فى العصر الحديث ، قبل الاهتداء إلى الطائرة والانتفاع بها . .

من أين جاءت كل هذه الدفعة ، وكيف تحققت ؟ ! لقد جاءت من الإيمان بوجوب التغيير : وبإمكان تحقيقه فى آن .

والحق أن الله تعالى ، كره للمسلمين ، أن تصيبهم آفة الجمود ، لأن الجمود ، قرين الموت والهلاك .

ولقد حدثنا التاريخ ، عن الأمم التى جمدت وتحجرت ، واستظهر المؤرخ الإنجليزى الكبير ، هذه الظاهرة ، المهلكة ، فى كتابه العظيم : ملخص تاريخ العالم ، فضرب للأمم المتحجرة [اليهود] مثلا ، وقد رد محنة اليهود ، وانعزالهم فى المجتمع الرومانى ، ثم فى المجتمع الأوربى كله بعد ذلك إلى قوله : ينحدر اليهود الإشكنازيون [الغربيون] من اليهود الذين اغتنموا فرصة فتح الرومانيين أبواب أوربا فحققوا أرباحاً من ممارسة تجارة التجزئة فى مقاطعات ما وراء الألب شبه الهمجية وتضاعفت محنة هؤلاء باعتناق الإمبراطورية الرومانية المسيحية ، ثم انهيارها ، إذ أصبحوا يعانون من تعصب الكنيسة المسيحية ومن ازدراء البرابرة ، إذ لا يستطيع الهمجى أن يحتمل مشاهدة مقيم غريب يحيا حياة منعزلة ويحصل على ربح بفضل التبادل التجارى الذى كان الهمجى يفتقر إلى المهارة اللازمة لممارسته بنفسه ، فاندفع المسيحيون الغربيون مسيرين بهذه المشاعر إلى اضطهاد اليهودى ، طالما لا غنى لهم عنه ، ثم طردوه بمجرد ما أحسوا بقدرتهم على الاستغناء عنه .

« وفى داخل المسيحية الغربية الآخذة فى الانتشار طفق اليهود يطردون من بلد بعد آخر ، كلما بلغت الشعوب الغربية المتعاقبة مستوى معيناً من الكفاية والاقتصاد ، ثم انتقل إلى الحديث عن اليهود فى أسبانيا والبرتغال فى الحكم الإسلامى ، وهى عبارة تصلح أن تكون شاهداً على معنيين سأدير عليهما الكلام حالا ، فى شأن عقيدة التطور أو مذهبه .

قال توينبي :

« يفسر ضعف حدة الروح اليهودية » الذى نلاحظه بين مهاجرى طائفة السفاردية من أسبانيا والبرتغال ، بحياتهم السابقة فى دار السلام ، ففى فارس وفى المقاطعات الرومانية التى استولى عليها العرب فى نهاية الأمر ، وجد أصحاب التشتت اليهودى أنفسهم فى مركز أسعد نسبياً ، بل إنه من المؤكد أن وضعهم فى عهد الخلافة العباسية لم يكن أقل ملاءمة لهم من وضع اليهود فى الوقت الحاضر فى تلك البلاد الغربية [إنجلترا ، فرنسا] التى تحرر فيها اليهود فى وقتنا هذا . إن المصيبة التاريخية التى حلت بالسفارديم [يهود المشرق] بانتقال شبه جزيرة أيبيمياز [أسبانيا والبرتغال] ، تدريجيا من المسلمين إلى المسيحيين الغربيين ، وهو الانتقال الذى تم فى نهاية القرن الخامس عشر وقتما عرض عليهم غزاتهم المسيحيون أن يختاروا بين أمور ثلاثة : الإبادة ، أو الطرد ، أو اعتناق المسيحية » ولسنا فى صدد الحديث عن اليهود ، ودورهم فى تاريخ العالم ، ولا مقارنة بين تسامح الإسلام معهم ، وإبادة المسيحية لهم ، وإنما نريد أن نستخلص من هاتين الفقرتين ، كيف أن محنة اليهود أصلا ، هى محنة الجمود ، والانغلاق ، وكره التطور ، فقد أبى اليهود إلا أن يقفوا فى وجه تيار التطور ، ، فلا هم استطاعوا أن يمسكوا بزمام القوى الدافعة فى سير الأمم ، كما فعل المسلمون ، حينما بلغوا الغاية من الإيمان والتطور والاقتناع بأحكامه ، والانتفاع بسنته ، ولا هم فعلوا فعل المسلمين ، حينما أدال عليهم الزمان ، وسلبهم أسباب قوتهم وهبط بهم إلى أمم من الدرجة الثانية فالثالثة فلم يتحولوا قط

إلى مجتمعات منعزلة ، وإن كاد هذا الاتجاه المدمر ، يبدو فى بعض جماعاتهم ولفترات من تاريخهم ، ولكن الجرعة التى تناولها المسلمون الأوائل من حب الحياة الرفيعة ، وفهم مقتضياتها والنزول على هذه المقتضيات ، أعانهم على مواجهة ضغط تيارات الزحف الاستعمـارى على بلادهم وثقافتهم ، وهم فى أشد حالات الضعف . فإن جهاد المسلمين وكفاحهم ضد الغزو الغربى ، ولا سيما فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، يكاد لا يصدق ، إذ لم تنقض فترة من الزمن إلا وكان للمسلمين هبات رائعة فى وجه الغزاة ، الذين كانوا فى أكثر الأحوال نسخاً متكررة من التتار . فما فعلته فرنسا فى شمال أفريقيا ، وما فعلتة هولندا فى إندونيسيا ، وما فعلته بريطانيا فى الهند ، ومصر والسودان ، هى عمليات شبيهة بما فعله الفرنجة والجرمان فى الإمبراطورية الرومانية وولاياتها .

ولكن كفاح عبد القادر الجزائرى فى الجزائر ، وعبد الكريم فى الريف ، وما فعلته ثورات المسلمين فى الهند ، يدل دلالة واضحة على أن المسلمين أمة حية ، حتى حينما تبدو عليها أمارات الموت .

ولأن الله كره للمسلمين أن يجمدوا فقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلفاؤه من بعده ، ثم الأئمة من بعدهم ، الوسائل والسبل ، التى تبقى الدين حيًّا ، غضًّا ، قادراً على مواجهة ما تأتى به الأيام من صور جديدة للحياة ، والعلاقات الإنسانية والنشاط البشرى فى صوره المختلفة .

ولما كانت شريعة المسلمين هى شريعة شاملة ، تحكم علاقات الإنسان بربه ، وعلاقات الإنسان بأهله ، وعلاقات الإنسان بغيره ، وعلاقات الإنسان بالحاكم ، وعلاقات الإنسان بالبيئة ، فقد كان الإبقاء على

مرونتها واتساع مداها . الضمان الأكبر لبقاء المسلم ، خلية حية فعالة مؤثرة مستجيبة لتحديات الزمان ، موجهة لها .

لقد كان السبيل إلى استمرار الحياة للشريعة الإسلامية ، وبالتالى للمجتمع الإسلامى ، هو ما تواصى على تسميته المسلمون [بالاجتهاد] . وهو لفظ صغير فى معناه كبير جداً فى مدلوله ، ونطاقه ، ومعانيه ، ووسائله . الاجتهاد فى كلمة هى سلاح المسلم فى وجه الجمود الذى قد يهدده ، والكسل العقلى والروحى الذى قد يدمره .

وقد بين الشهرستانى دواعى هذا الاجتهاد فقال فى كتابه « الملل والنحل » :

« إن الحوادث والوقائع ، مما لا تقبل الحصر والعدد ، ويعلم قطعاً أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك أيضاً ، والنصوص إذا كانت متناهية ، والوقائع غير متناهية ، ولما كان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى ، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل واقعة اجتهاد .

ولا خلاف بين علماء المسلمين ، ومؤرخى فقه الشريعة الإسلامية ، وتاريخها ، أن خلفاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد اجتهدوا ، ولكن جميع هؤلاء — ومعهم من أنكر أن لرسول الله اجتهاداً قد أقروا بأن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد أجاز الاجتهاد فقد روى عنه أنه سأل معاذ بن جبل وهو يوفده إلى قضاء اليمن : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ فقال معاذ : أقضى بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة رسول الله ، فإن لم أجد أجتهد رأيى » ففرح الرسول صلى الله عليه وسلم ، لهذه الإجابة ، أن وجد من

صحابته ، أن يهتدى إلى هذا النهج المتدرج السليم ، الذى ينتهى بإعمال الرأى .

ولكن فى علماء المسلمين من يذهب إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهد ، وأن ذلك كان شأن جميع الأنبياء عليهم السلام ، قبله . فقد أورد الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى فى كتابه القيم « اجتهاد الرسول » عن ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل »

« قد يقع من الأنبياء قصد الشىء ، يريدون به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى ، وأنه تعالى لا يقرهم على شىء من هذا أصلا ، بل نبههم إلى ذلك إثر وقوعه منهم ، ويظهره لعباده ، وربما عاتبهم على ذلك بالكلام ، كما فعل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فى أمر زينب ، وقصة ابن أم مكتوم ، وربما عاتبهم ببعض المكروه فى الدنيا ، كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام » .

أما فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل نفسه فيقول فى الكتاب ذاته :

« ذكرنا من الأمثلة والشواهد ما يدل على وقوع الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم ، متنوعاً حسب طبيعة الإنسان ، فرأيناه اجتهد وعبر عن اجتهاده بالقول مرة ، والعمل والفعل أخرى ، وإقرار رأى بعض صحابته ، أو عدم إقراره ثالثة .

والاجتهاد منه إذن مؤكد الوقوع ، سواء أكان عن طريق القرآن الكريم أو السنة الصحيحة .

أما اجتهاد صحابة رسول الله الكبار ، الذين ولوا أمر المسلمين بعده ، أى خلفاؤه الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم فأمر ثابت ،

ولا خلاف عليه ، واجتهاد عمر رضى الله عنه ، فى حق المؤلفة قلوبهم ، وقطع يد السارق ، وإيقاع الطلاق ثلاثاً ، طلاقاً بائناً ، بعد أن كان يعد طلاقاً رجعيًّا ، أى تحل للمطلق معاشرة زوجته بعده واجتهاد على فى حد القذف ، وقياسه على حد الشرب وهكذا » .

ولكن حينما مضت الأيام وتشابكت مصالح المسلمين ، باتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وظهور مصالح جديدة ، فقد تواضع فقهاء المسلمين على طرق عديدة لاستنباط الأحكام الجديدة ، وإنزالها على ما يجد من الأمور ، مستندين فى ذلك إلى أصول الأحكام الثابتة فى الشريعة الإسلامية ، ألا وهو القرآن والسنة النبوية ، ثم ما أجمع عليه بعد الرسول عليه السلام صحابته السابقون إلى الإيمان والجهاد والصحبة .

هذه الطرق هى بعد الإجماع ، القياس ، وهو فى اصطلاح الأصوليين تسوية واقعة لم يرد نص بحكمها فى الحكم الذى ورد به النص لتساوى الواقعتين فى علة هذا الحكم ، كحرمان القاتل من إرث من قتله ، فقد قاسوا الموصى له ، على الوارث فحرموه من إرث الموصى .

والقياس طريق من طرق الاجتهاد ولا خلاف عليه ، ولكن ما لبث الفقهاء والأصوليون ، أن أضافوا إليه طرقاً جديدة كالاستحسان والاستصحاب والعرف ، وشرع من قبلنا ، وكلها طرق تنتهى إلى غاية واحدة ، هى بعث الحياة فى الشريعة ، بوصلها بما يجرى فى حياة الناس ، ويحملها على مواجهة المصالح الجديدة ، بعد إنعام النظر ، وإمعان الفكر ، للاهتداء إلى الحكم الصالح ، المتفق ، مع ما وصلت إليه أمور الناس ، وقد استطاع المسلمون الأوائل بعد الفتوحات الكبرى ،

واتصالهم بمجتمعات لم يسمعوا عنها ، ولم يعرفوا شيئاً عن أسلوب حياتها ، وقواعد أحكامها ، ومناهج حكوماتها ، أن يبسطوا دينهم عليها بالدعوة والرفق والموعظة الحسنة ، والقدوة الكريمة ، دون أن يجدوا فى أحكام دينهم ، ولا فيما جاء فى قرآنهم ، ولا فى سنة نبيهم ، ما يحول دون هذا التعامل الميسر ، مع أعوان يختلفون عن العرب والمسلمين — كما قلنا ، فى أكثر الأمور . وبذلك ضمن المسلمون لأنفسهم مزايا التطور ، واستمروا ينافسون سواهم لا فى السيادة وحدها ، بل فى تحصيل العلوم والفنون وإتقانها والإضافة إليها ، وتنويعها والارتقاء بها ، وعقد المناظرات والمحاضرات وإقامة الندوات بين علماء ينتسبون إلى لغات غير العربية وإلى أديان غير الإسلام ، وإلى مناطق قاصية بعيدة لم يصل إليها العربى ، لا زائراً ولا سائحاً ، ولا غازياً أو فاتحاً .

وقد قال الدكتور عبد الرزاق السنهورى الفقيه المصرى المعاصر ، فى الرد على الذين توهموا أن ما كان من تطور وسائل وطرق استنباط الأحكام ، كان لعهد محدود ، هو عهد ازدهار الحضارة الإسلامية ، وأن ذلك العهد زال وانقضى ، ولم تعد الشريعة ، ولا فقهاؤها ولا كتبها ، ووراثاتها القديمة قابلة للتطور ، ولا قادرة على مصاحبة ماجد للإنسان الحديث من صور لا تنتهى فى كل درب وفرع من فروع الحياة ، اجتماعية كانت أو سياسية أو اقتصادية قال :

« وقد توهم بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم أن هذه المصادر ليس فيها من المرونة والخصوبة ، ما يكفل حركة تشريعية متجددة ، وقوانين وأحكاماً تتطور مع أحوال الناس ، وتساير الأزمان المتعاقبة ،

وتلائم البيئات المختلفة ، والذى أوهمهم هذا الوهم أنهم رأوا أن النصوص التشريعية فى القرآن والسنة معدودة ، والوقائع التى شرعت أحكامها وقائع محدودة ، وقدروا أن الشارع الإسلامى لابد أن يكون قد راعى فى تشريع ما شرعه من الأحكام لتلك الوقائع حال الأمة ومقتضيات البيئة وما يصلح لبيئة ربما لا يصلح لأخرى ، ورأوا أن الأدلة الأخرى لا يصدر عنها التشريع فيما لا نص فيه أدلة غير ممهدة للاهتداء بها وعلماء المسلمين أحاطوها بأمور من القيود والشروط والالتزامات ضيقت نطاقها وسدت أبوابها وجعلتها غير عملية .

وقد نقل هذا الكلام الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف فى رسالته القيمة « مصادر التشريع الإسلامى فيما لا نص فيه » فاسترسل يقول :

وأنا ألتمس بعض العذر لهؤلاء المتوهمين فيما توهموه لأن نواحى الخصوبة والمرونة فى النصوص التشريعية فى القرآن والسنة نواح دقيقة لا يحيط بها إلا من استقرأ تلك النصوص وراض عقله على الاستدلال بها ، وأنعم النظر فى جملتها وتفصيلها ، ولأن نواحى الخصوبة والمرونة فى سائر الأدلة الشرعية قد غطاها علماء المسلمين ببحوث لفظية واختلافات جدلية وشروط وقيود ذهبت بمرونتها ، وحالت دون الاهتداء بها ، واشتد تحجر هذه المصادر وزاد تراكم الأتربة عليها بسد باب الاجتهاد وإيجاب تقليد مجتهد من الأئمة الأربعة لأن هذا عطل استعمال مصادر التشريع فى الاستنباط وجمدها وعين الماء إذا لم يردها الواردون يغيض ماؤها والأسلحة إذا لم تستعمل يعلوها الصدأ » .

وفى هذا كله ، دليل حى ، على أن التطور الذى هو سنة الحياة ،

والذى هو مذهب الإسلام ، ومنهجه ، فى الدعوة والأحكام وسياسة أمور الدين والدنيا ، هو فى الوقت نفسه ، ولهذا السبب ذاته ، سر قوة الأقوياء ، وسر ضعف الضعفاء وقلة حيلهم . ولقد عرف الغزاة الذين أخذوا على المسلمين دنياهم من أقطارها ، وسدوا عليهم المنافذ من جهاتها ، بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد ، ليصرفوا المسلمين عن كتابهم والتأمل فيه والاهتداء إلى حقائقه الكبرى ، ولما كان هذا الكتاب داعيهم الساهر وحاديهم الساحر أن يتطوروا مع الزمن ويسبقوه إلى غايته ، فقد خمدت عقولهم ، فخمدت إرادتهم ، وأصبح الاجتهاد شاقًّا عليهم ، فلما ألفوا نبذ هذا الاجتهاد وسد منافذه ، راحوا يلتمسون الأعذار الواهية ، الموجبة لتركه فقالوا ضمن ما قالوا – إن حكام المسلمين أناس خلت قلوبهم من خشية الله وامتلأت نفوسهم بحب الدنيا ، وقد اصطنعوا فقهاء ليسوا من الدين ولا من التقوى ولا من العلم فى شىء ، وهؤلاء أصبحوا يقبلون من الحاكم ما يأمر به ، ولو خالف الشرع ، وما يرتضيه ، ولو أهدر المصلحة ، وقد ينصحون المسلمين بما لا يرضى عنه الله ، ولا الرسول ، ويصبح من الزمن فقهاً مأخوذاً به ، مرضياً عنه ، فيقوم إلى جانب الدين الصحيح ، دين فاسد ، وقد يختلط الأمر على الناس ، لشدة بعدهم عن الدين ، وعجزهم عن فهم لغته فيأخذون الدين الفاسد ، ويعضون عليه بالنواجذ .

وهذه حجة لا تقبل ، إذ لم يكبر شأن هذا الطراز الفاسد والمفسد من مجتهدى الحكام وفقهاء السلطة ، إلا لأن الفقهاء القادرين على الاجتهاد ، المالكين لعدته ، قد أمسكوا عن هداية الضالين ، ونصح السادرين ، ورد الشاردين ، ولو واجهوا العلم الزائف بالعلم الصحيح للقف حيات

وثعابين المضلين ولدبت الحياة فى شريعة المسلمين الغراء ، ولو وجد المسلمون فى ضوئها طرقاً لمنازلة أعدائهم ، فى حلبات السياسة والحرب ، والاقتصاد والاجتماع ، فالقوة لا تأتى للأجساد ، إلا عن طريق عقل يعى . وقلب يدرك ، ونفس تتأمل فيما حولها .

لقد ضرب القرآن الكريم المثل الأكبر للمسلمين ليدركوا معه ، أنهم خلقوا ليغيروا أنفسهم ، فيما قص عليهم قصة آدم إذ فضله الله سبحانه وتعالى على الملائكة ، فقد آثره وخصه بالخلافة مع أنه يخطئ ويفسد ويسفك الدماء ، لأنه يعلم ، ولأنه بفضل علمه يجتهد ، ولأنه بفضل اجتهاده يتطور ، أما الملائكة فبفضل كمالهم لا يحسون حاجة للاجتهاد ، ولا باعثاً على الاستنباط .

ولقد قال البيضاوى فى تفسيره إن إبليس كان أول من استعمل القياس ولجأ إلى الاستنباط حينما أمره الله بالسجود لآدم فأبى ، فلما سأله ربه ما منعك ألا تسجد لآدم « قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين » ولكن ليس هذا طعناً فى القياس ، ولا الاستنباط ، وإنما هو دليل على أن القياس لا يصح إلا إذا كمل علم من يلجأ إلى القياس ، ومن خلت نفسه من المصلحة أو الشهوة . فإبليس أبى عن استكبار ، لا عن اقتناع أدت إليه البديهة السليمة ، ولا الفطرة الصحيحة . ثم يبقى أن القرآن الكريم ، هو وحده الذى أورد هذا الجدل ، ليكون دليلا على أن القرآن هو دين الاجتهاد ، من أوسع أبوابه وكل وسائله .

ولم تتجرد فكرة الألوهية ، عند المسلمين من كل تجسيد ، ومادة ، لترفع من أمام العقل الإنسانى ، القيود التى تحد من حريته وانطلاقه ،

فتجسيد الفكرة فى شخص أو شيء ، يحدد من نطاقها ، ويحرمها من ترامى آفاقها . .

على المسلمين الذين علمهم دينهم كل هذا ، أن يعودوا إلى مناهجه ، فيسابقوا فى دنيا ، جعلها الله لهم فسيحة ، صدق الله تعالى إذ قال لمن يستكينون للظلم والخسف وسوء الحال :

« ألم تكن أرض الله واسعة » ؟ ؟

* * *

القصص فى القرآن

هل فى القرآن قصص ، أم أن كتاب الله الكريم ، قد انطوى على قصة واحدة ، هى قصة يوسف عليه السلام . التى جاءت كاملة ، فى سورة يوسف ، وهى السورة التى تفردت بالآية الكريمة التى قال فيها الله تعالى : نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

فإذا قلنا ، إن القرآن الكريم لم يورد إلا هذه القصة ، من قصص الأنبياء والرسل ، وقصص الأولياء والصالحين ، كقصة أهل الكهف ، وقصة موسى والخضر ، فيكون إذن ، ما ورد من هذا القبيل كذكر آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، لا يعدو أن يكون نبأ أو أنباء أو حديثاً عنهم ، فقد قال الله تعالى : فى سورة إبراهيم: « ألم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود » وقال فى سورة الشعراء : واتل عليهم نبأ إبراهيم ، وقال فى سورة هود « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل » كما قال تبارك وتعالى : « وهل أتاك حديث موسى » فى سورة طه وفى سورة الذاريات « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » وفى سورة النازعات : « هل أتاك حديث موسى.إذ نادى ربه » .

وفى القرآن الكريم : آيات تتحدث عن أخبار الماضى بأنها أنباء الغيب أو أنباء ما سبق كقول الله عز وعلا فى سورة آل عمران : « ذلك من

أنباء الغيب نوحيه إليك » .

هذه هي القضية التي نحن بسبيل طرحها ، توطئة للوصول إلى رد على السؤال الذى نقدمها به .

وقبل أن نطرح القضية ، وننتهي فيها إلى رأى ، نقدم بين يدى البحث ، مقدمات تصل به ، ولا يمكن الوصول فيه إلى نتيجة يحسن السكوت عليها إلا بعد الإلمام بها .

ورد لفظ القصص ، وما يشتق منه – على ما جاء بمعجم ألفاظ القرآن الذى وضعه المجمع اللغوى فى القاهرة ، مرة واحدة بلفظ [قص] فى سورة القصص ، وبلفظ قصصنا فى سورة الدخل ، وبلفظ قصصناهم فى سورة النساء ، و [نقصص] فى سورة يوسف ، و [نقص] فى سورة الأعراف وهود ويوسف والكهف وطه . وبلفظ [نقصص] فى غافر ونقصصهم فى النساء و [فلنقصن] فى الأعراف [ونقصه] فى هود ، ويقص فى الأنعام والنمل وبلفظ [يقصون] فى الأنعام والأعراف وبلفظ « فاقصص » فى الأعراف .

أما معنى [القص] ، والقصص فيقول فيه المعجم :

والقصص ما يتتبع ويروى من أخبار وقصص ، والقصص : مصدر « قص » بمعنى تتبع الأثر ، وقصصنا التى وردت فى سورة الكهف : « ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا » أى رجعا متتبعين آثارهما فى الطريق الذى أتيا منه . [وقصصهم] « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » التى وردت فى سورة يوسف أى فى رواية أخبارهم .

وقال القرطبي فى تفسير الآية الثانية من سورة يوسف : أحسن القصص

بمعنى المصدر والتقدير قصصنا أحسن القصص ، وأصل القصص تتبع الشيء ومنه قوله تعالى : « وقالت لأخته قصيه » ، أى تتبعى أثره ، فالقاص يتتبع الآثار فيخبر بها ، والحسن يعود إلى القصص لا إلى القصة ، يقال فلان : حسن الاقتصاص للحديث أى جيد السياقة له ، وقيل القصص ليس مصدراً بل هو فى معنى الاسم ، كما يقال الله رجاؤنا ، أى مرجونا ، فالمعنى على هذا نحن نخبرك بأحسن الأخبار .

ثم قال : « واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص ؟ فقيل : لأنه ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة وبيانه قوله فى آخرها « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » وقيل سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على آذاهم وعفوه عنهم — بعد الالتقاء بهم فقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجميل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا . وقيل لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل « أحسن » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعانى : إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه ، وإخوته وامرأة العزيز : قيل والملك أيضاً ، أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير » .

أما الطبرى فيقول فى تفسيره [جامع البيان عن تأويل آى القرآن] :

يقول الله جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « نحن نقص عليك » يا محمد ، أحسن القصص بوحينا إليك هذا القرآن فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية ، وأنباء الأمم السالفة ، والكتب التي أنزلناها فى العصور الخالية .

ونقل عن قتادة « نحن نقص عليك أحسن القصص » من الكتب الماضية فى الأمم ، « وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسألة أصحابه إياه أن يقص عليهم . وذكر عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله لو قصصت ؟ قال : فنزلت نحن نقص عليك أحسن القصص .

ثم نقل عن عون ابن عبد الله قال : مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة فقالوا : يا رسول الله حدثنا ، فأنزل الله عز وجل : الله نزل أحسن الحديث ثم ملوا ملة أخرى فقالوا : يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ، ودون القرآن ، يعنون القصص فأنزل الله « . . . نحن نقص عليك أحسن القصص » فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص ، فدلهم على أحسن القصص .

وقد قال البخارى رضي الله عنه عن هذا الحديث — على ما ورد فى هامش تفسير الطبرى تحقيق الأستاذ محمود شاكر — « منكر الحديث » .

وهو بلا شك حديث منكر .

وينقل الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء عن النسفى ، أن سبب نزول هذه السورة فى القرآن الكريم أن كفار مكة لقى بعض اليهود وتباحثوا فى ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم اليهود : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن قصة « يوسف » فنزلت .

ولم يلحظ من المفسرين المحدثين الفرق بين ما ورد فى القرآن ، من أنباء الرسل فى سور القرآن المختلفة ، وما ورد فى سورة يوسف ، مثل ما لحظ ذلك السيد محمد رشيد رضا ، رحمه الله فقد قال أولا ، فى كونها إتماماً أو امتداداً لسورة [هود] التى قبلها والمناسبة بينها وبين سورة [هود] أنها متممة لما فيها من قصص الرسل عليهم السلام ، والاستدلال فى كل منهما على كونها وحيا من الله تعالى ، دالا على رسالة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بآيتين متشابهتين . ففى آخر قصة « نوح » عن هود : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » وفى آخر الثانية : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » وإشارة التأنيث فى الأولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة ، وقيل للسورة ، وإشارة التذكير فى الثانية لقوله تعالى فى أول السورة : ؟ نحن نقص عليك أحسن القصص » والفرق بين قصتها وقصص الرسل التى قبلها وفى سورة الأعراف وغيرها ، أن تلك قصص الرسل مع أقوامهم فى تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها ، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم ، لإنذار مشركى مكة ومتبعيهم من العرب ، وقد كررت بالأساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ، ووجوه الإعجاز ، أما سورة يوسف فهى قصة نبى واحد وجد فى غير قومه قبل النبوة صغير السن ، وبلغ أشده واكتمل فنبئ وأرسل ودعا إلى دينه ، وكان مملوكاً ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم ، فأحسن الإدارة والتنظيم ، وكان خير قدوة للناس فى رسالته ، وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، وطوارئها وطوارقها ، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته وآل بيت النبوة ، فكان من الحكمة

أن نجمع قصته فى سورة واحدة وهى أطول قصة فى القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية فى ذكر القرآن وحسن قصصه ، ثم كانت إلى تمام المائة فى تاريخ يوسف ، وختمت بإحدى عشرة آية فى الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين ، وإعجاز كتابه ، والعبرة العامة بقصص الرسل عليهم السلام .

ونخرج من هذا الكلام بحقيقتين أساسيتين فى بحثنا :

الأولى : أن سورة يوسف قد أوقفت الكلام على نبى واحد من أنبياء الله هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام . الأمر الذى لم يتكرر فى القرآن قط .

والثانية : أن هذه القصة لم ترد فى موضع آخر من القرآن ، ولو على سبيل الإشارة أو التنويه ، كما حدث بالنسبة لجميع الأنبياء الآخرين فقد ذكرت أنباؤهم فى أكثر من موضع فى القرآن ، وربما تكرر النبأ الواحد عن النبى الواحد مراراً فى القرآن بنفس الصيغة حيناً ، وبصيغ متعددة حيناً آخر .

وقد كان أول ما ذكر من أنبياء الله هو بطبيعة الحال آدم ، وقد ورد ذكره فى خمسة وعشرين موضعاً فى تسع سور هى : البقرة ، وآل عمران ، والمائدة والأعراف ، والإسراء ، والكهف ، ومريم ، وطه ، ويس .

بينما ورد ذكر نوح عليه السلام فى ثلاثة وأربعين موضعاً فى ثمان وعشرين سورة هى ، آل عمران والنساء والأنعام والأعراف والتوبة ويونس وهود وإبراهيم والإسراء ومريم والأنبياء والحج والمؤمنون والفرقان والشعراء والعنكبوت والأحزاب والصافات وص وغافر والشورى وق والذاريات والنجم والقمر والحديد والتحريم ونوح ، والأغلب أن يرد ذكر [نوح] عليه

السلام فى السورة الواحدة مرة واحدة ولكن يحدث أن يتكرر ورود اسمه مرتين كما وقع فى الأعراف والصافات وثلاث مرات كما وقع فى سورة نوح ، وأربعاً كما وقع فى الشعراء ، وثمانى فى هود .

وقد ذكر هود عليه السلام سبع مرات مرة فى الأعراف وخمساً فى هود ، ومرة فى الشعراء . أما صالح عليه السلام فقد ذكر فى تسعة مواضع ثلاثة منها فى سورة الأعراف وأربعة فى سورة هود ، وواحدة فى الشعراء .

أما أبو الأنبياء إبراهيم بن تارح فقد ذكر فى خمس وعشرين سورة ، وقد كان أكثر ذكره فى السور الطوال فقد ورد اسمه فى سورة البقرة فى اثنى عشر موضعاً ، فى حين ذكر اسمه عليه السلام فى سبعة مواضع من سورة آل عمران وأربعة فى الأنعام وثلاثة فى النساء وثلاثة فى هود والأنبياء والحج والصافات ، ومرتين فى التوبة وهود ومرة فى إبراهيم والحجر والشعراء والأحزاب و ص والشورى والزخرف والذاريات والنجم والحديد والممتحنة والأعلى . ونلاحظ أن اسم إبراهيم هو وحده الذى ورد فى الجزء الثلاثين من القرآن المعروف بجزء [عم] . وإن كنا سنرى أن اسم موسى عليه السلام قد ورد فى هذا الجزء أيضاً مع جده الأعلى إبراهيم .

ولوط عليه السلام ، هو ابن أخى إبراهيم ، وقد ذكر فى سبع وعشرين مرة ، أى بما يزيد عن المواضع التى ذكر فيها إبراهيم بموضعين كان اسمه يرد فى السور التى جاء ذكره فيها مرة واحدة كالأنعام والأعراف والحج والصافات و ص و ق ، والتحريم ، ولكنه ورد فى هود خمس مرات ، وفى الحجر وفى الأنبياء والنمل والقمر مرتين . وقد ذكر إسحق بن إبراهيم عليهما السلام فى ستة عشر موضعاً فى ست سور ، وقد ورد اسمه فى سورة

البقرة ثلاث مرات وفى آل عمران والنساء والأنعام وإبراهيم ومريم والأنبياء و ص مرة واحدة .

أما يوسف بن يعقوب عليه السلام فقد ورد اسمه فى السورة المسماة باسمه عشرين مرة ، ثم ذكر مرة واحدة فى الأنعام ، ومرة فى غافر . فكأن سورة [يوسف] قد استأثرت تقريباً باسمه وبكل شيء يتصل به . وهو ما سبقت إليه الإشارة ، وما نرى تأكيده ثانية هنا .

ومن أحفاد الطبقة الأولى لإبراهيم عليه السلام مدين والذين يعبر عنهم فى التوراة بلفظ مديان ، ويقول عنهم القرآن [شعيب] وقد ذكر اسمه فى عشرة مواضع فى أربع سور فقط هى الأعراف وقد تكرر اسمه فى آياتها أربع مرات وأربعاً مثلها فى هود ومرة فى الشعراء ، ومرة فى العنكبوت .

وقد ذكر اسم يعقوب بن إسحق وأبو يوسف وهو المسمى عند اليهود [بإسرائيل] ست عشرة مرة ، أربعاً منها فى البقرة وثلاثاً فى يوسف ومرتين فى مريم كما ذكر فى موضع واحد فى آل عمران والنساء والأنعام وهود والأنبياء والعنكبوت وص .

وقد كان طبيعياً أن يظفر اسم [موسى] عليه السلام ، بالنصيب الأكبر من الذكر والتكرار ، ذلك لأنه نبي اليهودية الذى أنزلت عليه التوراة ، وقد كان أتباعه فى المدينة خصوم نبى الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، المطبوعين على حب الجدل ، والذين ركبت فى نفوسهم ، شدة الخصام ، واللدد والعداوة ، ولهذا انصرف أكثر جهد الرسول فى الرد على ما يقيمه يهود المدينة من حجج ضد الدين الجديد ، وما يروجونه بين العرب فى المدينة ومكة وما حولهما من مفتريات ، وما يبعثون به إلى الرسول

من أسئلة لا يقصدون منها إلا المكايدة ، وإظهار عجز الرسول ، وجهله بما سبق من أديان ، وما وقع للرسل من أحداث ، ما كان فى الأيام الخالية من كبريات الوقائع . ولهذا كان طبيعياً أن يمتلئ القرآن الكريم بالآيات التى تروى تاريخ أنبياء بنى إسرائيل ، بما يتفق مع العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد ، وعلى تنزيه الله سبحانه وتعالى من كل شبهة من شبه الشرك أو الوثنية أو الضعف الإنسانى ، وكان مقتضى هذه المعارك الفكرية أن يرد اسم نبي اليهود موسى عليه السلام . وقد بلغت المواضع التى ذكر فيها اسم موسى فى القـرآن نحو مائة وسبعة وثلاثين . منها ثمانية عشر موضعاً فى سورة القصص ، وسبعة عشر موضعاً فى سورة طه وواحد وعشرون موضعاً فى سورة الأعراف وأربعة عشر موضعاً فى سورة البقرة ، وثمانية فى سورة الشعراء وسبعة فى سورة غافر .

وكاد ما ذكر عن موسى عليه السلام فى هذه المواضع جميعاً ، يكون قصة كاملة عن حياة كليم الله منذ ولد ، حتى شب عن الطوق ، وبلغ أشده ، ثم ما تلا ذلك من هجرته لمصر ، وعودته إليهـا مـع أخيه هارون نبيين مرسـلين إلى فرعون مصر وآله ، يدعـوان إلى عبـادة التوحيد وبيان ما جرى بينهما وبينه من جدل ، حتى قادا بنى إسرائيل عبر البحر الأحمر إلى سيناء ، وما تبع ذلك من وقائع كبرى فى حياة اليهود ونبيهم وشعبهم وعودتهم إلى الوثنية وعبادة العجل . وهذا كله يمكن أن يكون قصة كاملة ، ذات بداية ونهاية ، لولا أنها لم ترد فى مكان واحد ، من كتاب الله الكريم ، ولولا أن كل موضع ورد فيه جزء منها ، لا يقوم بذاته كقصة . وهو ما سنعود إليه بإذن الله تعالى .

ولما كان لداود وابنه سليمان عليهما السلام دور كبير فى إنشاء دولة بنى إسرائيل ، فقد ذكرهما القرآن الكريم ، وأورد نبأهما ، بما يتفق مع الواقع من جهة ومع تفسير العقيدة الإسلامية ، لأحداث التاريخ . وقد ورد اسم داود فى ستة عشر موضعا فى سور البقرة والنساء والمائدة والأنعام والإسراء والأنبياء والنحل وسبأ وص . كما ورد ذكر سليمان فى ست عشرة مرة فى البقرة والنساء والأنعام والأنبياء وفى سبع آيات من سورة النمل ثم فى سبأ وفى موضعين من [ص] .

ولما كان للمسيحيين مراكز نفوذ فى الجزيرة العربية ، ولا سيما فى نجران ، وكان أحبارهم ورهبانهم يمرون بمكة ، أو يترددون عليها ، كذلك رهبانهم فى أديرتهم الواقعة فى طريق تجارة أهل مكة والمدينة إلى الشام واليمن ، قد سمعوا بالدين الجديد . وخشوا أن يستميل بعض المسيحيين ويدخلهم فى المؤمنين به ، فقد نهضوا يناقشون نبى الدين الجديد ، ويجادلونه ، ويسوقون إليه الأسئلة ، وإن كانوا فى الجملة ، أقل ضراوة فى الخصومة ، والعنف منهما فى المنافسة ، فقد استتبع ذلك كله ، أن ينزل فى الخلاف بين هؤلاء المسيحيين وبين الإسلام قرآن ، وأن يتضمن هذا القرآن ذكراً لنبي المسيحيين عيسى ابن مريم عليه السلام ولأمه مريم البتول ، ولابن اختها الذى مهد لظهور المسيح يحيي المسمى فى الإنجيل يوحنا المعمدان ، ولزوج اختها الذى كفلها زكريا .

قد ورد اسم المسيح أو عيسى ابن مريم فى ثلاث عشرة سورة هى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والتوبة ومريم والمؤمنون والأحزاب والشورى والزخرف والحديد والصف ، وكان مجموع الآيات التى ذكر فيها

اسمه ثلاثاً وثلاثين ، ذكر فيها اسم المسيح إحدى عشر مرة وعيسى خمساً وعشرين ، وابن مريم ثلاثاً وعشرين .

ولكن القرآن قد ذكر إلى جانب أسماء أنبياء اليهودية والمسيحية ، أنبياء ، اكتفى بذكر القليل من وقائع جهادهم فى سبيل عقيدة التوحيد ، ومقاومة أهل الشرك ، ومناهضه دعاة الفساد ، من هؤلاء ، يونس عليه السلام الذى ذكر اسمه أربع مرات فى سور النساء والأنعام ويونس والصافات ، كما ذكر بوصفه فى سورة الأنبياء . وإدريس عليه السلام ، والمقول إن إدريس ابن يارد بن مهلاتيل بن قبان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام . وقد ورد اسمه فى التوراة باسم خنوح أو أخنوح . وقد اكتفى القرآن الكريم بقوله تعالى ، واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياًّ ورفعناه مكاناً علياًّ .

كما ذكر إسماعيل بن إبراهيم جد نبى الإسلام الأعلى ، وأبو العرب المستعربة أو العدنانيين ، وقد وردت حكاية الرؤيا التى رأى فيها إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل ، وكيف هم بتنفيذ ما رآه فى منامه ، باعتباره أمراً من الله لنبيه بتضحية ابنه ، ثم افتداء إسماعيل الذبيح بفدية هى ذبح عظيم ، كما ورد فى سورة الصافات « رب هب لى من الصالحين.فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين.وفديناه بذبح عظيم » .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات ذكرت فيها أسماء الأنبياء والرسل بغير تفصيل من ذلك ما جاء فى سورة البقرة : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

وفى سورة آل عمران : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » وفى السورة نفسها : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » وفى سورة الأنبياء : « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » .

وقد يجمل بنا بعد أن أوردنا ، الإطار الخارجى للبحث ، أن نقول كلمة فى القصة وماذا تكون ، ليكون العلم بالقصة وعناصرها معياراً لنا ، فيما سنجريه من القول ، فى القصة القرآنية من جهة ، وأنباء الرسل ، وأنباء الغيب ، وأحاديث الأنبياء من جهة أخرى .

والقصة من غير خوض فى المذاهب الأدبية المختلفة ، ولا سيما ما كان منها حديثاً ، هى فى الواقع ،كلام يروى واقعة أو وقائع ، متعلق أساساً بأشخاص ، فى الأعم من الأمور ، أكثر من شخص ، وهى واقعة قابلة بطبيعتها للنمو ، وبمقدار نموها ، تستكمل القصة أكبر عناصرها ، وأكثرها حيوية ، وكلما كان نموها ، قادراً على تشويق سامعها أو قارئها ، ومفاجأته بالجديد فيها ، كانت القصة أعظم حظا من النجاح . وعلى الرغم من أن القصة ، تصدر عن شخص ، لأشخاص يسمعونها ، أو يقرءونها ، وأن غاية القاص ، متحدثاً أو كاتباً ، أن يؤثر فيهم ، وأن يثير انتباههم ، إلا أنه يجب ألا يظهر فى رواية وقائع القصة ، وألا تكون بياناً لرأيه ، وإلا استحالت إلى مقال أو تقرير أو تلقين ، وفقدت بذلك أكبر خصائصها ، وهى مجرد

سرد الوقائع ، وكأنها مقصودة لذاتها . والأصل فى القصة أن تروى للناس أمراً لا يعرفونه ، أو لا يعرفونه كله ، أو يعرفونه ولكن لا يعرفون أبطاله ، وأيامه ، فالقصة تفقد أكبر خصائصها لو روت حدثاً معروفاً بتفاصيله للسامعين ، إلا أن يكون أسلوب روايته ، هو الجديد فى القصة ، وليس هناك ما يمنع أن يكون للقصة غاية أدبية ، يتغاياها ، راويها ، أو واضعها ، ولكن يجب أن تخفى هذه الغاية ، حتى تبدو القصة وكأنها ، تساق لذاتها ، وأنه لا غرض لمن يقصها ، غير إبلاغهم بوقائعها ، وأطرافهم بأحداثها .

والقصة التى تخلو من الوقائع ، تبرد وتتفه عند السامع ، ويضعف نشاطه لمتابعتها ، ولكن كثرة حوادثها ، قد يقضى عليها ، ويصرف الناس عنها ، لأن القصة يجب أن تكون فى المتناول بلا إجهاد للعقل ، ولا تركيز شديد فى الفكر .

والتشويق والمتعة عنصران جوهريان فى القصة ، ولكن إذا زادا عن الحد ، فقدت القصة ، ما يثيره من اهتمام واستقر فى نفس سامعها أو قارئها ، أن صاحبها ، لا يريد أن يروى له شيئا يستحق الاهتمام والمتابعة ، وإنما يبغى فقط العبث به ، أو الخوف فقط من إملاله ، غير محترم ، لعقله .

فهل فيما تعارفنا على تسميته بقصص الأنبياء ، أو بالقصص القرآنى ، شيء من خصائص القصة الحديثة أو حتى القديمة .

لقد مر بنا الحديث الذى رواه ابن عباس ، والذى قال فيه إن أصحاب رسول الله ، قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا قال تنزلت نحن نقص عليك أحسن القصص .

والحديث الذى رواه عن عوف بن عبد الله ، فقال : مل أصحاب

رسول الله ملة ، فقالوا يا رسول الله حدثنا ، فأنزل الله تعالى « الله نزل أحسن الحديث » ثم ملوا ملة أخرى فقالوا يا رسول الله ، حدثنا فوق الحديث ودون القرآن يعنون القصص ، فأنزل الله : « نحن نقص عليك أحسن القصص » .

كما مر بنا أن البخارى رضى الله عنه ، قال عن هذا الحديث الأخير منكر الحديث وقد صدق البخارى فى حكمه ، فليس فى القرآن ما نزل ، ليذهب عن الناس السأم ، ويسرى عنهم ، وما يلتمس فيه المتعة التى يلتمسها الفارغون ، والتى يسميها القرآن : [لهو الحديث] .

فماذا يكون إذن فيما نسميه قصص الأنبياء من خصائص القصة ؟

* * *

ذكر أنبياء الله ، عليهم الصلاة والسلام ، بأسمائهم أو بصفاتهم ، وحدهم حيناً ، كما ذكرت أسماؤهم وجهادهم فى سبيل عقيدة التوحيد ، أحياناً ، فى أربع وأربعين سورة من سور القرآن التى بلغت عدتها أربع عشرة سورة ومائة ، موزعة ، كما هو معلوم للكافة ، على ثلاثين جزءاً . ولم يخل جزء من أجزاء القرآن ، من هذه الأسماء الكريمة ، ومن أعمال أصحابها ، الذين اصطفاهم الله تعالى لأداء رسالاته .

ومن هذه السور ، ما هو مكى ، وما هو مدنى ، وهذه السور المدنية عدتها أربع عشرة ، فى حين أن عدد السور المكية ، هو ثلاثون ، ومع ذلك ، فإن المواضع التى وردت فى السور المدنية ، واشتملت على أسماء الرسل ، وأنبائهم ، وأحاديثهم ، وقصصهم ، أكثر بكثير من المواضع

التى ورد فيها هذا الذكر ، فى السور المكية ، فكثير من هذه السور المكية ، اقتصر فيها على ذكر اسم النبى ، أو اسمه مقروناً بألفاظ قليلة تتضمن الثناء عليه ، ففى الجزء الثلاثين مثلا ، المعروف عند عامة المسلمين بجزء [عم] لابتدائه بسورة تبدأ بقول الله تعالى « عم يتساءلون.عن النبأ العظيم » لا يذكر من أنبياء الله سوى إبراهيم وموسى فى موضعين فقط : فى النازعات ، جاء ذكر [موسى] عليه السلام : « هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون أنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى » .

وفى سورة الأعلى : « إن هذا لفى الصحف الأولى.صحف إبراهيم وموسى » .

ولكن الثابت أن أنباء الرسل عليهم الصلاة والسلام ، جاءت فى السور المكية والسور المدنية على السواء ، مما يدحض قول المستشرقين من أهل الغرب ، الذى طووا صدرهم ، ولا يزال يطوونه على كراهية متأججة للإسلام ورسول الإسلام ، وقرآن الإسلام ، من أن القسم المكى من القرآن سكت عن هذا الذكر ، لأن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم ير حاجة إلى سوق قصص أنبياء اليهود ، نقلاً عن التوراة ، إلا حينما جاور اليهود فى المدينة ، فأحوجه هذا الجوار ، الذى انتقل من المصافاة إلى المهادنة ، إلى الجدل القولى ، إلى الحرب المشهرة ، والقتال المرير ، إلى الاستعانة بقصص أنبياء بنى إسرائيل ، والاستشهاد بها ، والثناء عليهم ، وإظهار فضلهم ، والانتساب إليهم ، للتقرب إلى اليهود ، فلما لم ينفع

هذا فى كسب مودة اليهود ، أو كف أذاهم ، دخل معهم فى حوار ، يثبت به أن الله يوحى له من هذه الأنباء ، ما يدل على أن نبى الإسلام يوحى إليه ، بما لا يعرفه ، من أنباء هذا التاريخ المغيب ، والذى لا يعلمه إلا أهل الكتاب ، أو من يقرءون ويكتبون ومحمد أمى ، لا يقرأ ولا يكتب ، ثم انتقل فى آخر مراحل الصراع من الإسلام واليهودية ، إلى إيراد هذه الأنباء المذكورة فى التوراة ، بالأسلوب الإسلامى ، لتتضح الفوارق العقلية والروحية ، بين ما جاء به القرآن ، وما صارت إليه كتب اليهود فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وليؤكد أن عقيدة التوحيد ، تظهر فى كل ما يقوله ، وما يفعله المسلمون ، حتى فى قصص الأنبياء وأنبائهم وأنباء جهادهم .

ولعل سورة [يوسف] المكية أقوى رد على المستشرقين الأوربيين من إنجليز وفرنسيين وهولنديين وألمان ، ومنهم المسيحى ، ومنهم اليهودى ، الذين يذهبون إلى أن القصص القرآنى ، لم يأت بياناً للعقيدة الإسلامية ، ولا إبرازاً للنظرة الإسلامية ، إلى حياة الرسل والأنبياء وجهادهم وعلاقتهم بأقوامهم المباينة للنظرة التى تبنتها كتب اليهود والمسيحيين ، التى يقرءونها ويتداولونها ، الآن ، وإنما كان رداً سياسياً بحتاً ، من محمد صلى الله عليه وسلم ، على ما كان يلقاه من جدل أهل الكتاب فى المدينة من اليهود والمسيحيين ، التى كانت تضيق عليه الخناق حيناً ، والتى كانت تمطره أحياناً بالأسئلة إحراجاً له ، أمام المؤمنين به ، بقصد إثبات إما جهله ، وإما فساد ما يذهب إليه من بطلان عقيدتهم . فسورة يوسف هى سورة مكية كما قلنا ، وهى قصة القرآن الكاملة التى اجتمعت فى سورة برأسها ،

والتى خلت تقريباً من الجدل مع اليهود والمسيحيين ، على السواء ، والتى راحت آياتها البينات جميعاً تشيد بيعقوب وابنه يوسف وآبائهما إبراهيم وإسحق ودعوتهم إلى الدين القويم ، دين التوحيد ، ودين العمل الصالح ، والبعث والحساب والجزاء . ومثال ذلك قول الله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام وآبائه وأجداده : « وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث : ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل : إبراهيم وإسحق » وقوله تبارك وتعالى : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث » « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » .

ثم قوله عز وعلا على لسان يوسف « إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة ، هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » وقد ختمت قصة يوسف ، عليه السلام فى السورة التى سميت باسمه ، بما هو جوهر وغاية كل قصة قرآنية ، أى الدعوة للواحد الأحد ، وإن العافية للصالحين ، المحسنين ، فى الدار الآخرة ، التى هى المثل الأعلى ، التى يجزى فيها العمل الصالح ، وينعم فيها المتقون ، بالباقيات من الذكر الطيب ، وسكينة النفس ، وسعادة الإخاء وطهارة القلب من الغل والحقد والحسد : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » .

وإذا كانت الأنبياء قد ذكرت فى أربع وأربعين سورة من القرآن ، وأن هذه السور ، وزعت على أجزاء القرآن كله ، فإن لذلك التوزيع دلالة واضحة ، وهى أن القرآن اتخذ من أنباء الرسل ، وأحاديثهم ، وسيلة لبيان أغراض القرآن ، فهو لا يستغنى عنها ، فى بسط مقاصده ، وتقريبها للأفهام ، وإذا كان قد كرر أسماء رسل بعينهم ، وأبدأ القول وأعاده ، فيما جرى بينهم وبين أقوامهم ، فهذا التكرار ، لا يأتى فقط ، لتثبيت المعنى الذى يهدف إليه كتاب الله ، فى أذهان قارئيه وسامعيه ودارسيه ، والهادين والداعين إليه ، وإنما يتغيا من هذا التكرار ، أن تصبح هذه الأسماء مألوفة عند المسلم ، حتى يتداعى لها فى نفس الإنسان بمجرد سماع الاسم المعانى التى اتصلت به ، والتى جاء بها القرآن ، فنحن لطول ما كررنا اسم الله العظيم ، فى الصلاة والدعاء والحديث ، والرواية والجدل ، والتلقين والتعلم يسهل علينا نطقه ، وذهن الواحد منا شارد ، وقلبه مشغول ، ولكن الاسم يفعل فعله فى أعماق النفس ، والنفس لا تدرى ، كذلك يحدث فى سمع الإنسان وعقله ، كل اسم كثر ترداده ، واقتران بمعان لا تفارقه ولا يفارقها ، كأسماء الرسل ، وأسماء المعانى المجردة ، من حب وخير ، وعدل وظلم ، وسواد وبياض ، كذلك أصبحت أسماء صالح وهود ونوح ولوط ، وإبراهيم وموسى ، عناوين لمعانى ومبادئ يستحضرها الذهن بمجرد نطقها ، فى حين لو تعددت هذه الأسماء ، بالإضافة إليها ، وملء آيات القرآن بالأحداث العديدة ، أو التفريع عليها ، لتداخل بعضها فى بعض ، ولبهتت معانيها ، ولاحتاج الإنسان البسيط الذى جاء كتاب الله ليعلمه ويهديه ويأخذ بيده أن يجهد ذهنه ، فى التفريق بين هذا

النبي وذاك ، وما جرى لأولهما دون ثانيهما ، ولأعيته محاولة استيعاب الوقائع وحفظها واستظهارها والاستشهاد بها ، فى حين أن هذا التكرار الواضح ، وهذا التبسيط الذاهب إلى أقصى غاياته ، مكنت الفلاح ، وهو يخوض فى وحل الغيط ، متحدثاً إلى صاحبه أو صاحبته ، أن يستشهد بشيء من أقوال أو وقائع حياة نوح أو لوط ، أو قصة زوجتيهما وهكذا . .

وإذا كانت سور القرآن الأربع والأربعون التى اشتملت على أسماء الرسل ، وأحاديثهم وأنبائهم ، قد توزعتها أجزاؤه جميعاً على وجه التقريب فإن هذه السور لا تتساوى من حيث احتواء عدد المواضع التى وردت فيها هذه الأنباء والأحاديث ، فأكثر هذه السور نصيباً من هذا الذكر ، الأنبياء فقد بلغ عدد المرات التى ورد فيها هذا الذكر عشراً ، فى حين كان هذا العدد تسعاً فى كل من البقرة والأنعام وثمانى فى النساء ، وسبعاً فى هود و ص وستاً فى آل عمران ، وخمساً فى مريم ، وثلاثاً فى المائدة والإسراء والتوبة وإبراهيم والأحزاب واثنتين فى طه . ويمكنك أن تتعقب هذه المواضع فى باقى السور ، التى جاء فيها هذا البيان ، ونحن نورد هنا أسماء جميع السور التى ورد فيها ذكر للأنبياء فهى :

البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة والأنعام والأعراف والتوبة ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والفرقان والشعراء والنمل والعنكبوت والأحزاب وسبأ وفاطر ، ويس ، والصافات وغافر و ص والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف و ق والذاريات والنجم والقمر والحديد والممتحنة والصف والتحريم ونوح والأعلى .

ومن اليسير أن نفهم كيف خلت سور الأنفال والفتح ومحمد والحجرات من الإشارة إلى أخبار الرسل مع أن سورة الأنفال تقع بين سورتى الأعراف والتوبة ، فى كلتا السورتين مواضع غير قليلة ذكر فيها الأنبياء وذكرت أخبارهم ، بلغت فى الأعراف سبعة مواقع ، فالأنفال سورة لها موضوع شمل آياتها جميعاً ، فهى سورة تشرع للحرب وأحكامها ، وللقتال وظروفه المادية والمعنوية ، من الثبات عند البأس واحترام أوامر الرسول ، أو النهى عن الانشغال بالغنائم ، وبقوة المسلمين بفضل إيمانهم إلى المشركين نتيجة لكفرهم ، واهتمامهم بالدنيا دون ما يعلو عليها ، ويسمو فوقها من المثل العليا والباقيات الصالحات عند الله ، ثم حكم الغنائم وطريقة توزيعها ، وما جرى فى موقعة بدر ، وما وعد الله به المؤمنين من التأييد الإلهى ، إذا صبروا وثبتوا ، وكل هذا ، ينطوى فى ذاته على الأمثلة الواقعية وما يعرفه المسلمون أنفسهم وما شاهدوه مشاهدة العيان ، مما يغنى عن الأمثلة المستفادة من أنباء الماضى ، ومع ذلك فقد وردت فى هذه السورة إشارة إلى ما كان من آل فرعون دون ذكر موسى عليه السلام فقال الله تعالى : كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب » وقوله عز وعلا : كدأب آل فرعون ، والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين » .

والسور الثلاث : الفتح ومحمد والحجرات ، استقلت كل واحدة منها بموضوع متكامل ، أورد الله فيه أحكاماً تشريعية ، أو بياناً لواقعة ، ذات أهمية وخطر فى حياة المسلمين ، عاصروها ، وعرفوا بدايتها ، ونهايتها ،

فسورة محمد ، تكاد تكون امتداداً لسورة الأنفال ، ومن حيث كونهما معاً وعاء لأحكام الحرب ، والأسرى ، وهى كسورة الأنفال من جهة ، وكسورة الفتح من جهة أخرى من أقصر السور التى هى بين الطويلة ، كالبقرة أو قصيرة كسورة الجزءين الأخيرين التاسع والعشرين والثلاثين .
وإذا كانت سورة محمد تعرف عند بعض المفسرين بسورة القتال لقول الله تعالى فيها : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء » ، فإن سورة الفتح ، جاءت مقصورة تقريباً على واقعة صلح [الحديبية] الذى كان أكبر انتصارات المسلمين غير العسكرية ، وإن كان السر فى هذا الانتصار ، هو قوة المسلمين الحربية التى بدت فى الأفق ، واضحة جلية ، لمشركى مكة ، وزعماء كفارها ، مما يؤيد فى كل زمان ومكان ، إن أعداء السلام ، والخارجين عليه ، والمتجرين بالحرب والملوحين بها ، لا يردهم إلى السلام ، ويحملهم على النزول على مقتضياته ، إلا الخوف من الهزيمة ، واليأس من النصر . وقد روت سورة الفتح ، ما جرى فى الحديبية ، ومقدماتها وخواتيمها ، فاستغنت بذاتها عن الأمثلة الخارجية عنها ، والتى ألف القرآن أن يضربها للناس ، لينبه نفوسهم ، ويحرك عقولهم .

أما سورة الحجرات فقد دار كلام الله تعالى فيها أساساً حول تحذير المسلمين من الخوض فى الأعراض ، ولذلك لم يأذن المقام بإيراد أنباء الرسل فيها ، ولكن السور الثلاث كانت محصورة بين سورتى الأحقاف ، و ق وفى كلتا السورتين إشارات إلى أنبياء الله ، فى الأحقاف جاء قول الله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » وفى سورة ق « كذبت

قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد ، وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد » .

ويحسن أن نورد هنا أمثلة من الآيات التى وردت فى شأن كل نبى من أنبياء الله ، عليهم السلام ، دون أن تتضمن واقعة ، ولا حتى مجرد نبأ ، لنستبعد هذه الآيات من بحثنا باعتبار أن هذه الآيات الكريمة ناطقة بذاتها بانقطاع صلتها تماماً بالقصة أو ما يشبه القصة .

ولنبدأ بأبى البشر ، وأبى الأنبياء آدم عليه السلام ، ففى آل عمران ، آيتان : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

وفى سورة الأعراف « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين » « يا بنى آدم ، إما يأتينكم رسل منكم ، يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ، ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة ، إنا كنا عن هذا غافلين » .

وفى الإسراء « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وفى شأن نوح عليه السلام : ورد فى آل عمران قول الله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » .

وفى سورة الأعراف فى سياق ما جرى من جدال بين هود وقومه : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة »

وفى سورة إبراهيم « ألم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم » .

أما إدريس عليه السلام ، فقد ذكر مرتين ، إحداهما فى سورة مريم ، إذ قال الله تعالى عنه عليه السلام : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيًّا » وفى سورة الأنبياء ، فى سياق ذكر عدد من أنبياء الله : « واسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » .

وعن إبراهيم الخليل عليه السلام ، قال الله تعالى فى سورة البقرة : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » كما قال عز وتبارك : « أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ؟ » وفى سورة آل عمران : « ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين » فقال : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » .

وعن موسى عليه السلام ، جاء فى سورة البقرة : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » « قولوا آمنا بالله وما أنزل

إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » وفى سورة الأنعام : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » وفى سورة المؤمنون : « ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون » .

وعن عيسى عليه السلام جاء فى سورة البقرة : « وآتيناعيسى ابن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس » « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى » وفى سورة آل عمران « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » وفى سورة النساء « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب » وفى السورة نفسها : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله » وفى سورة المائدة « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » .

وتجد مثل هذه الآيات عن إسماعيل وإسحق ويعقوب وزكريا ويحيى وهود وصالح وشعيب ، وهى تختلف موضعاً من القرآن ، وصياغة ، كما تتباين أهداف الكلام المباشر بشأنها فى سورة عن سورة ولكن الهدف البعيد من كل ذكرها جميعاً والاستشهاد بها ، هو تزكية أنبياء الله ، وحسن أدائهم للرسالات التى اصطفاهم ربهم لها ، وصبرهم على أذى الكافرين بها ، وسعة صدورهم ، وطول صبرهم ، وعفوهم عن قومهم ، ونصر الله لهم ، وللعقيدة التى علموها للناس ودعوهم لها : دعوة التوحيد والبعث وحسن

مثوبة العاملين الصالحين ، وسوء عقبى الكافرين .

وربما تجدنا أسرفنا نوعاً فى إيراد هذه الأمثلة ، ولكن كانت الغاية من ذلك بيان أمرين :

أولها : أن أسماء الرسل لا تأتى فى القرآن الكريم مغلفة فى سياق قصص أو أنباء أو أحاديث وإنما تأتى مجردة من كل هذا ، فى مواضع من كتاب الله العظيم .

والأمر الثانى : أن لذكر هذه الأسماء ، إن قصرت الآية وقلت ألفاظها وخلت من الوقائع ، أو إن طالت ، وامتلأت بالحوادث ، غاية واحدة لا تتغير ، هى بسط العقيدة وتقريبها إلى أذواق وأفهام الناس الذين دعوا للدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . فليست المتعة ولا التسرية على الناس أو الدخول فى منافسة مع أحاديث وأسماء أمثال النضر بن الحارث الذى سافر إلى بلاد العجم ، وعاد وقد امتلأت جعبته بطرائف أخبار [رستم] و[سفنيديار] وإلا لما جرى القرآن على نهج التكرار ، وإبداء القول وإعادته ، فى وقائع محددة ، وأكثرها بسيط ، لا يتعقد ، ولا يتداخل بعضه فى بعض ، ليثير شوق السامع إلى فك عقده والخلوص به إلى نتيجة يطمئن إليها ، شأنه عند سماع النوادر ، والطرائف والغرائب .

وأحاديث القرآن الكريم عن الأنبياء والرسل ، وأنبائهم ، وأنباء الغيب ، تتسم جميعاً – على ما سنبين بإذن الله – بأمور ، وخصائص ، تباعد بينها وبين القصص على الوجه الذى تعارف الناس عليه قبل القرآن وبعده ، فى العهد القديم ، وفى أيامنا من أول هذه السمات :

أولاً : التكرار ، وقد سلفت إليه الإشارة ، والتكرار يسلب الحكاية ،

أو الرواية ، أكبر عناصرها ، وهو التشويق ، ومفاجأة السامع أو القارئ . بأحداث ووقائع لم يكن يتوقعها ، فإذا عرفت سلفاً ، فقدت عنده ، عنصر الجدة ، ولم تحرك شوقه إلى تبين ما ستأتى به باقى وقائعها .

وقد يقول قائل ، وأنّى لحكايات وأنباء ، كتاب أراد الله له أن يبقى مقروءاً ومسموعاً على مدى القرون ، أن تنطوى على المفاجأة والجدة ، وهى معروفة سلفاً ، يقرؤها الناس اليوم وغداً ، وفى الشباب والمشيب؟ والرد على ذلك ، أنه سيبقى فى الملايين التى ستقرأ القرآن ممن يتم لهم سماع كل قصصه وأنبائه ، وهؤلاء ، سيحسون بالجدة والمفاجأة ، إذا كانت القصة قد أريد لها منذ البداية أن تترك هذا الأثر ، وإذا صيغت القصة ، على وجه يحرك الشوق ، زاد فيها عنصر المفاجأة ، والغرابة ، وقعا فى السمع والنفس ، إعجاباً ، بقريحة صانع هذه الطرائف وتناول الناس قصها وإطراف وإمتاع أصدقائهم ، بذكر وقائعها ، فتمثيليات شكسبير وروايات « دكنز » وبلزاك ، وجيته ، تسمع وتشاهد وتقرأ ، وتبقى جديدة ، لجمال صنعتها . وقد تسامى القرآن وتسامت أنباؤه وقصصه عن هذا كله ، لأنها إن احتوته ، أصبحت قصة ممتعة ، وتذوق الناس طرافتها ، وغابت تماماً عنهم حكمتها ، وقد عوض القرآن هذا العنصر ، بأسلوب القرآن وأحكامه ، وحلاوة ألفاظه ، ورنين مقاطعه .

الأمر الثانى : تقطيع القصة أو الحكاية الواحدة ، وعدم الوصول بها إلى خاتمتها ، فقصة موسى وقصة آدم ، مع الملائكة وإبليس ، ترد فى القرآن أجزاء ، ولو اتصلت هذه الأجزاء فى موضع واحد ، لكملت قصته ، ولتوافر لها عنصر المفاجأة والتشويق ، وإن كان هذا العنصر بادياً فى هذه

الأجزاء الموزعة ، على مواضع مختلفة فى القرآن . ولكن يريد القرآن أن يعلن ويظهر للمسلمين وغيرهم ، أن الانشغال بما فيه من روايات وأنباء فى ذاتها ، والاحتفال بالنهايات والخواتيم ، تجعل القرآن كتاب قصص ، أشبه شيء بكتب بعض الأمم ، ككتب الهندوكين والبراهمة ، التى كانت أساساً [للميثلوجيا] الهندية ، وملاحم الإلياذة والأوديسا التى تعتبر نموذجاً عالياً للبلاغة الإغريقية ، والتى كانت أساس [الميثلوجيا اليونانية .

الأمر الثالث : ظهور القصة فى سياق السورة ، دون تمهيد لها ، والانتقال من القصة إلى غيرها ، دون تدرج ، فالقصة أو النبأ أو الحديث ، يأتى حتماً فى السورة أو لا يأتى ، كأنه فصل قائم بذاته فى السورة ، مستقل عنها ، يبدأ وحده ، وينتهى وحده ، بل إنها كلها ، تلتحم فى نسيج السورة ، التحاماً لا يأذن بالفصل بين بعضها البعض ، فهذه الأحاديث والأنباء جزء من بناء السورة ، ومن معانيها معاً ، لا تروى لذاتها ، ومن هنا يكون الانتقال إليها ، امتداداً للكلام الوارد قبلها ، ويكون الكلام امتداداً لها بعدها .

الأمر الرابع : أن أبطال قصص القرآن ، أو أنبائهم ، لا تتطور شخصياتهم ، من الصغر إلى الكبر ، فهم فى جميع أنبائهم ، رجال ناضجون يؤدون الرسالة التى اختارهم الله لها ، ولو ذكرت طفولة موسى وعيسى أو شباب إبراهيم ، عليهم السلام ، فلا تذكر هذه العهود لذاتها ، بل تذكر خدمة لدور النضوج واكتمال الرجولة ، فنوح وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وهود وعاد وإدريس ، تكاد تكون رموزاً لا أشخاصاً ، كلامهم فى جميع الموقف واحد ، ومواقف قومهم منهم واحدة ، وقولهم المتكرر اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . وقد سبق القول إننا إذا حذفنا اسم نبى من هؤلاء الأنبياء

ووضعنا مكانه غيره لاستقام القول ، ولما نبا جزء منه قط عن السياق .

ومع ذلك فإن فى سور القرآن ، من الوقائع التى تمر فى آياتها الكريمة مروراً سريعاً ، لا تستغرق منها إلا آية أو آيتين ، تحتوى على عناصر قصصية لا حدود لها ، تتفجر منها أساليب الإمتاع والتشويق ، وقرع الآذان ، وهز النفوس ، منها على سبيل المثال ، هذه القصة القصيرة ، التى وردت فى سورة القلم التى يسميها بعض المفسرين بسورة « ن » والتى تحكى ما كان من أصحاب الحديقة ، الذين خرجوا فى ظلام الليل ، قبيل الفجر ، ليحصدوا ثمارها ، خوف أن يشركهم فيها عمالهم الفقراء ، فإذا هى احترقت ، ولم يعد فيها ثمر يجنى ، ولا خير يرتقب ، عادوا إلى صوابهم ، وثابوا إلى رشدهم فآمنوا بربهم .

بعد هذه المقدمات يمكن أن نتناول جوهر القصة فى القرآن .

* * *

سبق لى أن قلت فى حديث عن القصص القرآنى . إنه لا يجمل بالمؤمنين بأن القرآن من عند الله ، وأنه كلام الخالق عز وعلا ، أن يشغل بالهم أن بعض ما جاء فى القرآن الكريم عن أنبياء الله ورسله ، لا صدى له ولا أثر ، فى كتب التاريخ ، المعاصرة لهؤلاء الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام . ذلك لأن التاريخ ليس سوى عمل إنسانى ، لا يعلو على التزييف والاصطناع والتلفيق ، والقصور والسهو وعدم الإحاطة . وأن التاريخ كما يقول علماؤه فى القديم والحديث عمل « انتقائى » أو « اختيارى » : وأن الانتقاء فيه مرده إلى مزاج ومعتقدات وظروف المؤرخ

الشخصية ، وظروف عصره السياسية والدينية . فليس كل ما جاء فى كتب التاريخ العظيمة ، التى درج الناس على الاعتماد عليها ، والرجوع إليها ، فى صدد العصور التى أرخت لها ، صحيحاً وصادقاً . وأولى الناس بمعرفة هذا ، والوثوق به المسلمون ، فإن تاريخ نبيهم عليه السلام وتاريخ دينهم ، هو وحده بين جميع الأديان السماوية ، وتاريخ أنبياء هذه الأديان ، التاريخ المحقق لا بالسنة فقط ، بل بالشهر واليوم وأحياناً بالساعة . ومع ذلك فإن كبار مؤرخى الإسلام ، قد اختلفوا فيما بينهم فى أشياء تتعلق بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، بل إن أقواله وأحاديثه عليه الصلاة والسلام ، لم تخل من وضع الوضاع ، وتلفيق ودس خصوم الإسلام من يهود ، ووثنيين وأعاجم من كل ملة وجنس . ولذلك قام علم مصطلح الحديث ، لغربلة هذه الأحاديث ثم نفى المصنوعة والموضوعة منها : لتخلص للمسلمين الأحاديث الصحيحة الثابتة .

ونحن نعلم أن التاريخ القديم فى كل حقبة وعصر منه ، هو تاريخ الملوك والوزراء ، والقادة والرؤساء ، فهو لا يحتفل فى قليل أو كثير ، بالحركات الدينية ، ولا بأصحاب الأفكار ، إلا أن يستفحل أمرها ، ويشتد ساعدها ، وتصبح قادرة على أن تخيف الحاكم ، أو تثل عرشه ، أو أن يعتنق مبادئها حاكم ويظلها بسلطانه ، ويحارب تحت لوائها ، ولذلك لا يستغرب أن يغمض هذا التاريخ الرسمى عينه عن بعض الرسل ، ولا سيما إذا كان البلد الذى بعثوا إليه ، لا يقع فى وسط العالم المعمور آنذاك ، بل كان على هامش دنيا الحضارة والتجارة ، والمال والسياسة ، كقوم صالح ، وشعيب وهود ، عليهم الصلاة والسلام ، وأنه لا يجمل بنا – وقد آمنا بالقرآن

وبصدقه وبصدق كل حرف فيه ، بوصفه كتاباً منزلاً من الله على نبيه المختار للرسالة ، والمبعوث للهداية أن يزعجنا أن يقول قائل إن كتب التاريخ قد خلت من كل شيء يؤيد ما جاء فى القرآن ، مثلاً من أن أبا الأنبياء إبراهيم الخليل قد جاء إلى الحجاز ، وأنه نبي البيت العتيق مع ولده إسماعيل ، خصوصاً إذا كان قائل هذا القول يهودياً ، ممن ينفسون على الإسلام ، المكانة التى تحققت له فى عهد نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أجلاهم عن ديارهم ، وأخرجهم فى عهد القيصر وفى عهد خليفته الثانى عمر رضى الله عنه ، من بلاد العرب . فإن هؤلاء قد عاشوا حياتهم يصنعون تاريخاً للإسلام وللمسلمين ، يحرمونهم فيه من كل فضل ، ويلصقون بهم كل منقصة وعيب .

وخلصت إلى القول بأن المؤمنين بالدين السماوى ، يغنيهم عن الحقيقة التاريخية ، التى هى فى كثير من الأحوال ، لا تمت إلى الحقيقة ، ولا تقوم عليهما ، « بالحقيقة الروحية » ، ولم أكن أظن أن تعبير « الحقيقة الروحية » اصطلاح يغمض على أحد ، بحيث يحتاج إلى شيء من البيان والتفسير . « فالحقيقة الروحية » ، هى حقيقة الدين كله ، وهو ما يؤمن به المتدينون ، والفرق بين هذه الحقيقة ، والحقيقة التى لا يعرف غير المتدينين سواها ، أن هؤلاء الأخيرين لا يعرفون من الحقيقة إلا أن تكون شيئاً من ثلاثة .

إما أن تكون ما يرونه رأى العين ، وما يسمعونه بآذانهم ، وما يلمسونه بأيديهم ، أى ما تقع عليه حواسهم ، وهو ما يسمى فى بعض العصور المتأخرة « بالمادية » . فكل ما يتجاوز « المادى » هو عند هؤلاء من كل

ملة ومذهب ، وفى كل عصر وزمان ، ضرب من الخرافة ، والهذيان لا يليق بالإنسان ، ولا يصلح أساساً لعلم ، ولا قاعدة لمعرفة .

وإما أن تكون مجموعة من الأوضاع ، تحقق مصلحتهم ، وتكسبهم مكانة أو مالاً أو جاهاً أو سلطة . فالإيمان بها والاطمئنان إليها ، هو تحقيق للمصلحة ، ودرء للخسارة المادية والأدبية الشخصيتين .

وإما أن تكون عقيدة موروثة عن الآباء والأجداد ، يتلقونها عنهم تعصباً لهم من جهة وإيثاراً للراحة ، وهرباً من الجهد ، من جهة أخرى .

أما المتدينون ، فعقيدتهم مستمدة من دينهم ، يؤمنون بما جاء به ، وما قام عليه ، وما يتفرع عن هذا الدين يأخذ حكمه ، وأول ما يتعلمونه من دينهم ، بأن هذا العالم ، ليس مادة بحتة ، فما الظاهر من هذا العالم ، ليس كل ما فيه ، إذ أن وراء هذا الظاهر ، باطناً ، سيجهد الإنسان جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، ليحيطوا به ، ويقفوا عليه ، يتعثرون ويضلون ، ويصيبون ويهتدون ، وهم فى اجتهادهم وخطئهم وصوابهم ، يلتمسون الهداية والتوجيه من أحكام دينهم . مستعينين بعقولهم وحواسهم من جهة ، وبوجدانهم وضمائرهم من جهة أخرى . ذلك لأن الحقائق عن هذا الكون ليست كلها مادية كما قلنا ، ومن هنا ، لا ينفع العقل وحده فى تحصيلها . فإلى جانب الحقيقة المادية حقيقة روحية ، ولو انعدمت هذه « الحقيقة الروحية » ، لما كان هناك دين ، ولما كان هناك متدينون إذ أن غاية الدين هو معرفة الله سبحانه وتعالى ، والله « لا تدركه الأبصار » ، « وليس كمثله شيء » وما يتفرع عن الإيمان بالله ، لابد له

من نفس الوسائل للوصول إليه ، والإيمان بالرسل وبالكتب وبالملائكة ، وبكل ما هو غيب ، ليس إيماناً عقلياً فحسب ولا يتم تحصيله بنفس الطريقة التي تتم بها معرفة الماديات ، ومن هنا كان إيماننا بوجود هؤلاء الرسل وبتاريخهم وبأعمالهم ، لا يصلح فى تحصيله ، ما نتبعه فى تحقيق تاريخ الملوك والأمراء وقادة الجيوش ، فتحقيق هذا التاريخ له قواعده المألوفة من البحث عن الوثائق وتمحيصها ومقابلة بعضها ببعض ، أما الإيمان بالرسل وأعمالهم ، فهو فرع من الإيمان بالله كما قلنا ، فلا يقدم ولا يؤخر عندنا أن يكون لمؤرخ عصر ما ، قد ذكر النبي الذى عاصره أو لم يذكره ، وإلا فسنصطدم بأن الكثير من تاريخ هؤلاء الرسل لم يثبت فى تاريخ ، ولكن يغنى عن أى تاريخ آخر ، ما جاء فى القرآن عنهم ، لأن القرآن عندنا ، فوق كل تشكيك وتكذيب . فوق أن تاريخ الرسل ، له دور يخالف تماماً فى الطبيعة والغاية ، تاريخ الدول بملوكها وأمرائها وقادة جيوشها ، ووزرائها وساستها . فهذا التاريخ قوامه تجميع الوقائع وترتيبها ، وتمحيصها وهو نفى الزائف أو الضعيف أو ما لا دليل عليه ، وأهم ما يعنى به التاريخ ، هو الواقعة واليوم الذى أجرت خلاله والمكان الذى وقعت فيه ، وشهود الواقعة ، وكلما كثرت التفاصيل والجزئيات ، اعتبر التاريخ وافياً والمؤرخ دقيقاً ، وكلما بان لهم طرف جديد ، أو عرف عنها شىء لم يقع عليه أحد من قبل ، هنأ البحاث والأساتذة أنفسهم . وكل هذا الجهد ، ممتنع فى تاريخ الأنبياء ، أو لا معنى له ، لأنه لا يغذى قلباً ولا يثبت إيماناً ، ولا يؤيد عقيدة . « فالحقيقة الروحية » هى مناط الاعتقاد الدينى ، لأنها مستكفية بذاتها ، لا تحتاج إلى شىء خارج عنها ، يؤيدها

ويثبتها . دليلها منها ، ودلالاتها مقصورة على مجال العقيدة ، لا يراد منها أن تكمل شيئا قبلها ، ولا أن تمهد لشيء بعدها ، فهي لا ينتظمها هذا التيار المتدفق من الوقائع التي نسميها « التاريخ » .

وفي القرآن الكريم العديد الذي يخطئه الحصر من الأمثلة والشواهد على الإيمان بهذه الحقيقة والكفر بها . وهي حينما يكمل الإيمان بما تحتويه تكون دليلا على أن الإيمان يعمر القلوب ، وأن الدين قد انتشر وانتصر ، وحينما ينحسر هذا الإيمان ، يكون ذلك دليلا على أن الكلمة لا تزال للكفر .

ومن الأمثلة الناطقة ، التي تملأ جوانب القرآن الكريم ، وتشيع في كثير من آياته ، هذه الآيات التي طالب فيها المشركون والكفار ، الأنبياء والرسل والأدلة المادية التي تثبت أنهم من عند الله ، فلم تكفهم الحجج العقلية التي ساقها الرسل ، ولا مشاهد الطبيعة وتقلباتها التي تدل على قدرة الله غير المحدودة على استخراج الحي من الميت ، وإيلاج الليل في النهار ، وإحياء الأرض الميتة وهكذا . . من ذلك قول الله تعالى في سورة الإسراء :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » .

وفي سورة البقرة .

« أوكالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال أنى يحيي هذه

الله بعد موتها ! فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ، قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحماً فلما تبين له ، قال أعلم أن الله على كل شىء قدير» .

وفى سورة سبأ :

« وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . أفترى على الله كذبا ، أم به جنة ، بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » .

كل هذه الآيات ، رينا الحقيقتين تواجه إحداهما الأخرى ، الحقيقة المادية ، التى تراها وتقع عليها وتتصل بها الحواس ، والحقيقة الروحية التى لا سبيل إلى الوصول إليها ، إلا بالتعالى عن المادة ، والنظر إلى ما وراءها ، وما فوقها ، والقصص القرآنى ، ولا سيما بما انطوى عليه من معجزات الأنبياء ، لا تؤمن به ، ولا تصدق بوقائعه . الطائفة التى لا تعرف إلا الحقيقة المادية ، أما الذين يستطيعون الوصول إلى « الحقيقة الروحية » ، ويطمئنون بها فأولئك لا يجدون صعوبة فى تصديق كل ما جاء به القرآن من أنباء الرسل وأحاديثهم بما فيها من حديث المعجزات ..

وهؤلاء أيضاً ، لا يهزيقينهم أن يقال لهم إن التاريخ المكتوب والمتداول ، لم يروشيئاً عن بعض الأنبياء ، أولم يروبعض ما جاء فى كتاب الله العزيز ، عن هؤلاء الأنبياء عليهم سلام الله وصلاته ، لأنهم وقد آمنوا ، بما يتجاوز الكتب والوثائق ، آمنوا بالله العظم ، وهم لم يروه ، وآمنوا بالبعث والجنة

والنار ، ولا سبيل إلى إثباتها إلا بالبينة التى هى جزء من الحقيقة الروحية ، وأكبر عناصرها أى الإيمان بالغيب. فإيمان هؤلاء لا يستمد ولا يعتمد على كتاب مؤرخ أو كتب مؤرخين ، ولا لوثائق أو حفريات ، وهم لا يتبعونها ، وإن سمعوا بها ، التفتوا إليها ، لا لتزيدهم إيماناً ، بل لأنهم فطروا على حب المعرفة والتماسها من مصادرها .

وأحسب أن ما عنيته بالحقيقة الروحية ، قد أصبح واضحا ، ولم يعد ثمة ما يدعو إلى التساؤل عنها ، وعلى وجه أخص ؛ التساؤل عنها بما يوحى بالتشكك فى بواعث التأمل فيها ، والإيمان بها معا .

ونحن – وإن كنا نكره كل مصادرة للبحث العلمى أو تضييق على الباحثين – إلا أننا لا نرى غناء أى غناء ، فى البحوث التاريخية التى يجريها بعض العلماء لتحقيق بعض شخصيات القصص القرآنى ، مهما حسنت النية ، وتوافرت وسائل البحث وأدواته ، فإن هذه البحوث فى الأغلب الأعم تقوم على الفرض ، وكثيراً ما يكون الفرض أبعد ما يكون عن الحقيقة وهذا الفرض يغرى المخالفين برده . وقد ينال الرسول الذى جعل تاريخه أو جانب من حياته ، موضوعا للتحقيق ، رذاذ من هذا الخلف العلمى ، وقد يغرى بعض ذوى الغرض ، أن يجهروا بمثل نظرية « وللتوراة والقرآن أن يحدثانا عن إبراهيم عليه السلام » التى سمعنا بها فى مصر فى منتصف العقد الثالث من هذا القرن ليخرجوا من هذا الأفكار إلى نسبة التلفيق والاصطناع إلى خاتم النبيين والرسل ، محمد صلى الله عليه وسلم .

وأنا بسبيل عرض المبحث الذى قام به العالم المسلم الهندى الكبير مولانا أبو الكلام أزاد ، وزير المعارف فى حكومة الهند وهو البحث الذى قام به

لإثبات أن « ذا القرنين » هو « قوروش » العاهل الفارسى العظيم ، سنرى كيف شرق وغرب ، وكلف نفسه من الجهد ما كلف ، ثم لم يكسب المسلم من هذا كله شيئا ، كما أن العلم بالقرآن لم يزد قيد أنملة ، بعد هذا المبحث الدقيق ، وقد صرفنا عن هذا الفرض فى هذا الموضع من الكتاب ، ما رأيناه ضرورياً من تفسير بعض الذى تمخض فى قولنا عن القصة القرآنية « الحقيقة القرآنية » .

بقى أن نقول كلمة موجزة ، عما سقناه فيما سبق من أن فى القرآن قصة واحدة ، هى قصة « يوسف » ، وأن ما عدا ذلك مما جاء من أنباء الرسل ، وأحاديثهم وأخبارهم ، ليس من قبيل القصص ، وإن كان ككل القرآن القمة فى الإعجاز . وأول ما يجب أن يقال فى هذا الصدد ، أن هذا الذى ذهبنا إليه ، ليس سوى اجتهاد ، وهو بلا شك يحتمل الخطأ والصواب ، ولا شك أيضاً فى أن قبوله ، قد يحتاج من القارئ بعض الجهد ، لأننا درجنا على أن نعتبر كل ما جاء فى القرآن من أنباء الغيب ، أو أنباء الرسل ، هو قصص . ولكن لا يجوز أن يصدنا هذا الذى درجنا عليه عن أن نسمع الحجة المعارضة له ، وأن نزنها ، فإن رجحت أخذنا بها ، وإلا فليس ثمة ما يحول دون القول بردها ، وعدم الأخذ بها .

وثانى ما يجب أن يقال هو أن القرآن الكريم ، لن ينقص من قدره ، عند الناس جميعاً ، أن تكون فيه قصة واحدة ، ولا يزيد من هذا القدر ، أنه يحتوى على عشرين قصة ، فمقام القرآن ومكانته فى القلوب والعقول معاً ، مردها أنه كله من عند الله ، وأنه كلام البارئ المصور ، سبحانه وتعالى . فالقرآن لم تعن له الجباه ، ويذعن له المؤمنون لأنه احتوى مائة وأربع عشرة سورة ، ولا لأنه يتكون من ثلاثين جزءاً ، فهذه كلها تفاصيل

تذكر كحقائق عنه ، وكلها لا تزيده ولا تنقصه .

والقصص فى ذاته ، ليس سوى ضرب من الكلام ، لا يعلو على غيره ، وفيه – ككل كلام الناس – الجيد ، وفيه الخبيث ، وفيه الحسن وفيه الردىء، فليس هو طقساً من طقوس الدين ولا نسكاً من مناسك العبادة .

وقد لا أحتاج أن أقول إننى أتناول كل هذه المباحث القرآنية ، وقلبى ملىء بالحب للقرآن الكريم ، والذهاب فى تقديسه وتنزيهه كل مذهب والإعجاب الذى أوفى على الغاية ، بكل سوره بل آياته ، بل ألفاظه ، وبعد ذلك ، فلست ممن يتهيبون مواطن الاجتهاد ، مستعداً لاحتمال ضرائبه ، مستعيناً فى كل ذلك بالله العظيم .

وهذا المبحث ، قد أعددت له أكثر من فصل ، ولكن لا بأس أن نجمله هنا فى بضعة سطور .

فأولى الحجج ، هو أنه لم يرد فى القرآن الكريم عند ذكر أى من أنبياء الله ، لفظ القصة أو القصص إلا فى سورة يوسف ، وعند بداية حكايته عليه السلام مع أبيه وإخوته . فقد قال الله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » ثم جاء فى آخر السورة ذاتها « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

أما فى المواطن الأخرى فقد استعمل القرآن الكريم ألفاظ « حديث ، وأحاديث ، وأنباء ونبأ ، وأخبار ، وذكر »

فعن موسى عليه السلام جاء فى سورة طه : « هل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا »

وفى النازعات : « هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى »

وفى القصص : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » .

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ الحديث وأحاديث ، فى صدد إبراهيم الخليل عليه السلام فى سورة الذاريات : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » ثم فى البروج عن فرعون وثمود : « هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود »

أما لفظ « نبأ » فى مواضع كثيرة عن أكثر الأنبياء ، ففى سورة المائدة « واتل عليهم نبأ ابنى آدم إذ قربا قربانا » وفى سورة الأنعام : « ولقد جاءك من نبأ المرسلين » ، وفى التوبة : « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود » وقد جاء أيضاً : « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى » وفى سورة إبراهيم : ألم يأتيكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود » وفى الشعراء « واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » وفى سورة ص : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » .

وجاء لفظ أنباء فى أكثر من موضع ، من ذلك فى سورة آل عمران « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » وفى سورة هود « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك » وفى سورة هود أيضاً : ذلك من أنباء القرى نقصه عليك » وفى سورة هود كذلك : وكلا نقص عليك من أنباء الرسل » وفى سورة يوسف : ذلك من أنباء الغيب » وفى الأعراف : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها » .

فكيف اتفق أن الحديث عن جميع الأنبياء – فيما عدا يوسف عليه

السلام – فى جميع المواضع من القرآن الكريم ، قد خلا من لفظة « القصص » ، فى حين أن هذا اللفظ « فى سورة يوسف » عند افتتاح الحديث عن حكايته عليه السلام ، وفى ختام السورة .

ثم كيف نعلل الظواهر الثلاث الآتية :

إن قصة يوسف عليه السلام ، استأثرت وحدها دون غيرها ، بسورة قائمة برأسها ، فى حين أنتثرت أنباء جميع الرسل الآخرين فى العديد من المواضع من القرآن الكريم وتوزعت على الكثير من السور .

إن يوسف عليه السلام لم يذكر شىء من أنبائه فى غير سورته ، وإن ورد اسمه فى موضع أو موضعين من القرآن ، دون أن يقترن بشىء من وقائع حياته .

إن سورة يوسف كادت تخلو خلواً تاماً من اسم أى نبى سواه ، وما ذكر شىء من وقائع جهاد الأنبياء الآخرين وما جرى بينهم وبين قومهم .

وهذه السورة التى اجتمعت فيها هذه الخصائص الثلاثة الملفتة حقاً للنظر ، هى وحدها التى استفتحت بلفظ القصص ، وختمت بهذا اللفظ .

أليس هذا كله دالاً على أن القصة التى وردت فى القرآن ، هى قصة يوسف ، وأن ما عداها إنما كان أحاديث عن الرسل ، أو أنباء من أنبائهم ، ولا يمنع أن يستعمل لفظ قص « بصيغة الماضى » وقص « بصيغة الأمر » فى صدد حكاية أو سرد أو ذكر الأنباء عن الرسل أو عن غيرهم ، كأن تقول قص النبأ أى اتله واذكره ، فالقص أصلا ، هو تتبع الشىء إلى أصله ومن ذلك قول الله تعالى فى سورة القصص : « وقالت لأخته قصيه » أى قالت أم موسى لأخته تتبعى أثره .

وكذلك جاء فى القرآن لفظ اقصص فى مواضع مختلفة منها فى سورة يوسف : « قال يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك » وفى سورة النحل « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك » . وفى سورة النساء : « **ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل** » وفى سورة الأعراف : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها » فالرؤيا تقص ، والأنباء تقص ، والأحكام تقص ، وأعمال الرسل تقص . أو أسماؤهم تقص ، فالقص ، ليس مقصوراً على الرواية أو الحكاية أو القصة ، إنما يستعمل هذا اللفظ بمعنى – كما قلنا ، التلاوة والسرد ، والذكر وما إلى ذلك .

ولسنا بحاجة إلى القول بعد ذلك ، أن أنباء الرسل وأحاديثهم – وإن لم تأت فى القرآن الكريم فى صورة القصة ، إلا أنها قرآن من القرآن ، فهى لذلك وبغير حاجة إلى قول منا – هى ككل القرآن ، معجزة لا يلحق بها أدب كاتب ولا بيان قاص ، مهما بلغ من القدرة على الكلام ، ومهما أفاء الله عليه من براعة القول ، وبلاغة العبارة .

وواضح أن ما توافر لقصة يوسف عليه السلام ، لا من حيث اكتمالها فى موضع واحد من القرآن فقط ، الأمر الذى لم يجتمع لغيرها من أنباء الرسل ، بل إن الوقائع اتصلت فيها ، اتصالا بدأ بمقدمة أحداثها ، وانتهى بخاتمتها ، بحيث يستطيع قارئها أو سامعها ، أن يعرف كل حدث وتطوره ، وكل شخصية ودورها ، دون أن يقطع السياق ، أحداث قصة أو نبأ سواها ، ودون أن يتخللها ، تعليق طويل على مجرياتها ، يستخلص العبرة منها ، فى حين أن أنباء موسى عليه السلام ، يذكر منها جانب ، ثم ينقطع الكلام ، وينتقل تماماً إلى غيرها ، ثم يأتى جانب آخر فى موضع

آخر من القرآن الكريم ، وقد يكون هذا الجانب ، هو نفس ما ذكر فى سورة سابقة . أو جانب جديد تماماً ، ثم يحدث معه ، مثل ما حدث مع غيره ، إذ ينقطع الحديث تماماً وهكذا .

أما قصة أهل الكهف التى وردت فى موضع واحد من القرآن الكريم ولم يتكرر إيرادها فيه ، فى غير سورة الكهف فهى فى واقع الأمر ، نبأ ، ذكر جملة واحدة ، ولم يرد فى شأنه من التفصيل ، ما ورد فى سورة يوسف ، من التطور ، والاتساع ، وما توالى خلال وقائعها من المفاجآت ، وما تولته أحداثها من بيان مواقف أبطال الواقعة الأمر الذى كان واضحاً غاية الوضوح فى قصة يوسف ، فقد كان لوالد يوسف « يعقوب » عليه السلام موقف من ولديه يوسف وأخيه بنيامين ، وموقف بين سائر أولاده ، كما كان ليوسف مواقف تبرز شخصيته ، ومسلكه وعقيدته ، وكان لإخوة يوسف موقف واضح ، واتسعت رقعة الواقعة بدخول العزيز وامرأته وأهلها وأصدقائها ، وبدخول يوسف السجن والرؤيا التى رآها العزيز وهكذا ، مما يحتاج بنا إلى تفصيل نورده بإذن الله فى موضعه من البحث . ولست واجداً شيئاً من هذا لا فى الكهف ولا فى أنباء ذى القرنين ، مما يدخلها بلا شبهة فى نطاق الأنباء ، وإن كانت تنطوى على نواة القصة ، ولكن كتاب الله العزيز أوردها موجزة لتؤدى الغاية منها فى موضعها من السورة ، فأدتها على الوجه الذى يتناسب مع قدرة الله العظيم .

* * *

القصص القرآنى ، هو جزء من القرآن ، يجرى عليه ، ما يجرى على سائر

القرآن ، من حيث كونه كلام الله ، المنزل بنصه وحرفه على نبيه المرسل ، بقصد هداية الناس إلى دينه القويم ، دين التوحيد . ومن ثم فإن أكثر الذين يتناولون الحديث عن القصص القرآنى ، يرون أنفسهم مسوقين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، إلى إثبات صدق ما جاء فى هذا القصص ، وانطباقه على الواقع ، ثم إلى القول بأن القرآن فيما رواه من وقائع وأحداث القصص التي جاءت فيه ، وثيقة تاريخية أو أن هذه القصص صحيحة تاريخيًّا .

وقد يكون الدافع الأقوى إلى هذا التأكيد ، أن كتب التاريخ المعروفة والمتداولة بين أيدى الناس القديمة والحديثة كما سبق القول كادت تخلو خلواً تاماً من الإشارة إلى أسماء الرسل الذين جاء ذكرهم فى القرآن ، وبالتالى من الأحداث والوقائع ، التى ذكرت مع أسمائهم . فلم يظفر إبراهيم ولا نوح ولا لوط ولا موسى ولا عيسى أو زكريا ويحيى عليهم جميعاً السلام بمجرد الإشارة إليهم فى صحف المؤرخين المعاصرين لهم أو الذين أرخوا فى القديم لعهودهم . فهل يكفى خلو هذه الكتب القديمة ، من أسماء هؤلاء الأنبياء للقول بأنها أسماء ملفقة ، لأساطير قديمة تناقلها القدماء ، حتى وصلت إلى الأزمنة التى عرف الناس فيها الكتب المقدسة ؟ وهل احتضنت الكتب السماوية أساطير الأولين ، كما كان يقول كفار مكة ، لأغراض سياسية هى نشر الدين الجديد ، واستمالة الجماهير إليه ، ليتيسر لهذه العقيدة الناشئة أن تواجه سلطة الحاكم وبطشه ؟

هذا ما ذهب إليه فعلا ، مفكرون وكتاب ومؤرخون فى الغرب ، ولا سيما فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكن فى جانب آخر ،

قال كتاب ومفكرون ومؤرخون فى الغرب والشرق ، إن ما ورد فى الكتب المقدسة عن هؤلاء الأنبياء الكرام ، عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه ، هو الحقيقة بعينها ، ولما كانت الحقائق التى تتصل بوقائع الحياة الإنسانية وتطورها فى مختلف دروب نشاط الإنسان فى مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع . لها مستودع معروف ومتفق عليه ، هو التاريخ ، فقد قالوا إن ما ورد فى الكتب المقدسة ، ومنها القرآن الكريم ، والقرآن الكريم على وجه خاص ، هى وقائع تاريخية . وهم يحسبون أنهم بهذا يصفون على وقائع القصص القرآنى وأنباء وأحاديث الرسل فيه ، صفة الصدق العلمى . وهذا وهم عظيم ، لابد لنا أن نبدده ، لكى نخلص إلى حقيقة العلاقة بين القصص فى القرآن ، والتاريخ .

ويجمل بى أن أقول ، إن استعمالى لفظى « القصص القرآنى » ليس تسليماً منى ، بأن فى القرآن أكثر من قصة ، ولكنى أستعملهما من قبيل التبسيط والتيسير ، حتى نصل إلى بيت القصيد من هذا البحث .

وأول ما نحب أن نبادر إليه ، هو أن الواقعة التاريخية ، والواقعة الصحيحة ، ليستا شيئاً واحداً ، يعنى أنه ليس يكفى أن ترد الواقعة فى التاريخ ، ليكون ذلك شهادة لها ، بأنها صحيحة ، أى أنها وقعت فعلا ، أو وقعت فعلا فى الوقت الذى حدده التاريخ الذى أوردها ، أو وقعت فعلا فى المكان الذى ذكره التاريخ ، وعلى الوجه الذى أورده هذا التاريخ . وبعبارة أكثر صراحة إن كثيراً من الوقائع التاريخية ، هى وقائع متوهمة ، وليست صحيحة ، وقد يكون بعض عناصرها صحيحاً ، ولكن لا يمنع هذا ، أن يدخل على هذه العناصر ، الكثير من شوائب المبالغة أو التحريف أو

التنقص ، حتى تستحيل الواقعة الصحيحة ، شيئاً آخر ، يخالف الواقع مخالفة كلية .

ولكيلا يبدو هذا الكلام من جانبنا ، إلقاء للقول على عواهنه ، سنكل الأمر إلى أستاذ من أساتذة التاريخ ، هو الأستاذ « إدوارد هاليت كار » صاحب كتاب « ما هو التاريخ » فقد نقل هذا العالم الكبير ، عن الأستاذ « بركلاد » فى كتابه التاريخ فى عالم متغير : إن التاريخ الذى نقرأه ، وإن كان يعتمد على حقائق ، إذا تكلمنا بدقة ، ليس حقيقياً على الإطلاق ، بل هو سلسلة من الأحكام المقبولة » .

وفى موقع آخر من كتابه يقول : لقد أتم القرن التاسع عشر عبادة الوقائع السحرية ، كانت الوثائق تابوت العهد فى معبد الوقائع . وكان المؤرخ الموقر ، يقترب من تلك الوثائق ، وهو يحنى الرأس ويتكلم عنها فى صوت يدل على الخشوع والرهبة . فالشيء صحيح ما دمت قد عثرت عليه فى الوثائق ، ولكن ما الذى تذكره لنا هذه الوثائق — القوانين المعاهدات والقوائم والكتب الحكومية المسماة بالزرقاء والبيضاء] والمراسلات الرسمية والخطابات الشخصية واليوميات ؟ لا تستطيع الوثيقة [أياً كان محررها] أن تذكر لنا شيئاً أكثر مما اعتقده مؤلفها ، أى ما اعتقد أنه حدث ، وما اعتقد أنه ينبغى أن يحدث وقد يحدث . . أو ربما فقط ما أراد أن يعتقده الناس ، أو الذى اعتقد أنه اعتقده . ولا يعنى أى شيء من كل هذا شيئاً ، حتى يبدأ المؤرخ ويحاول حل رموز الوثيقة » .

وينقل الأستاذ [إدوارد كار] عن مؤرخ عظيم آخر ، كان يعتبر حجة جامعة إكسفورد البريطانية :

إن فلسفة التاريخ لا تعنى [بالماضى فى ذاته] أو بفكر المؤرخ ذاته عن هذا الماضى ، ولكنها تعنى بالشيئين فى صلتهما المتبادلة . . إن الماضى الذى يدرسه المؤرخ ليس ماضياً ميتاً ، بل هو ماض بمعنى ما ، ولكن لا يزال يحيا فى الحاضر . . ولكن أى فعل ماض ، يكون ميتاً ، أى لا يعنى شيئاً للمؤرخ حتى يتسنى له فهم الفكر الكامن وراء هذا الفعل . . ومن ثم فإن « كل تاريخ ، هو تاريخ فكر . والتاريخ فى الواقع هو إعادة تمثل فى عقل المؤرخ الفكر وراء التاريخ الذى يقوم بدراسته ، إن إعادة بناء الماضى فى ذهن المؤرخ تعتمد على البينة التجريبية ولا يمكن أن تتكون من مجرد استعادة للوقائع . والأمر على العكس فإن عملية إعادة البناء تتحكم فى انتقاء الوقائع وتفسيرها ، وهذا بحق هو الذى يجعلها وقائع تاريخية . ويقول الأستاذ أوكيشوت : التاريخ هو تجربة المؤرخ ، فلا أحد يصنع التاريخ غير المؤرخ ، إن كتاب المؤرخ هو الطريقة الوحيدة لإنشائه » .

ثم يزيد هذا المعنى وضوحاً :

« إن وقائع التاريخ لا تأتى لنا أبداً « خالصة » ، لأنها لا توجد ولا يمكن أن توجد فى صورة خالصة . إنها دائماً منعكسة فى عقل من قام بتسجيلها ، ويتبع ذلك أننا عندما ننظر إلى أى عمل من أعمال التاريخ ، فإن أول ما يهمنا يجب ألا ينصب على الوقائع التى تحتويه ، بل على المؤرخ الذى قام بكتابته » .

ثم ختم كلامه بقوله :

« والمؤرخ يبدأ بطائفة منتقاة مؤقتة من الوقائع ، وتفسير مؤقت ، وبتقدم البحث يصادف كلاً من التفسير الانتقائى وترتيب الوقائع ،

تغييرات خفية ، وربما كان لها جانب لا شعورى ، وذلك من التأثير المتبادل لعامل أو آخر . ويتضمن هذا الفعل المتبادل كذلك التأثير المتبادل بين الحاضر والماضى ، لأن المؤرخ جزء من الحاضر والوقائع تنتمى إلى الماضى . والمؤرخ ضرورى لوقائع التاريخ ، كما أنها ضرورية له ، وهو بغير وقائع فاقد الجذور عديم الجدوى ، والوقائع بغير مؤرخها ميتة وبلا معنى » .

والوقوف أمام المعانى التى انتهى إليها المؤرخ الكبير [إدوارد هالت كار] يعيننا على البحث فى صلة وقائع القصص القرآنى بالتاريخ ولذلك يحسن بنا أن نحلل هذه المعانى .

وأول ما أراد « كار » أن يلفت نظرنا إليه ، هو أن ليس كل ما يقع فى حياة الأمم والجماعات ، ما يستوقف نظر من يكتب تاريخ هذه الأمم والجماعات ، فإن المؤرخ ينتقى من الوقائع ما يروقه .

وإن انتقاء المؤرخ للوقائع خاضع لمعتقدات المؤرخ ، ولظروف زمانه وبيئته ، فإذا كان المؤرخ متديناً ، جمع من الوقائع ، عدداً منها ، ونسقها على وجه يثبت أن للدين أثراً بارزاً فى توجيه الوقائع ، وحفز الناس إلى العمل . وإذا كانت ظروف العصر الذى يعيش فيه المؤرخ ، داعية إلى الاهتمام إلى جانب بذاته من الحياة العامة ، ولنفرض على سبيل المثال الصراع بين الملك والأشراف ، وحول حقوق الشعب فى الاشتراك فى الحكم ، أو فى الصراع بين الفلاحين وكبار الأغنياء ، أو ظهور قوة العمال ووقوفهم فى وجه السلطة ، فإن نظر المؤرخ ، يقع من حيث يدرى أو من حيث لا يدرى على وقائع بذاتها من الوقائع التى تفرض نفسها عليه ، فيختارها لتؤيد وجهة نظره ، وهو لا يقنع بالاختيار ، وإنما يفعل فوق ذلك التنسيق

الذى يؤدى إلى هذه النتيجة .

وخلاصة الرأى ، أن واقعة ما ، لا تكون واقعة تاريخية ، بمجرد حدوثها ، وهى لا تظفر بهذا الاسم ، أو المرتبة ، لكونها حقيقية وغير مفتراة ، بل يجب إلى جانب صحتها وخلوها من الزيف والاختلاق ، أن تروق فى نظر مؤرخ ، وهى لا تروق فى نظره ، إلا إذا كانت تخدم معتقداته ، ونظرته للأمور . وهو بهذا التأثر لا يعنى تزييف التاريخ ، وما يختاره ، واقع لا شبهة فى صدقه . ولكن هذا الواقع لا تجد له صدى عند مؤلف مؤرخ آخر ، لا يقل صدقا ولا أمانة من الأول . ولقد أحسن [كار] حين قال إن الماضى ، يصوغه الحاضر ، ذلك لأن هذا الماضى بوقائعه يبقى ميتاً حتى يجد المؤرخ الذى يدخله فى سياق وقائعه المختارة ، وينسقه فى ترتيب ، يرضيه .

قد ذكر [كار] فى هذا الصدد معنى طريفاً نقله عن المؤلف المسرحى الإيطالى [بير انديلو] ، فقد قال [بير انديلو] إن الوقائع كالأكياس أو الزكائب ، لا تنهض وحدها ، بل يجب أن تملأ بشىء لتقف . فإذا أخليتها مما فيها ، هبطت إلى الأرض ، والتصقت . فالوقائع تجرى فى الحياة ، ، متتابعة وكثيرة ، ولكنها لا تلبث أن تسقط فى الأرض ، كالطيور التى أنهكتها رحلة طويلة ، فما لم تمتد إليها يد لترفعها ، تختفى عن الأنظار ، وتنسى .

فالمؤرخ هو فى الواقع ، صانع التاريخ ، وخالق وقائع ، وإن كان لا يفترى هذه الوقائع ، ولا يصنعها . والكلام هنا كله على المؤرخين الصادقين الأمناء ، وليس معنى هذا أن كل المؤرخين من هذا الطراز ،

وقد يكون صحيحاً ما قاله المؤرخ [سكوت] بأن أى صحفى يعلم اليوم بأن أفضل السبل للتأثير على الرأى العام هو انتقاء الوقائع المناسبة وتنظيمها ، ولكن هذا الكلام الصحيح ، ينقصه أن الوقائع المختارة والمنسقة ، لابد أن يكون من ورائها فكر معين يدعو إلى هذا الاختيار وإلى ذلك التنسيق ، بمعنى أن الوقائع لا تتحدث عن نفسها ، وإنما تتحدث حينما يدعوها المؤرخ إلى هذا الحديث ، والصحفى . وإن كان يكتب عن وقائع اليوم لأبناء اليوم ، إلا أنه فى الواقع مؤرخ ، لأن الوقائع تحيا وتموت بقرار منه ، فسيرتها عنه ، مؤرخون يصنفون البحوث الجادة ، ولا يقصدون تلهية القراء .

وقد ضرب [كار] مثلا فقال : إن المؤرخ هو الذى يقرر لأسبابه الخاصة أن عبور قيصر لقناة [الروبيكون] الصغيرة ، هو واقعة للتاريخ ، بينما لا يثير عبور الملايين من الناس لهذه القناة نفسها ، فى نفسه ولا فى نفس الآخرين أى شعور بالاهتمام .

وإذا اتضحت لنا هذه الحقائق ، وهى فى واقع الأمر حقائق ، استطعنا أن نتكلم باطمئنان أعظم ، ومعرفة أوثق ، عن تاريخ الأنبياء بعامة ، وعن وقائع القصص فى القرآن بخاصة ، دون أن نتكلف جهداً خاصاً ، لنثبت أن ما جاء فى القرآن ، أو فى قصص الأنبياء ، هو حقيق تاريخياً ، وأن نفسر – بلا جزع – لماذا سكت التاريخ الرسمى ، عن ذكر شيء مطلقاً ، أو شيء ذى قيمة عن موسى وعيسى ويوسف وعن إبراهيم عليهم السلام .

ثم لنتحدث عن صلة هذا القصص القرآنى بالتاريخ ، أو ماذا ينبغى أن تكون نظرتنا إلى هذه العلاقة .

ولنتخذ من تاريخ السيد المسيح ، نموذجاً تطبيقياً للمبادئ التي قررناها فيما سلف .

يقول الأستاذ عباس العقاد فى كتابه « حياة المسيح »

« إن القرن الثامن عشر ، قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق ، فى مقررات العلم القديم ، ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب فى وجود الأنبياء والمرسلين ، وكاد الشك يتناول كل نبي وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام : شكوا فى بوذا ، كما شكوا فى إبراهيم وموسى وعيسى . .

وقد زار فولتير – إمام الشاكين – بلاد الإنجليز فوجد هناك مدرسة « لنجيروك » تتحدث بغاية السهولة فى شبهاتها عن وجود السيد المسيح وكان نابليون يسأل العالم الألمانى « ويلاند » هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخى ، وجد ، كما وصفوه ؟ » .

« وجاء القرن التاسع عشر وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التى ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والإنجليز ، يفندون بها أقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال » .

« ونحن نجتزئ بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك فى وجود السيد المسيح وأحدهما أنه عليه السلام لم يذكر فى التواريخ القديمة التى فصلت أخبار عصره ، والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم ، وبعضها أقرب إلى الأساطير والفروض .

« أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس وتاسيتس وسويتنوس وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن آياته .

« نعم ، وردت فى نسخ من تاريخ يوسفوس ، إشارة مقتضبة إلى [عيسى القديس] ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة إليه ، ويؤكدون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الإشارة إلى أعظم الحوادث فى ذلك العصر ، فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الإشارة كأنها من كلام [يوسفوس] على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يتعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها ، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودى الذى ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين ، فيقول إنه فى ذلك العهد عاش عيسى ذلك الإنسان القديس — إن جاز أن يسمى إنساناً — بعد ما أوتى به من المعجزات البينات وعلم الناس ، وتلقى الحق فاستبشر به ، واتبعه كثير من اليهود والإغريق وكان هو المسيح » .

ويورد الأستاذ العقاد عليه رحمة الله ، تعليقا للقس [هورن] مؤلف كتاب « الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة » على هذا الكلام يقول فيه إن هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التى حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية ، وأن العبارة نفسها موجودة فى النسخة العربية التى تحتفظ بها الطائفة المارونية فى لبنان ، وأن يوسفوس أشار فى تاريخه فى موضع آخر إلى المسيح ، إذ قال « حنانا [كبير أحبار اليهود] جمع السنهدرين [المجمع اليهودى المقدس] وأحضر

أمامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون أمر بهم أن يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة » انتهى كلام العقاد .

ثم قال هورن إن أول من استشهد بعبارة [يوسفوس] المشار إليها هو [أوسيباس] ولو كان قد اختلقها ، لما عدم ناقداً فى عهده ، يكشف دسه هذه العبارة على الأصل ، وإذا كان قد تأخر الاستشهاد بهذه العبارة حتى جاء [أوسيباس] فذلك لأن المؤرخين المسيحيين الذين جاءوا قبل [أوسيباس] لم يشعروا بالحاجة إلى إثبات وجود عيسى عليه السلام لأن وجوده كان عندهم حقيقة لا تقبل النقض ولا تدعو إلى المناقشة .

أما [تاسيتس] المؤرخ الرومانى فلم يذكر اسم المسيح عليه السلام إلا مقروناً بوقائع لا ترجع إلى أقدم من سنة ٦٤ ميلادية بمعنى أنه لم يشر إلى ميلاده ، ولا إلى بدء دعوته ، ولا إلى محاكمته ، كما لم يشر المؤرخ [سوتتيوس] إلى السيد المسيح ذاته ، وإنما أورد إشارة غامضة فى سياق تاريخه لقيصر [كلوديس] إلى اتباع رجل يلقب بكريستس [أى المسيح] .

أما المؤرخون اليهود مثل فيلون والمؤرخ [جستين الطبرى] الذين عاشوا فى عهد المسيح عليه السلام فلم يشيروا إليه بحرف .

وقد أورد [أرنست رينان] الفيلسوف الفرنسى الحديث ، فى مقدمة كتاب [حياة عيسى] أن [يوسفوس] المؤرخ اليهودى لم يرد أن يذكر شيئاً عن حركة السيد المسيح ودعوته ، لأنه كان يكتب لوثنيين . وكان يعلم أن حديثاً من هذا القبيل لا يهمهم ولا يمتعهم .

كما يضيف [رينان] ملحوظة أخرى خلاصتها أن القول بأن شخصية

المسيح أسطورية ، أى غير حقيقية ، لاقترانها بأمور خارقة للطبيعة ، ويرد عليه بأن اقتران الخوارق والعجائب بشخصية ما ، لا يعنى أنها لم توجد ، فقد اقترنت الخوارق بشخصية [فرانسيس دا أسيسى] مؤسس جماعة الفرنسيسكان ومع ذلك ، فإن فرانسيس شخصية حقيقية لا جدال فى أنها وجدت وعاشت وأن الناس شهدوا صاحبها وسمعوه وتأثروا به ، ورووا تاريخه رواية صادقة .

وقد نضيف إلى اسم هذا القديس [جان دارك] التى تعتبر شخصية [تاريخية] بالمعنى الذى حددناه فيما سلف ، لأن التاريخ العام ، يروى وقائع حياتها ، ويرتب على جهادها ، وأعمالها ، نتائج سياسية دنيوية ، ومع ذلك فقد اقترن اسمها وشخصها بمعجزات فى دنيا الحرب والسياسية فى دنيا الوجدان والتجليات الروحية على السواء .

ويتعرض المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه : قصص الأنبياء ، لنفس القضية ولكن بمناسبة الحديث عن إبراهيم عليه السلام فيقول : يريد بعض الناس أن ينفى العرب عن إبراهيم وإسماعيل فيتذرع إلى ذلك بنفى وجود إبراهيم وإسماعيل تاريخياً بمعنى أنه لم يكن فى ذلك الوقت الذى يدعى لهما من يدون التاريخ ويسطر أحواله . ومعلوم أن عدم وجود مؤرخ يكتب عن إبراهيم وإسماعيل لا ينفى أنهما وردا سجل الحياة ، فإن الجد الذى يكمل العشرة من أجدادى ، لم أعلم اسمه ، ولم يسجله تاريخ ، فهل معنى ذلك أن ليس لى جد عاشر .

ثم يضيف . . يقولون إن وجود إبراهيم وإسماعيل هو أمر اخترعه اليهود بعد الهجرة ، ليتقربوا إلى العرب المسلمين ، وهذا القول حجة داحضة .

لأن مسألة إسماعيل موجودة فى سفر التكوين من أسفار التوراة ، وقد ترجم فى نحو سنة ٢٨٠ قبل الميلاد من العبرية إلى اليونانية فى عصر بطليموس فيلادلف – وهو بطليموس الثانى – فى الترجمة المشهورة بالسبعينية التى قام على ترجمتها بالإسكندرية سبعون حبراً من أحبار اليهود ، وذلك قبل هجرة محمد صلى الله عليه وسلم بسبعة قرون »

ويرد المرحوم الأستاذ العقاد بحجج مشابهة فيقول :

والغريب فى شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيراً مقبولا لوجود المسيحية بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد ، فإن التفسيرات التى فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية السيد المسيح التاريخية . وقد توفى بولس الرسول فى نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخه ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المسيحية ومن المعجزات والشعائر التى ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة » .

ولست أرى فى كل هذا حجة مقنعة ، فقول الشيخ عبد الوهاب النجار ، إن جده العاشر لم يؤرخ له أحد ، ومع ذلك ، فإنه ولد ، ثم رزق الأولاد ، وعاش بلا شبهة ، فالرد عليه بأن جد الشيخ لم يحى الموتى ، ولم يبرئ الأكمه ، ولم يدع إلى دين جديد ولم يتخذ السلطات ، ولم يجب القفار ويعبر الصحارى وينتقل من بلد إلى بلد ، متصلا بالأحداث الدينية والتطورات الاجتماعية فى عهده ، وعلى مدى واسع من الأرض ، فإذا أغفله المؤرخ ، فلا غرابة فى ذلك ، ولكن الغريب أن يكون صاحب دعوة وأن يكون لدعوته ، بعد وفاته ، شأن كبير ، ويسكت التاريخ عن

ذكره أو الإشارة إليه ، بما يتناسب مع دعوته من الأهمية والخطر .

وليس أساس الاحتجاج على قول القائل بوجود إبراهيم عليه السلام أنه لم يكن هناك مؤرخون يؤرخون لعهده بل إن هناك تاريخاً لهذا العهد كتب فى كتب المؤرخين ، أو على جدران المعابد ، أو فى أوراق البردى ، لا نجد للأنبياء فيها ذكراً ، فالتاريخ روى وقائع حقب ترجع إلى ما هو أقدم من عهد إبراهيم فلم سكت هذا التاريخ ذاته ، عن ذكر إبراهيم ورحلاته وتنقلاته وأسفاره وزوجاته ؟

ولكن الأستاذ العقاد قال بعد ذلك ما نراه التعليل الصحيح ، لإغفال المؤرخين لذكر المسيح عليه السلام ، أو لعدم الإشارة إليه وإلى وقائع حياته باستفاضة ، فقد قال :

« وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين [عن الحديث عن نشوء المسيحية] على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التى كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص فى الأناجيل جميعاً غير ثلاث مرات . .

« جملة ما يؤخذ من الكلمة فى هذه المواضع الثلاثة أنها كانت نسبة ازدراء وتعيير على ألسنة أعداء المسيحية ، وليس من الصعب أن يضيع الكلام على طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن فى غمار التواريخ ، وبخاصة إذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى ، وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لأنها طائفة مغضوب عليها » .

وقد قال الكاتب اليهودى [أميل لدفيج] فى كتابه عن حياة السيد المسيح المعنون « ابن الإنسان » : هل يمكن أن تكون ثمة صورة أشق على المصورين من الصورة التى أنا بصددها . إذ علينا أن نصور رجلا نجهل فى الواقع كل ما يتصل به حتى بلغ الثلاثين من عمره ، وكان أكثر ما جهلناه مظهره الخارجى ، وصورة نفسه ، فى حين أن السنتين أو نحو ذلك اللتين سبقتا وفاته المبكرة ، تتضارب بشأنها مصادر الحقائق ، فى أكثر من موضع ، وفى بعض المواضع تتعارض هذه الحقائق ، مع ما تقوله المصادر غير المسيحية ، وفوق ذلك فإن هناك فوضى فى ترتيب الوقائع وسياقها ، الأمر الذى كان محلا للتعبير عن الأسف طوال القرون ، وآخر الأمر ليس لدينا من تقارير عما يتجاوز البداية والنهاية : [فى حياة عيسى] التعميد والمحاكمة ، أما ما بينها ، فهو الفوضى بعينها وقد كتب لوثر أن الأناجيل الأربعة لا تلتزم سياقا واحداً فى إيراد معجزات وأعمال عيسى . وقد لا يكون هذا كبير الأهمية . وحينما تكون هناك مناقشة حول النص المقدس ، فإنه لا مجال للمقارنة ، وعندها يتعين إسقاط المحاولة ، محاولة مقارنة النص موضوع الجدل بغيره ، إذ لا يوجد ما تجرى على أساسه المقارنة .

وهذا وحده يعطينا فكرة عن الصعوبة التى يجدها المؤرخ ، فى الحصول على حقائق تتصل بشخص رسول ، انقضى على تاريخ دعوته نحو ألفين من السنين أما فى أيامه حيث تسود الأمية ، وتفشو الأغراض والمخاوف ، وتسود الرغبة فى تصديق ما تروجه السلطات ، وتنعدم الرغبة فى تسجيل التاريخ ، وتبدد الحركات فى بدايتها ، إما عبثاً لا معنى له ، ولا نفع فيه ، وإما مجازفة بالحياة والمال ، لا تستأهل البذل فى سبيلها ، أو الالتفات إليها

ولكن كل هذه اعتبارات عملية ، أما الأصل المجرد الذى نود أن نرد إليه كل الأمور ، فهو أن التاريخ هو عملية انتقاء واختيار ، وأن التاريخ لا تصنعه الوقائع ، بل يصنعه المؤرخ . وأن تفسير المؤرخ ، وتحليله ، وتبويبه واستنتاجه ، هو الذى يعطى للتاريخ مادته ، ولونه ، ومذاقه ، ولكل مؤرخ وسائله فى تحصيل الوقائع ، وفرزها وتبويبها وتنسيقها ، واستخراج المعانى والمدلولات منها . وكما يختلف المنهج بين مؤرخ ومؤرخ ، فكذلك يختلف المؤرخون فيما بينهم بسبب العهود التى ينتسبون إليها ، فإنهم يختلفون أيضا بفضل انتماءاتهم الفكرية والمذهبية . ومن هنا كانت المناهج التى تناقش بها الحقائق والوقائع فى حياة الشخصيات الدينية ، وشخصيات القصص القرآنى ، يجب أن تختلف عن المناهج التى لها شخصيات التاريخ العام .

ويتفرع عن هذه المقدمة ، أن الشخصية الدينية لها إلى جانب الوجود المادى الذى يعنى به التاريخ العام ، والذى تتمثل فى الميلاد والوفاة ، والموطن والعمر ، والمظهر والمزاج ، والعلاقات الشخصية ، وجود روحى ، تتمثل فى الفكرة والدعوة والأثر فى الناس ، توجيهاً وتغييراً ، وإلهاماً . فالشخصية الدينية لا تكسب قليلا أو كثيراً من إحاطة المؤرخ أو الناس ، بمظاهرها المادية ، وعلاقاتها الدنيوية ، لأنها موجودة ، فى الفكر الذى دعت إليه ، وفى العقيدة التى بعثتها وفى التطورات التى أدخلتها فى حياة الأفراد والجماعات والأمم . ولو فرضنا جدلا – والفرض جدلى بحت – أن أنبياء الله ، الذين نعرف أسماءهم فقط كإبراهيم وموسى وهارون وعيسى ، ثبت قطعيًّا أنهم لم يولدوا ولم يعيشوا ، فإن هذا لن ينقص من أثرهم فى حياة

الأمم التى تأثرت بهم ، وآمنت بالعقائد التى نسبت إليهم ، فقد استحالوا إلى عقيدة وإيمان ، علا علواً عظيماً على أجسادهم وأعمارهم ، وما يكون قوام حياة الآخرين من الزعماء والقادة ، وما لا يمكن تصور هؤلاء الآخرين بغير الوقوف عليه ، والتأمل فيه .

فالصلة بين الواقعة التاريخية ، والحقيقة الروحية مقطوعة ، لأن لكلٍّ منهما قانونه الخاص ، إذ لكل منهما وظيفة خاصة ، ورسالة متميزة ، والواقعة التاريخية لبنة من بناء يصنعه عقل إنسان ليفسر به جانباً من حياة طائفة من الناس ، لفترة محدودة ، فى حين أن الواقعة القرآنية ، تعلو على الزمان ، والمكان ، ولا تتمثل فى صورة إنسان ، وإنما فى فكرة ، ومن هنا ، تخلو من مقومات الواقعة التاريخية ، من هنا أيضاً لا يمكن أن تجرى بينها مقارنة - إذ ليس بينهما مشابهة -

خصائص القصة القرآنية

يتسم منهج القرآن الكريم فى إيراد أخبار الأنبياء ، وأحاديثهم ، وأنباء الأمم القديمة والصالحين من عباد الله ، وبعض ما وقع فى الماضى مما يحمل دلالات على أن سنة الله ، التي تقضى بغلبة الحق ، وهزيمة الباطل ، هى سنة ثابتة يتسم هذا المنهج بسمات ، لا تخطئها العين ، التى تقرأ القرآن ، بروح المتأمل المتدبر.

وسنورد هنا الخصائص البارزة فى هذا المنهج ، ونتبعها بإذنه تعالى بما عداها من خصائص ، وأوضحها جميعاً .

أولا : إن القرآن الكريم ، لا يعرف بالشخصيات ، التى يدور حولها كلامه .

ثانيا : إنه يجرد كلامه تعالى من الزمان والمكان .

ثالثاً : إنه يصطنع أسلوباً من الإيجاز التام الذى لا نعرف له نظيراً فى آثار الأمم الأخرى : مهما سمت مكانتها البيانية .

وابعا : وحدة الغاية فى كل ما ورد فى القرآن من أنباء وأخبار وأحاديث وذكر.

أولاً : الشخصيات فى أخبار القرآن الكريم .

الشخصية فى القصة ، وفى النبأ أو الخبر أو الحديث ، هى ركن الزاوية . يقوم البناء عليها ، ويدور الكلام حولها ، وتتفاعل مع الحوادث ،

فتزيدها الحوادث وضوحاً ، وتمنحها قوة وطرافة وإثارة ، وتمنح بدورها هي الوقائع ، حيوية ومتعة وتضفى عليها رداء وجمالا . وليست هناك قصة بلا شخصية حتى ولو كانت من قصص الرمز ، أو كانت من حكايات الحيوانات أو الجمادات ، تروى للأطفال ، أو تنسج على منوال الأساطير القديمة ، التى تنطق فيها الشجرة ، ويتكلم البحر ، وتحكى العصفورة أو القطة .

وأساليب الرواة والقصاصين تتباين وتختلف فى تقديم شخصيات حكاياتهم أو أنبائهم أوتراجمهم الواقعية أو المتخيلة ، المنسوجة من وقائع التاريخ ، أو من وحى الإبداع . فمنهم من يبدأ بشخصية الحكاية أو الخبر ، منذ مولدها . ويقدمها للقارئ أو السامع . خطوة فخطوة وجيلا بعد جيل ، ويتابعها ، تنمو وتكبر ، وتتسع علاقاتها ، وتتشابك روابطها : حتى تصل إلى قمة القصة ، ثم تنحدر إما إلى المشيب والضعف والموت ، وإما إلى الأفول والذبول والاختفاء .

ومنهم من يدع الحوادث نفسها تروى قصة البطل ، حتى يخيل إليك أنه لا يشغل دوراً كبيراً فيها ، ولا تزال الوقائع تتتابع وتتوالى ، حتى نعرف منها هذا البطل ، وصفاته وخصائصه ، دون أن يذكر القاص أو الراوى ، هذه الصفات والخصائص ، وصفاً أو ذكراً مباشراً ، فلا يقول شيئاً عن طوله أوقصره ، أو بياضه أوسواده ، أوغناه أوفقره ، أوثرثرته أوصمته ، بل يترك هذه المهمة لمجريات روايته تكشف لنا عن مزاياه ونقائصه ، وأسلوبه فى الوقفة ، مظهره وملبسه ميوله ونزواته . .

ومنهم من يقدم لنا شخصيات حكايته دفعة واحدة ثم يتركهم يحيون

حياتهم ، ويتحاربون ويتصارعون ، فنرى من حبهم وبغضهم ، وصراعهم وقتالهم ، جوانب من شخصياتهم ، تكاد تخالف كل ما قدمهم به إلينا ، وكان صاحب الحكاية يقول ، لقد قدمت لكم ظاهر هؤلاء ، ذكرت الأسماء والتواريخ والصنائع وعدد الأولاد ، ومقدار الثروة ، والمكانة فى المجتمع ، لتعرفوا بعد ذلك أن هذا كله لا يعرف بالإنسان : ولا يكشف عن حقيقته ، وإنما هو كوثائق الميلاد والزواج والوفاة ، مجرد أوراق ، لا تنبض فيها حياة ، ولا تقوم بها شخصية امرأة أو رجل .

فإذا قارنا هذه الأساليب جميعاً بأسلوب القرآن الكريم ، وجدنا أنه أسلوب قائم بذاته ، لا يمت إليها جميعاً بسبب ، ولا يشبهها من قريب أو بعيد ، فهو يذكر من يدور حوله الحديث ، دون أن يقرنه ببلد ، أو بزمن ، أوأن يضيف إليه شيئاً غير هذا الاسم ، ثم يمضى فى قص ما يريد أن يقصه ، دون أن ينال هذا القص ، ضعف أوغموض ، بسبب ما أغفله القرآن الكريم مما تعارف القصاصون والرواة فى القديم والحديث من حقائق أوتفاصيل .

فالقرآن الكريم ، حينما يذكر فقط الاسم الذى يروى شيئا عن صاحبه ، يعنى واحداً من ثلاثة أمور :

١ — يعنى إما أن الناس تعرف صاحب الاسم فلا حاجة إلى التعريف به.

٢ — وإما أن الناس ستعرف عنه ما يجب أن تعرفه مما سيذكره القرآن الكريم ، وهذا القدر حسبهم فى تحقيق الغاية من القصة أو الخبر .

٣ — وإما أنه لا ضرورة لأن تعرف عنه شيئاً حتى ولا اسمه ، لأن ذلك ، لا معنى له ، ولا نفع منه .

ولنورد فيما يلى أمثلة على هذه الأساليب الثلاثة . فنى الحالة الأولى ، لا يتصور أن يكون آدم أو نوح أو موسى أو عيسى ممن يحتاج القرآن الكريم إلى التعريف بهم ، ولذلك فهو يذكرهم ، ويروى أنباءهم ، وما كان منهم ، دون أن يتوقف ، ليقول من هؤلاء جميعاً ، ومتى ولدوا ، وأين نشأوا ، ومن تزوجوا ، وكم من الأولاد رزقوا ، ما هى خصائصهم البدنية ، وصفتهم النفسية والعقلية ، مما تعنى به القصص فى كل زمان ومكان ، وتتفاوت فيه براعة القصاصين والرواة ، يتنافسون فى رسم شخصيات وأبطال رواياتهم ، إلى حد أن القصصى القديم كان يبذل وقتاً وجهوداً ، فى وصف ثوب أو ثوب البطلة ، وثنياته ، ولونه ، ومدى انطباقه عليه أو عليها ، وأسلوب كل منهم فى المشية والقعدة ، والضحكة والبسمة ، وطريقتهم فى تناول الطعام وتوجيه الكلام وهكذا . .

لقد ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام أول ما ذكرا فى القرآن فى سورة الأعلى : فقال تعالى « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفى الصحف الأولى « صحف إبراهيم وموسى » .

وفى سورة الممتحنة ورد ذكر إبراهيم عليه السلام مرتين فى الآية الرابعة : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه » « إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك » .

ولم يتغير موقف القرآن الكريم حينما بدأ يروى ما كان من إبراهيم مع قومه ففى الذاريات مثلا يقول الله تعالى « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون » . .

فإبراهيم يذكر اسمه مجرداً ، من كل وصف ، وضيف ابراهيم ،

لا يذكرون إلا بهذين اللفظين ، فهم ضيف ابراهيم ، وحسب ، كم عددهم ما مظهرهم ، ومالبسهم وكيف دخلوا عليه ، هل طرقوا بابه ، أم كان هذا الباب مفتوحاً ، وفى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار دخلوا عليه ، وفى الحال ، وبلامقدمات طويلة أوقصيرة ، انتهى الأمر ، بلا إبطاء إلى الحوار ، الذى تصل به الواقعة إلى قمتها : « قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » ، وقبل ذلك مباشرة سمعنا ما لو جاء فى قصة من قصص البشر لاستنفد من الكاتب جهداً ، ولاحتاج إلى غير قليل من الصفحات ليرويه لنا ، مما يثيرنا ويدهشنا ، ولعلق عليه فأطال التعليق : قال تعالى : .

« قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ! » .

وبهذين الوصفين فقط قدم لنا كتاب الله امرأة إبراهيم ، فهى « عجوز عقيم » ، وكل الذى فعلته إزاء هذه البشرى المذهلة أنها « صكت وجهها » وكل الذى ظفرت به حالتها من وصف وهى مقبلة لترى هؤلاء الضيوف الغرباء ، والذين لا يشبهون ضيفاً من قبل : « فأقبلت امرأته فى صرة » .

وفى سورة الصافات ، يروى القرآن الكريم ، جانباً آخر من حياة إبراهيم عليه السلام ، وهو جانب بدئه بالدعوة ، وبدئه بأبيه فى نشر هذه الدعوة ، وما كان بينه وبين قومه ، عندما عالجهم بها ، ورأى انصرافهم عنه ، وعزوفهم عن دعوته . وقد استمر المنهج نفسه لا يتغير فقد قال الله تعالى :

« إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون » .

ثم انتقل كتاب الله العظيم إلى رد الفعل عند هؤلاء الكافرين فقال تعالى : « قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم ! » .

ثم تأتى خطوة أخرى وكبرى فى حياته بعد هذا مباشرة : « رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم » .

ثم خطوة أكبر وأعظم :

« فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا . . . ! » .

فى هذه الآيات يأتى ذكر ١ – والد إبراهيم ثم ٢ – ابن إبراهيم ثم ٣ – قوم إبراهيم . فوالد إبراهيم – على منهج كتاب الله الحكيم – هو والد إبراهيم ولا زيادة ، فلا نعرف مثلاً فى أى سن كان هذا الوالد ، عندما وقعت هذه الواقعة الكبرى فى حياة الأب والابن ، ولا ما هى مكانته فى المجتمع الذى كان يعيش فيه إبراهيم وينتسب إليه ، ولا مقدار حظه من العلم إطلاقاً ، والعلم الدينى على وجه خاص ، ولا ما يباشره من عمل قبل هذه اللحظة الهامة ، التى رأى ابنه فيها داعياً إلى دين غير دينه ، متحدياً تقاليد قومه ، خارجاً عليها ، متعارضاً بسبب هذه الثورة ، للموت حرقاً ، وهو أمرٌ يهز كل والد ، مهما بلغت قسوة قلبه ، وتبلد شعوره ، وحرصه على إبقاء الدين القديم حيث هو ، غير مبال بما يصيب ابنه من أذى إلا أن يبلغ الأذى هذا المبلغ الخطير وغير المسبوق . فإذا انتقلنا إلى ابن إبراهيم . فهو غلام عليم ، وكفى . هذا ما يجب أن يشغل بال قارئ هذه القصة ، أما لونه وسمته ، وما كان يرتدى عندما وعى إلى أن يبذل ذات نفسه من أجل

هذه العقيدة التي يؤمن بها أبوه ، ويثير عليه غضب قومه ، إلى حد الحكم عليه بالموت حرقاً ، لا شنقاً ، فأمور يغض عنها القرآن ، ولا يحفل بها .
ولو كانت هذه القصة من تأليف إنسان ، لسمعنا عن إسماعيل ، وعن صفاته وخصائصه وعن الساعة التي سمع فيها هذا النبأ العظيم ، وعن خواطره حينما طلب منه أبوه أن يموت ، ولوصف لنا الطريق التي سلكاها حتى وصلا إلى قمة الجبل ، حيث سيجرى الفداء ، ويتم إنقاذه بمشيئة الله ، ولحدثونا عن شجرة تتمايل وكأنها تحنو على الغلام الذى سيموت ، وطائر يرفرف بجناحيه رمزاً للحياة التي ستنتهى بعد حين وهكذا وهكذا .

أما قوم إبراهيم ، فكذلك لا نعرف من أمرهم إلا أنهم قومه ، فأين اجتمع هؤلاء القوم ، وكيف انتهوا إلى هذا القرار ، وما هى صفتهم فى البلدة ، بلدة إبراهيم ، وهل هم قوم سياسة وحكم ، أم هم قوم دين وكهانة ، أم هم قوم مال وتجارة ، وهل اجتمعوا فى معبد ، أم فى دار إفتاء ، كالسهندرين الذى كان أحبار اليهود يقيمونه ، ويحاكمون أمامه من يخالف فتواهم ، ويخرج على أسلوب تفكيرهم .

فإذا انتقلنا إلى موسى عليه السلام نجد الأسلوب نفسه ، فقصة موسى تبدأ من سورة النازعات ، فيقول الله تعالى :

« هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

ففى هذه الآيات القصار ، عرفنا أن موسى نبى مرسل من عند ربه .

وأنه أرسل إلى من يسمى « فرعون » ، وأنه دعا فرعون هذا إلى دينه ، فأبى فأراه بينة مقنعة ، فلم يتأثر بها ، فأخذه الله بعقاب شديد .

أما موسى عليه السلام ، فغنى عن أن يذكر الله غير اسمه ، وفرعون ، لا يقدم فى النبأ أو الحديث ، وصف له أو تعريف به ، إذ أنه ملك ، معتد بسلطانه ، لا يقيم وزناً لدعوة من السماء . وهذا يكفى فى بيان الغاية من إيراد هذا النبأ أو ذلك الحديث . ولا يقع التجريد فى السور القصار فقط ، فهو محقق فى السور الطوال أيضاً ، ففى سورة البقرة يذكر موسى عليه السلام وتذكر معه وقائع هى فى أقصى الغاية من الخطورة والأهمية ، بدون أن تقترن بشىء يزيد موسى عليه السلام ، لا يوصف بوصف يتعلق بجسمه أو بنفسه أو بعلاقاته بأهله أو بقومه أو بغيرهما فهو فى جميع الأحوال « موسى » فقط ، بلا أية إضافة .

قال الله تعالى :

« وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » . ثم يقول تعالى :

« وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » .

ثم يقول :

« وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

ويتكرر هذا الأسلوب فى سائر الأنبياء ، فعيسى عليه السلام ، لا يعرف بأكثر من أنه عيسى أو المسيح ، فإذا أضيف إليه فهو عيسى ابن مريم ومريم عليها السلام تذكر كذلك ، دون أن تقترن إلا بأنها بنت عمران .

ويذكر عيسى عليه السلام أول ما يذكر فى سورة الصف :

« وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم » ! .

«كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله» .

ثم فى الحديد :

« وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ! » .

وفى السور الطوال كالبقرة :

« وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » .

وفى آل عمران :

« إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم » .

ومريم عليها السلام تذكر أول ما تذكر فى سورة التحريم ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها » .

وفى السور الطوال ، جاء ذكر مريم عليها السلام ، كما جاء فى السور القصار ، غير مصحوب بتعريف ، يتجاوز اسمها فقد قال الله تعالى :

« وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

« وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ! » .

ولا يتغير منهج القرآن الكريم حينما يتحدث عن الأنبياء الذين لم يكلفوا برسالة دين جديد يؤدونها ، كصالح وهود وشعيب ، سوى دعوة التوحيد المطلقة ، ويبدو هذا واضحاً غاية الوضوح فى سورة « الأعراف » ، فإن ما صدر عن الأنبياء هود وصالح وشعيب إلى قومهم ،

دعوة لهم إلى عقيدة التوحيد ، ونبذ الشرك ، هو قول واحد ، كأنه صادر عن رجل واحد ، فى طرف واحد ، لقوم بعينهم ، قال الله تعالى :

« وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم : اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون »

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم . . » .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم . . ! » .

وترى مثلا آخر من هذا التطابق فى سورة الشعراء ، قال الله تعالى :

« كذبت ثمود المرسلين، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أتتركون فى ما هاهنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

ثم يقول عن أصحاب الأيكة :

« كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ،

إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون : وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين : واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا ، وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفاً من السماء ، إن كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ! .

وبهذا المنهج يقل دور الأشخاص ، ليصل إلى أدنى حد ، وتبرز الفكرة من النبأ أو الخبر أو الحديث ، ولما تتطابق الأقوال ، وتتقارب ردود الأفعال . وألوان الاستجابة فى المواقف المتشابهة روحياً ، والمتفاوتة زماناً ومكاناً ، وبيئة ، تبدو فكرة الدين الواحد ، التى تظل الأجيال المختلفة ، أكثر وضوحاً تبدو مقاومة الدين الواحد ، على اختلاف العصور والحقب ، وكان أهل الدين على مر القرون أمة واحدة ، وكان أصحاب الشرك والكفر أمة تقابلها وتعاندها ، لأن الظروف الداعية إلى الإيمان فى كل زمان ومكان واحدة ، ولأن الظروف الداعية إلى الشرك والضلال والعناد والفساد ، واحدة ، فى كل أمة وصقع .

وهذا ما يدعو إليه القرآن أول ما يدعو .

ولكن لا تزال ثمة بقية فى مذهب القرآن الكريم التجريدى ، فإن بعض أبطال ما أورده من أنباء وأخبار ، لا تزيد الإشارة إليهم عن لفظ « رجل » أو « امرأة » أو يستعمل ضمير وصل ، من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة :

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعدموتها ؟ فأماته الله مائة عامٍ ثم بعثه » .

وفى الآية التى قبلها مباشرة :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أن آتاه الله الملك » .

وفى سورة الكهف :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . .

إلى أن قال تعالى :

« وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً » .

وفى نفس السورة ما جرى بين موسى عليه السلام والرجل الصالح ، فقد قال :

فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . .. » .

فصاحب هذه الواقعة ، لا يذكر له اسم ، ولا يرد فى القرآن له وصف ، وإنما يكتفى كلام الله العزيز بالإشارة إليه بلفظ « عبد » .

وأبطال نبأ الكهف هم فى الآية التاسعة من السورة مجرد « فتية » .

« إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً » .

ولما أراد كتاب الله أن يزيد بهم تعريفاً قال تعالى :

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

فما يهم قارئ القرآن الكريم ، أن يعرف نصيبهم من الإيمان ،

وموقفهم من الدين القيم ودعايات الضلال .

وإذا صرح القرآن الكريم باسم شخص . كما فعل مع « قارون » ، فلا يظفر هذا الاسم إلا بنسبته إلى قومه ، قال تعالى فى سورة القصص : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم » .

ولم يحل منهج التجريد ، بين القرآن الكريم ، وبين أن يبلغ فى أداء المعنى ، وتصوير وقائع النبأ ، وإيراد الإشارات المحددة للشخصية ، بالقدر الذى تستلزمه الغاية من النبأ أو القصة ، ولعل أوضح الأمثال على هذا ، ما جاء عن أصحاب الحديقة ، التى أورد كتاب الله نبأهم فى سورة القلم ، فجاءت تموج بالحركة ، حركة الأبدان ، وحركة العواطف والوجدان ، حتى تكاد ترتسم لأصحاب هذه الجنة ، صورة تتابع خطاهم ، فى غبشة الفجر ، وهم يكتمون أصواتهم ، ويسترقون خطاهم ، ويتلمسون طريقهم ، لكى يجنوا ثمر الحديقة ، دون أن يراهم راء من الفقراء ، حتى إذا ما وصلوها رأوها على غير حالها ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق ، ثم أدركوا أن أمر الله أدركها فأصبحت حطباً لا ماء فيه ، ولا ثمر ، فعرفوا أن البخل ، والضن على من يستحقون المعونة ، لا يحقق خيراً ، ولا يزيد الناس كما قال تعالى :

« إنا بلوناهم ، كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك . وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم لم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم

على بعض يتلاومون . قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » .

لم يذكر هنا اسم واحد ، ولا وصف لأحد من أصحاب الحديقة ، ولا تحديد لبلدهم ، ولا لجنسهم ، ولكن العبارات ناطقة بكل ما يقتضيه بيان الواقعة ، وبيان زمانها ، وما يلابس مكانها ، حتى ليصبح ذكر هذا كله ، ضرباً من العبث ، لا يزيدالعبارة جمالاً ، ولا وضوحاً ، ولا تأثيراً . .

إن منهج القرآن الكريم ، فى تجريد الأسماء التى تدور حولها الأنباء والأخبار ، والأحاديث ، فى آياته البينات ، من الزمان والمكان ، ومن الصفات والنعوت ، يستوقف نظر الباحث طويلا ، وهو يزداد وضوحاً ،

حينما يفطن القارئ المتدبر ، إلى أن القرآن ، يغفل — كما سبق القول — فى كثير من مواضعه ، الأسماء تماماً ، فيأتى الكلام ، والفاعل فيه ، ضمير من الضمائر ، أو اسم من أسماء الإشارة ، أو من أدوات الوصل .

فالاقتصاد فى استعمال الأسماء ، بلغ أقصى الغاية فى كتاب الله العزيز . ولعلنا لا نجد أبلغ فى بيان هذا المنهج ، من أن نذكر أن اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى أنزل عليه هذا الكتاب المبين ، لم يرد فى هذا الكتــاب ذاته ، إلا أربع مرات ومن ثم تكون أجزاء كاملة ، بل يكون ست وعشرون جزءا من أجزاء القرآن الثلاثين ، قد خلت تماماً من اسم خاتم النبيين الذى بشر بهذا الكتاب العزيز ، واستظل برايته ، وحارب فى سبيل دعوته .

ويكمل هذا المعنى ، أن كتاب الإسلام الأعظم ، الذى تعقب

دعاوى وافتراءات الكفار والمشركين ، وخصومه الألداء المعاندين ، من أهل الكتاب ، والذى سجل الوقائع الكبرى ، التى انطوى عليها تاريخ هذا الدين الحنيف ، فى الحرب والسلم ، لم يرد فيه من أسماء أبطال هذا الدين الصناديد الذين أبلوا أحسن البلاء فى الدفاع عنه ، ورفع رايته ، وإعزاز كلمته ، إلا اسم واحد ، لم يكن صاحب هذا الاسم ، من أهل الصدارة فى الجهاد فى سبيل نصرة هذه العقيدة . فلست واجداً فيه اسم أبى بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على ، رضى الله عنهم وهم خلفاء رسول الله الراشدون ، ولا اسم أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولا اسم أحد كبار قادة المسلمين فى وقائعه الكبرى كخالد سيف الله المسلول ، رضى الله عنه .

بل إن كتاب الله الكريم ، التزم هذا المنهج الثابت ، وهو يورد أحداثا هى فى القمة من الخطر وعظم الأثر فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحياة الدين ، الذين بعث بالدعوة له ، خذ مثلا ما جاء فى سورة « التوبة » عما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبى بكر الصديق فى لحظة من أشد اللحظات حرجاً ، وأشدها اتصالا بالخطر وبواعث الخوف ، تلك لحظة وصول المشركين إلى باب الغار ، الذى لجأ إليه رسول الله وأبو بكر ، بحيث لو نظر أحد هؤلاء المشركين إلى قدميه ، لعرف أن فى الغار ، الرسول ، الذى خرجوا ليتعقبوه ، وليردوه عن الهجرة إلى المدينة ، ثم ليسلموه لزعماء قريش ينفذون فيه ، ما عقدوا العزم عليه من الاشتراك جميعاً فى قتله ، بحيث يتفرق دمه بين القبائل ، ويعجز بنو هاشم أن يقفوا فى وجه قبائل العرب جميعاً » .

هذه اللحظة الفذة فى تاريخ الأمم والشعوب ، بكل معيار أردت

أن تقيسها به ، يوردها كتاب الله العزيز على النحو التالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

ولست أريد أن تقف معى ، لنتأمل كيف أحاطت هذه الألفاظ القليلة بهذه الواقعة الجليلة ، وكيف أوردت فى سطورها ، عناصر تلك الواقعة المادية والروحية ، وكيف استظهرت دلالاتها ، وكشفت عن نتائجها ، فلهذا كله موضع تال فى الكلام بإذن الله ، وإنما أريد أن ترى كيف شاءت إرادة خير القائلين ، وأصدقهم ، أن توصف بهذا الأسلوب هذه الواقعة التى وقف التاريخ الإنسانى كله أمامها وكأنه يحبس أنفاسه ، ليرى ، هل نبعث هذه الأمة المتفرقة الجاهلة الفقيرة لتكون خير أمة أخرجت للناس ، أم أنها ستبقى كما كانت على هامش الأمم قبل ذلك اليوم المشهود . فى صحراتها المجدبة ، وقفارها الممحلة ، وعزلتها الطويلة .

فقد خلا هذا النص الموجز من اسمى اللذين صنعا هذه اللحظة بكل احتمالاتها غير المتناهية . لأنها لا تزال توجه حياة الناس إلى اليوم ، وعلى الأقل ، حياة ثلث البشر ، باعتبار أن المسلمين قد بلغت عدتهم ألف مليون ، وهم والأمم التى تعيش معهم كأقليات ، أو هم مع الأمم التى يعيشون هم بين ظهرانيها كأقلية .

ولا أريد أن أضيف هنا أن خلو النص من الاسمين قليلاً لم ينقص من معانى النص ومضمونه وتأثيره قليلا أو كثيراً ، فذلك أيضاً موضع مما سيأتى

فى بقية البحث بمشيئة الرحمن وإنما أريد أن أصنع تحت نظرك ، نصوصاً أخرى ، تحكى للناس ، حديث أمور وقعت للمسلمين فى جهادهم ضد الشرك والمشركين ، كانت من الوقائع الفاصلة ، فى تاريخ هذا الجهاد ، وقد خلت هذه النصوص جميعاً من الأسماء قاطبة . .

من ذلك ما جاء فى سورة الأنفال عن واقعة بدر الكبرى :

« وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولوكره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

كما قال الله تعالى فى نفس السورة :

« . . يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير ، إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ، ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ، ويقللكم فى أعينهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور » .

وعن واقعة « حنين » التى كاد المسلمون على كثرتهم يهلكون فيها ، لولا ثبات الرسول ، فى مكانه ، ودعوته للمسلمين ، وهو فى أخراهم ، ليثوبوا إلى مواقعهم ، وليستأنفوا القتال ، عن هذه الواقعة قال الله تعالى :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » .

وعن واقعة « أحد » التى كانت فى مثل خطر الواقعتين الأخريين ، نزلت آيات ، منها ما يلى فى سورة آل عمران :

« وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا . والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

ثم قال الله تعالى فى الموضع نفسه : « وما النصرُ إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » وفى السورة نفسها قال الله تعالى :

إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ، ظنّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك . . »

ثم قال تعالى .

« إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » .

وفى موضع آخر من السورة ، جاءت آيات ، فى صدد بعض ماجرى بين المسلمين بعضهم البعض ، وما جرى بينهم وبين الكفار والمنافقين :

« أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا . قل · هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير ، وما أصابكم يوم التقى الجمعان ، فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لا تبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ، لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

فإذا انتقلنا إلى سورة الفتح ، ألفيناها تروى وقائع « الحديبية » ، أكبر الوقائع السياسية فى حياة المسلمين فى عهد الرسول قاطبة ، لأنها مهدت لفتح مكة عاصمة الشرك ، ولدخول المسلمين فيها فى العام التالى لهذا الصلح ، وأنف الكفار راغم ، وقلوبهم تفيض بالغيظ المكتوم ، ونفوسهم تتمزق حرجا ، وضيقا بهذا النصر الذى لم يكلف محمداً عليه الصلاة والسلام ومن معه قطرة دم ، رأيت القرآن الكريم ، يروى تفاصيل هذه الموقعة الحاسمة ، واقعة فى إثر واقعة لا يدع منها شيئاً ، ومع ذلك يبقى كما تعهدنا بكتاب الله الكريم ، خالياً من الاسم والتاريخ ومن الوصف للرجال والأماكن ، ومن كل التفاصيل التى يعنى بها المؤرخ البشرى ، ويفرح

بها ، ويطيل الوقوف أمامها ويختلف فى شأنها مع زملائه وأنه أدق قال الله تعالى فى أول سورة « الفتح » :

« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته ، عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً.هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً » .

ثم انتقل كتاب الله العزيز إلى واقعة من أكبر وقائع هذا اليوم الباقى على الزمن كمعلم من معالم طريق دين المسلمين فقال :

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ، سيقول لك المخلفون من الأعراب ، شغلتنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرًا أو أراد بكم نفعاً ، بل كان الله بما تعملون خبيراً بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً » .

ثم أورد الله بياناً للخطة التى كاد يفلت فيها زمام المسلمين من أيديهم ، ضيقاً بلجاجة مشركى مكة ، وسوء مسلكهم ، لولا أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ألزمهم كلمة التقوى وكبح جماح غضبهم ، قال تعالى :

« وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيراً ، هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء

مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم ، فتصيبكم منهم معرة ، بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليماً » .

لقد أكثرت نوعا ما من سوق الشواهد ، ليتضح بجلاء أسلوب القرآن الكريم ، وهو يروى التاريخ الذى رأى المسلمون ، وأعداؤهم معا ، وقائعه وتطوراته : أو سمعوا منها ، من أهلهم وذويهم ، وأصدقائهم وجيرانهم ، وليتضح أيضاً أن هذا الأسلوب ذاته ، هو أسلوب الرواية القرآنية ، لأنباء الغيب ، وتاريخ ما اندثر وزال من الأمم والأقوام ، أو لأخبار الرسل ، وأخبار ما عانوه ، وتجشموه فى الدعوة إلى الحق ، وإلى مناهضة الباطل ، من عهد آدم عليه السلام ، إلى أيام محمد خاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم .

فالعناصر التى تتضمنها القصة أو الرواية القرآنية ، فى جميع الأحوال هى لا تتغير ولا تتبدل . فكل ما يخدم القصة أو النبأ وإظهار جوهرهما ، وارد فى القصة ، لا يحذف منه شىء ، ولا ينتقض فى قليل أو كثير ، وكل ما يخرج عن هذا الجوهر ، أو يعطل تأثيره أو ينتقص منه ، أو ينقله من مكانه ، بحيث يظهر عليه سواه ، أو بحيث يشاركه فى الظهور والوضوح غيره من العناصر ، لانجده فى أنباء وأخبار القرآن الكريم ، سواء كان هذا النبأ طويلا ، متعدد الحلقات ، يمتد لزمن غير قصير ، وتتداخل فى تطوراته شخصيات كثيرة ، كقصة يوسف عليه السلام التى استأثرت

بسورة كاملة أو كاد من آيتين أو ثلاث أو عشر كالأنباء والأحاديث العديدة التي انتشرت فى سور القرآن .

وهذا المنهج القرآنى القويم ، يحقق غايات كثيرة ، قد نقف نحن الآن على بعضها ، ولكن لا شك أن المتأملين والدارسين الذين سيأتون بعدنا ، سيرون فيها أكثر مما رأينا ، أو غير ما رأينا .

ولكن الذى لا تخطئه البديهة أو الفطرة ، أن تجريد أشخاص القصة القرآنية ، من ملابسات الزمان والمكان ، ومن الاسم والوصف والنعت ، تجعل هؤلاء الأشخاص ممثلين للإنسان المطلق فى كل زمان ومكان : الإنسان فى الموقف الذى تحكى الآيات القرآنية وقائعه ، فلا يكون عربياً ولا أعجمياً ، ولا يكون قديماً ولا معاصراً ، إذ أن الثابت ، أن عواطف الإنسان ومخاوفه ، وآلامه وأحلامه ، لا تتأثر كثيراً بالإقليم الذى يعيش فيه ، ولا بالعصر الذى يحيا خلاله، فما يتغير فى الإنسان بتغير الزمان والمكان ، هو المظاهر التى يتبدى فيها : الثوب الذى يرتديه ، والزى الذى يصطنعه . واللغة التى يتكلم بها ، والمواصفات والتقاليد التى يلتزم بها ، أما ما يتصل بقلبه ووجدانه ، فثابت حتى نرى أنفسنا ، فيما أحس به أبونا آدم وأمنا حواء ، فى الأيام الأولى من فجر حياة البشر ، قبل أن يدب على سطح الكرة الأرضية ، من أبناء آدم لا ولد ولا أنثى .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فثبت أن كل ما يرد فى القصص من تعاريف وأوصاف وتفاصيل ، هو قيود على خيال القارئ وتصوره ، بل إن مجرد الاسم الذى يطلق على بطل الرواية أو بطلتها ، يقف حاملا فى انطلاق خيال القارئ أو السامع فى حين أن تقديم البطل ، بوقائع القصة التى

اشترك فيها تطلق أمامهما مجال التصور ، فيزداد القارئ أو السامع استمتاعا بالقصة أو النبأ الذى يسمعه أو يقرأه . وتزداد حريته فى استنباط المعانى منه ، واستخراج المدلولات والمفاهيم . ولما كانت الغاية لما أورده الله تعالى فى كتابه الكريم من الأنباء والأحاديث هو شهية نفوس البشر . لما يريده الخالق العظيم سبحانه لهم من السمو والارتقاء عن سبيل التأمل والإحساس . والتلقى والاسترشاد ، فتجريد الأسماء من ملابسات الموقع والتاريخ ، أمعن فى تحقيق هذه الغاية ، وأفعل فى تحريك ثوى النفس الإنسانية ، المتخيلة والمدركة .

ولما كان هذا القرآن هو كتاب البشرية ، حينما نزل على النبي العربى صلى الله عليه وسلم وبعد أن يلحق بالرفيق الأعلى ، ثم بعد ذلك من أجيال وأحقاب وعهود ، وقد أصبح أليق بما فى هذا الكتاب من نبأ وقصة وحديث وذكر ، ألا يحمل طابع أمة ولا عصراً .

ولقد قرأت أخيراً بحثاً قام به العالم الهندى المسلم مولانا أبو الكلام أزاد ، وزير المعارف فى حكومة الهند عقب استقلالها ، أداره واضعه حول ذى القرنين الذى ورد اسمه فى سورة « الكهف » ، وقد بذل مولانا أبو الكلام رحمه الله ، جهداً مشكوراً فى إثبات أن المقصود « بذى القرنين هو الملك الفارسى قورش ، ولما فرغت من قراءة البحث ، تساءلت هل ازداد ما جاء فى القرآن عن ذى القرنين بعد هذا المبحث الجليل ، تأثيراً أو وضوحاً ، أم أن النص القرآنى ، مع خلوه من البيان المحدد لشخصية وعصر وصفة « ذى القرنين المحكى عنه ، مؤثر بألفاظه وبالأسلوب الذى سيقت به وقائع الجانب الذى رواه القرآن الكريم من حياة هذا الملك

العظيم ، وقد انتهيت بغير عناء إلى النص القرآنى الذى يجهل شخص ذى القرنين . فلا يضفى عليه وصفا ، ولا يحدد له تاريخاً ، ولا يعين السامع على تبين المناطق التى كانت مجال نشاطه فى أرض الله الواسعة ، أفعل فى نفس الإنسان ، من هذا المبحث وأمثاله الذى تصرف ذهن القارئ عن جوهر كلام الله تعالى إلى تفاصيل لا تقدم ولا تؤخر وهذا فى ذاته جانب من جوانب الله سبحانه فى الأسلوب الذى اصطنعه القرآن الكريم فى إيراد الأنباء والأخبار .

وقد عنون مولانا أبو الكلام أزاد بحثه بقوله : شخصية ذى القرنين فى القرآن » وبعد أن أورد الآيات الواردة فى سورة البقرة والتى جاء فيها قول الله تعالى :

« ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلوا عليكم منه ذكراً، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا » .

ثم قال ما مجمله :

إن ما ذكر فى الآيات من خصائص « ذى القرنين » يتلخص فيما يأتى :

١ — إن الذين سألوا النبى عليه الصلاة والسلام عن ذى القرنين هم يهود المدينة وكانوا يسمونه « بذى القرنين » فهذا الاسم أطلقه السائلون ولم يطلقه القرآن الكريم .

٢ — إنه كان ملكا هيأ الله له أسباب القوة ، وأنه خاض ثلاث مهام حربية كبرى ، كانت إحداها إلى الغرب من بلاده ، والثانية شرقية ، والثالثة وصلت به إلى مكان به مضيق جبلى يشن من ورائه قوم الغارات على أهل هذا المكان ، فأقام لهم سدًّا . يقيه غارات المغيرين ، وقد رفض أن

يتقاضى منهم عن هذا العمل الفذ أجراً .

٣ – إنه كان مؤمناً بالله وبالآخرة ، وكان لذلك عادلا رحيماً .

ثم انتقل إلى أقوال المفسرين المسلمين فى صدر الإسلام فقال إن أول ما شغل هؤلاء المفسرين اسم الرجل ولقبه ، إذ لم يعرف أن يكون لإنسان قرن ، دع عنك أن يكون له قرنان ، فقال بعضهم إن القرن كان رمزاً على طول حكم هذا الملك الذى امتد من نهاية قرن إلى قرن تال ، وأقول إن القرآن الكريم يستعمل لفظ قـرن بمعنى الجيل « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون » « ثم أنشأنا من من بعدهم قرنا آخرين » المؤمنون « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » يونس .

ولما بدأ عهد جديد للبحث اتجهت أذهان بعض المؤرخين إلى ملوك اليمن فظنوا أن ذا القرنين واحد منهم ، كما أن بعضهم كانوا يسمون « ذى الأذار » وقد ذهب إلى هذا الرأى البيرونى وتابعه عليه ابن خلدون .

ثم جاءت طبقة يصفها العلامة أبو الكلام بأنها أصحاب النظر فقال إن ذا القرنين هو الإسكندر الأكبر وقد كان ابن سينا أول من قال بهذا ، وأيده فى هذا القول الرازى وقد رفض العالم الهندى المسلم هذا الرأى لأنه لم يثبت فى التاريخ أن الإسكندر بنى سداً كالسد الذى جاء ذكره فى القرآن . .

وانتهى إلى القول بأن ذا القرنين هو بذاته وشخصه « قوروش » الملك الفـارسى الذى هدم بابل وأطلق سراح اليهود المأسورين فيها بعد أن هزمهم وسباهم بختونصر . وأيد هذا الرأى بأن السائلين كانوا من اليهود ، فلابد أن يكون ذا القرنين المسئول عنه على صلة ما بهم وبتاريخهم القومى ، ولما كان

« قوروش » هو الذى حررهم من الأسر . وأعادهم إلى الوطن ، فهو أقرب الملوك » لأن يكون ذا القرنين فإذا أضفنا إلى ذلك أن من أسفار التوراة المتداولة فى أيدى اليهود سفر دانيال ،وإن دانيال النبي كانت له رؤى رأى فى إحداها « كبشاً واقفاً على شاطئ النهر له قرنان عاليان ، وكان أحدهما منحرفا إلى ظهره ، ورأى الكبش ينطح بقرنيه شرقاً وغرباً وجنوباً لا قبل لحيوان بالوقوف أمامه » .

ولما سئل دانيال عن تفسير رؤياه قال إن الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد جزئى مملكة فارس : ماذا وفارس .

وقد جاءت بعد ذلك نبوءات من أسفار التوراة منهما نبوءات يشعياه ويرميا ، وقد ذكر فيها اسم قوروش باللفظ العبرى « خوروش » باعتباره المنقذ الذى سيخلص اليهود .

وقد ثبت عقيدة مولانا « أبو الكلام » على صحة استنتاجه ، كشف أثرى هام ، هو تمثال لقوروش بعينه وجدوه منصوبا فى مكان يبعد عن عاصمة إيران القديمة « اصطخر » نحو خمسين ميلا على شاطئ نهر « الرغاب » وقد سبق العالم الأثرى جيمس موريز وأخبر بوجوده ، ثم جاء بعد سنوات السير روبرت كير بورتو ونشر رسما للتمثال بقلم الرصاص ، وهذا التمثال فى طول القامة الإنسانية ظهر فيه قوروش وعلى جانبيه جناحان كجناحى العقاب وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش . وقد ثبت أن لقوروش ثلاث هجمات واحدة فى الغرب ضد كروس ملك اليونان وكانت مملكته تدعى ليديا وموقعها الأناضول الحالى وكان هجومه التالى فى الشرق ضد قبائل همجية فى ولايتى جيدوردبيا ، ويكتربا ، وهى تقع بين إيران

والسند وهى التى تسمى الآن بمكران وبلوخستان ، أما الهجمة التى بنوا فيها السد فقد كانت نحو الشمال ، إذ ذهب ليحصن حدود مملكته الشمالية مادا وهى منطقة إيران فى الشمال ، وهذه المنطقة تتاخم الجبال الفاصلة بين بحر الخزر وقزوين البحر الأسود ، وقد سميت فيما بعد هذه المنطقة بالقوقاز . وقد نزل قوروش على نهر هناك يسمى باسمه ولكن باللفظ اليونانى . وإن السد الذى بناه هناك ، حمى أهل هذه المنطقة من غزوات القبائل غير المتمدينة الواقعة فى شمال الموقع الذى أقيم فيه السد .

وليس لدينا شك فى قيمة البحث الذى قام به مولانا أبو الكلام رحمه الله رحمة واسعة ، وهو لون من البحث القائم على دراسة النصوص الدينية والتاريخية والنظر فيما كتبه الأجانب ومحاولة مقارنة النتائج والحقائق ، بروح العالم الممحص المدقق ، دون الرغبة فى فرض الرأى ، أو إقامته على أى سند ، ولكن ماذا أضاف هذا البحث – كما سبق القول – إلى المعانى التى أوردها كتاب الله العظيم ، والتى قصد إليها من نبأ ذى القرنين ومحاولة اليهود إظهار عجز الرسول عليه الصلاة والسلام عن الرد على أسئلتهم ، وقلة علمه بأخبار الأمم البائدة ، وأنه رد عليهم ، بما أسكتهم بدلالة أنهم لم يماروا فى هذه الإجابة ، فلم نجد فى القرآن عودة إليها ، ولا تعقيبا عليها .

التكنولوجيا بين لا إله إلا الله والحمد لله

نحن مفتونون « بالتكنولوجيا » لأنها تقرب البعيد وتذلل الصعب ، وتجمل الحياة وتأتى بالعجائب والمبتكرات ، فقد صعدت بالإنسان إلى أعماق الفضاء ، ووصلت به إلى أغوار الماء ، وأنطقت الجامد ، وألهبت الخامد ، وسجلت الهمسات التى لا تكاد تسمع ، وقيدت الهواجس التى لا تكاد تبين .

ولكن إذا قيل إن هذه « التكنولوجيا » هى ثمرة مباشرة للإيمان الذى جاء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يبشر به ، ويدعو إليه ، والذى لخصته شهادة ألا إله إلا الله ، لم نصدق هذا ، وحسبنا أن ذلك تعصب للإسلام لا يقوم على حجة من الحجج التى يؤمن بها العقل ، ويطمئن إليها المنطق .

ومع ذلك فإن كتب أهل « التكنولوجيا » من أساتذة علم ومؤرخى حضارات يؤلفون عشرات الكتب بل مئاتها فى إثبات أن العرب الذين آمنوا بهذه العقيدة ، وحاربوا لها ، وأذاعوها فى العالمين هم الذين وضعوا أسس العلم الحديث ، وأقاموا بنيانه ، ورسموا منهاجه وفتحوا مدارسه ، وقعدوا قواعده ، وأن هذا العلم هو الذى قاد إلى « التكنولوجيا » .

فالتكنولوجيا حقًّا وصدقاً هى ثمرة لا إله إلا الله وقد تأكدت وزادت وضوحاً ورسوخاً بعقيدة أومذهب (الحمد لله) .

ولكى نؤمن بهذه المقولة ، يجب أن نفهم مدلول (لا إله إلا الله) فى مجال العلم والعقل والمعرفة . إنها لتبدو لأول وهلة عقيدة يراد بها التعبد الصحيح لله ، وتنزيهه عن الشريك ، أيا كانت صفة هذا الشريك من ملائكة أوجن أو بشر ، سواء كان معيناً أوابناً أو زوجة ، والواقع أنها كذلك ، ولكنها فوق ذلك تعنى شيئاً آخر جد خطير ، تعنى تحرير العقل من كل الخرافات ، والأكاذيب ، وترسم للعقل طريقاً وحيداً وواضحاً لتحصيل المعرفة هو التأمل فى هذا الكون ، ومفرداته وعناصره ، وطريقة سير أفلاكه ونجومه ، وتطوره ونشوئه وجمع هذه الحقائق الكثيرة ، وتبويبها ، وتحليلها ثم استخلاص النتائج الكلية لها ، ثم تفريغ الحقائق الفرعية عليها ، وبالجملة . وضع أساس العلم التطبيقى ، الذى أدى إلى ما نرى من التقدم الآلى الذى نرى آثاره فى كل فرع من فروع الحياة الحديثة .

بدأت (لا إله إلا الله) فى أقرب المجالات لها ، وهومجال الدين والعبادة فارتقت بفكرة الألوهية ، إلى أقصى ما وصلت إليه ، من « التجريد » و« التسامى » وبعد أن ارتقت فكرة الإله من مرتبة الوثن المصنوع من أحقر المواد ، من الخشب أو الحجر ، ومن مرتبة الإله المكلف لعابديه وأتباعه ، لأنه من ذهب خالص أو من صخر لا يلين للحديد ، ولا يستجيب للنار ، ثم من مرتبة الإله الذى يتجسد شخصيا ، ومن الإله الفكرة التى تقوم على الازدواج ، وصلت بفضل القرآن والإسلام ، إلى الإله الذى لا ينتمى لشعب ، ولا لإقليم ولا لجنس ، ولا للون والذى لا يحد بمكان ولا زمان ، فهو الإله الذي ليس كمثله شيء ، الذى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك

الأبصار » . (الأنعام ١٠٣) ، وهو رب العالمين فى المشارق والمغارب فى الماضى والحاضر والمستقبل وهو خالق كل الأشياء وكل الأحياء « وإلى الله ترجع الأمور » (٢١٠ البقرة) .

وبما أنه خالق هذا الكون الفسيح المترامى ، الذى لا نعلم عنه إلا شيئاً قليلاً غاية فى القلة ، ضيئلاً إلى أقصى الحدود . « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (٨٥ الإسراء) ، فإن هذا الكون الذى يبدو أكواناً لأن خالقه واحد يسوده قانون واحد ، وإذا تعددت الأكوان تعددت القوانين وأصبح العلم الواحد مستحيلاً ، ولما كان هذا الإله الذى لا تتناهى قوته ولا قدرته أبديا أزليا ، لأنه الأول والآخر والظاهر والباطن ، فقوانينه الصادرة عنه دقيقة منتظمة لا يتطرق إليها خلل ولا يعتريها ما يعترى قوانين البشر من وهن ، ولما كان هو فى كلامه المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم قد قال « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (الفتح ٢٣) ، وقال « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً » (الإسراء ٧٧) ، ومن الميسور أن نتبين هذه السنن بالتأمل فيها ، واستنباطها بالنظر والتأمل والتدبر والتعقل ، ولقد وضعت قاعدة (لا إله إلا الله) فى الكتاب الذى أنزل لبيانها ولبيان أحكامها ، أسس هذا التكامل لكثرة ما امتلأت به سوره وآياته من الدعوة إلى ذلك التأمل بأكثر من صيغة ، وفى مئات المواضيع فى القرآن الكريم . فبلفظ انظر ، وما يشتق منها ، قال الله تعالى :

« فلينظر الإنسان مم خلق » (الطارق ٥) .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه » (عبس ٢٤) .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت. وإلى الأرض كيف سطحت » (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ الغاشية) .

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » (الأعراف ١٨٥) .

تنوع الأهداف

وقد تنوعت النظرات وأهدافها فى القرآن الكريم ، فمنها ما كانت غايته تقريراً لحقيقة اجتماعية مثل قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » (١٠٩ يوسف) ، « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة » (غافر ٨٢) . ومنها ما كانت غايته تقرير حقيقة طبيعية ، أو دعوة إلى تدبر هذه الحقيقة : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » (ق ٦) . « فانظرْ إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » (٥٠ الروم) ، ومنها ما كانت غايته تقرير حقيقة (بيولوجية) متعلقة بعلم الأحياء ، وعلم أصل الإنسان : « فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة » (الحج ٥) « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة » (المؤمنون ١٣ ، ١٤) .

ومنها ما كانت غايته تقرير حقيقة متعلقة بعلم النبات : « والنخل باسقات لها طلع نضيد » (ق ١٠) ، وما زال كتاب الله يلفت عين الإنسان ونفسه وعقله ، ويلح عليه إلحاحاً متصلاً ليجعل التفكر والتعقل

والتدبر وسيلته التى لا ينفك عن استعمالها ، ولا يسأم من الرجوع إليها والاعتماد عليها فمن ذلك :

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (البقرة ٢١٩) .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » (الأنعام ٥٠) .

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم » (الروم ٨) .

« الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » (آل عمران ١٩١) .

ومن ذلك بلفظ يعقلون : « كذلك يحى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » (البقرة ٧٣) .

« إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (يوسف ٢) .

« وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون » (المؤمنون ٨٠) .

« وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (البقرة ١٦٤) .

ومن ذلك أيضاً بلفظ يتدبرون :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (محمد ٢٤) .

« أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » (المؤمنون ٦٨)

وأخيراً بلفظ يتذكرون :

« وسع ربى كل شيء علماً أفلا تتذكرون » (الأنعام ٨٠) .

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (الذاريات ٤٩) .

« ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » (الواقعة ٦٢) .

وما زال كتاب الله العظيم يدير عقل الإنسان وعينيه وحواسه كلها ليرى صور هذا الكون الصغيرة والكبيرة . فى السموات والأرض معاً ، إما فى السماء وحدها ، أو فى الأرض وحدها ، أوما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما يجرى فى كواكب السماء ونجومها ورجومها وأفلاكها ، وما ينعقد فيها من سحاب ، وما يهب من رياح ، وما يلمع من برق ، وما يدوى من رعد ، وما يضطرب فى البحر من أمواج ، وما يصيب الفلك فيها عند العاصفة ، وعند ركود الماء ، وينتقل من الذباب إلى السحاب ، ومن العنكبوت إلى البعوضة ، ثم إلى البحار والأنهار ، ومن النحل إلى النمل ، ومن الليل إلى النهار ، ومن الحر إلى البرد ، ومن الغنى إلى الفقر ، ومن العز إلى الذل ، ويتعقب الإنسان تراباً ثم نطفة فمضغة فعلقة فعظاما ، فطفلا يحبو إلى شيخ فان حتى يعود إلى الأرض ثم يصبح عظاماً نخرة . « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً » (٦٧ غافر) .

ولسنا نستطيع أن نورد كل ما احتواه القرآن الكريم من هذه الصور ولكن حسبنا أن ننقل هنا ما جاء فى سورة النحل . فقد احتشد فى موضع واحد من صور هذا الكون العظيم قدر غير قليل قال الله تعالى : « خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل

من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى . . . » (من ٤ إلى ١٥ النحل) . .

ولا يذكر تاريخ العلم من أول أن خلق الله آدم حتى اليوم كتاباً قبل القرآن ولا بعده قرع أسماع الناس ولا طرق أفهامهم ، بمثل ما قرعت آيات القرآن أسماعهم وعقولهم ، بصور هذا الكون وغرائبه وعجائب صنعته ، ولطائف مخلوقاته ، وإثبات قوانينه ، وكان هذا وحده كافياً لإثارة أشواق المسلمين إلى الوقوف على أحكام هذا الكون وقوانينه .

ولكن القرآن أضاف إلى هذا كله ، وهذا كله مجتمع ومتفرق ، شيء جديد ، وبالغ أشد درجات التأثير فى القلوب والعقول والوجدان ، بحلاوة عبارته ، وعذوبة صيغته ، وجمال أمثلته وروعة صوره ، ولكنه قد أضاف إلى هذا كله شيئاً آخر ، هو تقريره بأن الله سخر للإنسان هذا الكون بشمسه وقمره وسحابه وأرضه ، وهوائه ومائه وجباله وأنهاره ، ووهاده ونجاده ، واقتران دعوة القرآن للإنسان إلى النظر والتأمل والتدبر والتعقل فى كل ما يحيط به ، وفى نفسه ، وفى الآفاق ، بتقرير أن الكون مسخر له ، أدرك المسلمون أنهم إذا اهتدوا إلى سنن هذا الكون الثابتة

استطاعوا أن يسخروا هذا الكون ، وما له من قوى هائلة ، فى خدمتهم وصلاح أمورهم ، وزيادة أرزاقهم وتقرير قوتهم وصلاحهم .

وقد أنتج هذا كله ، وضع أسس للعلم التطبيقى القائم على التجربة ، وغير القائم على الفروض النظرية وحدها .

وبهذه الروح الجديدة بدأ فى العلم فصل جديد ، هو فصل التجربة ، واحترام ما تثبته هذه التجربة ، والاستمرار فى إجراء التجارب ، بكل وسيلة جديدة تتاح ، وبكل أسلوب من أساليب البحث يهتدى إليه ، والعدول عن النتائج السابقة عندما يثبت كذبها أو عدم صحتها ، واختلاطها ببعض الخطأ ، وتنقيتها منه وهكذوا دواليك وبذلك كله سبق العرب غيرهم من الأمم فى نواح من المعرفة الإنسانية ، بعضها كان معروفاً وبعضها كان من ابتكارهم البحث ، ولما تتلمذ عليهم علماء من الغرب ، إما بطريق مباشر ، أى بطريق أخذ العلم عن علماء المسلمين ، ومشافهة أو بطريق قراءة ما تركه هؤلاء العلماء من كتب ضخمة .

وقد كان روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٢ م) أول رائد للعلم التطبيقى فى أوربا ، ممن تلقوا العلم على أساتذة من علماء العرب ، وبعد بيكون والروح التى نقلها عن العرب وجدنا سماء المعرفة فى أوربا تضىء بأسماء كوبر نيكوس فى القرن السادس عشر وكيلر وجاليلو فى القرن السابع عشر ونيوتن فى القرن الثامن عشر وداروين فى القرن التاسع عشر .

وقد جاء على إثر روجر بيكون ، سميه فرانسيس بيكون المولود فى ١٥٦٠ م والمتوفى سنة (١٦٢٦ م) فاستقر بفضله المنهج التطبيقى ، ومضت مناهج البحث الجديدة فى طريقها تؤتى آثارها وخيراتها

وقد أثبت مؤرخو العلم الحديث فى أوربا دين هذا العلم للعرب ، ودراساتهم ومؤلفاتهم والروح التى أخذوها عن القرآن بالنظر فى الكون ، وتتبع آثار قوانين الله فى كل صغيرة وكبيرة فيه ، وليس فى وسعنا أن ننقل كل أقوالهم ، ولكن يمكننا الاجتزاء ببعض ما قالوه ، فقد قال سارتون مؤلف مقدمة « تاريخ العلم » : أريد أن أتكلم عن (معجزة) العلم العربى ، فأوردت كلمة (معجزة) لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه العرب فى الثقافة والعلم ، مما يخرج تقريباً عن نطاق التصديق ، وليس لذلك شبه فى تاريخ العالم كله .

ثم قال وأعظم الابتكارات العربية فى الرياضيات والفلك شيئان : علم الحساب الجديد ، وعلم المثلثات الجديد .

أما درابر فيقول :

لما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور ، فى سنة ٧٥٣ م إلى سنة ٧٧٥ م نقل عاصمة الملك إلى بغداد ، وجعلها عاصمة فخمة ، ثم بدأ فى نشر العلوم الفلكية وتأسيس مدارس الطب والشريعة ولما تولى حفيده هارون الرشيد ٧٨٦ م اقتفى أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية ، وأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد فى جميع أرجاء ملكه ، ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الآسيوية لم يشرق إلا فى خلافة المأمون الذى تولى الخلافة سنة ٨١٣ حتى ٨٣٢ م ، فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى وجمع إليها كتباً لا تحصى وقرب إليه العلماء ، وبالغ فى الحفاوة بهم .

هذا الذى قاد العرب إلى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمستكشفين لعدة أجهزة للتقطير والتصعيد والإسالة (إسالة الجوامد)

والتعبئة . . إلخ ، وهذا هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة وآلات القياس لأبعاد الكواكب وهو أيضاً الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظرية الميزان ، وهو الذى هداهم إلى عمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية ، وجداول تعرف بها حركات الكواكب ، مثل تلك التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند وهو أيضاً الذى حقق لهم القدرة الباهرة فى الهندسة وحساب المثلثات ، وهو الذى أدى لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندسية . . هذا هو ثمرة تفضيلهم لأسلوب أرسطو الاستدلالى على مقالات أفلاطون الاستنتاجية .

فضلنا على الحضارات :

وثمة غير هؤلاء عشرات من كبار المؤرخين الأوربيين الذين اعترفوا بفضل المسلمين على العلم الحديث ، ونحن ننقل عن « كتاب مآثر العرب على الحضارة الأوربية » للأستاذ جلال مظهر ، بعض ما قالوه فى هذا الصدد موجزاً حيناً ، وببعض التصرف حيناً آخر .

قال سارتون « حقق المسلمون ، عباقرة الشرق ، أعظم المآثر فى القرون الوسطى ، فكتب أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية ، وكانت هذه اللغة من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر ، لغة للعلم ولارتقاء الجنس البشرى ، لقد كان ينبغى لأى إنسان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها ،

أن يتعلم اللغة العربية ، وقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها » .

وقال جوستاف لوبون « إن البحوث التي أجراها د ينو وفافيه ، والتي سبقهم إليها « كاسيرى » و« أندريه » و« فياردو » أثبتت بوضوح أن البارود ذا القوة الدافعة باعتباره مادة متفجرة تعمل على دفع القذائف . . اختراع عربي أصيل لم يشارك العرب فيه أحد ، عرفوا كيف يخترعون ويستعملون القوة الناشئة عن البارود ، وباختصار فهم الذين اخترعوا الأسلحة النارية .

وقال « سيديو » المؤرخ الفرنسي الكبير « قال همبولوت ينبغي علينا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية ، آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية فى عصرنا هذا .

وقال « ريتشارد كوك » تدين أوربا بالشيء الكثير لأسبانيا العربية ، إذ حملت قرطبة مصباح العلم ، وضاء فى زمان كان العلم فيه فى بلدان أوربية أخرى ، خافتا كبصيص نار مختنق ، إن التصور الخلاق الذى استطاع أن يقيم صرحاً كقصر الحمراء ويبنى مسجداً للعبادة كجامع قرطبة ، إنما يعطينا مثلاً للفارق البعيد بين هؤلاء والهمجية الطليقة التى كان يتردى فيها الفرنجة والنورمان .

وقال « شارلز سنجر » « إن طالب العلم الأوربى الشغوف بالعلم المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة – ذلك الذى كانت لا ترضيه الدراسة فى باريس أو بوردو أو أكسفورد والذى كانت تأخذ بلبه الأخبار المتناقلة عن عجائب العلم والحكمة العربية – إنما كان يذهب للدراسة فى طليطلة أو قرطبة » .

مقومات العلم الحديث :

وقال « نيلسون » قد صحب هذا التوسع نشاط فكرى ، لا عهد للشرق بمثله من قبل ، فقد لاح أن الناس فى العالم كله ، ابتداء من الخليفة إلى أقل المواطنين قد أصبحوا طلاباً للعلم ، أوعلى الأقل مناصريه ، وكان الناس طلباً للعلم ، يسافرون عبر القارات الثلاث ، ثم يعودون إلى بلادهم ، وكأنهم نحل تشبع بالعسل ، ليفضوا بما جمعوا من محصول علمى ثمين إلى حشود من التلاميذ المتشوقين للعلم ، وليؤلفوا بهمة عظيمة ، الأعمال التى اتصفت بالدقة وسعة الأفق والتى استخدمها العلم الحديث — بكل ما تحمله هذه العبارة من معان — مقومات له بصورة أكثر فاعلية مما نفترض » .

وقال « دوق البا » إن أهم اكتشاف للعالم « مبجبل آسين » قامت عليه شهرته ، هو موضوع كتابة « الكوميديا الإلهية ، والإسلام » ويعنى به اكتشافه أن النماذج الإسلامية هى التى أوحت لدانتى ب « كوميديته الإلهية » وأما الدانتيون الإيطاليون خاصة ، فلم يعترفوا إلا على مضض بأن الأصول الإسلامية ، كانت الأساس الذى بنيت عليه « الكوميديا الإلهية » تلك القصيدة التى تمثل ثقافة أوربا المسيحية برمتها فى القرون الوسطى .

مقدمة ابن خلدون :

وقال المؤرخ البريطانى المعاصر الشهير « أرنولد توينبى » وضع ابن خلدون فى مقدمة تاريخه فلسفة التاريخ ، ولا شك أنها أعظم عمل من نوعه ،

ابتكره عقل فى أى زمان أو مكان » .

وقال « روبرت فلنت » عن نفس هذا العمل (أى مقدمة ابن خلدون) . إن أفلاطون وأرسطو وأوغسطين ليسوا من أنداد ابن خلدون . أما الآخرون فلا يستحقون أن نذكر أسماءهم إلى جانب اسمه .

ونحب أن ننقل أيضاً عن « جون درابر » العالم الأمريكى المنصف للإسلام والعرب فى كتابه « تطور أوربا الفكرى » الجانب الآخر من أثر الإسلام على مسلك المسلمين فى المعاملات الإنسانية والذى هو أثر الثقافة الإسلامية فيهم ، قال « وفى فلسطين أثناء الحرب الصليبية ، كم كانت طبائع العرب التى خبرها الغربيون بأنفسهم ، غير متوقعة لديهم ، ذلك بأن الذين دفعوهم إلى القيام بهذه الحروب قد صوروا لهم العرب على أنهم أشرار متعطشون للدماء ، غير أنهم وجدوهم شجعاناً رحماء عدولاً ، أما الجنود حتى أدنى أتباع الجيش ، فقد تحتم عليهم أن يعترفوا بالفرق بين ما كانوا يتوقعون وما لمسوه بأنفسهم فعلاً ، شاهدوا شجاعة فائقة وفروسية فذة وثقافة عقلية أرقى بكثير مما عندهم ، لقد كانوا فى بقاع تملأ أرجاءها أعاجيب المهارة الإنسانية حتى إنهم لم يفعلوا عندما عادوا إلى أوطانهم إلا أن ينقلوا إلى شعوبهم ما انطبع فى نفوسهم من أثر عميق قدر له أن يظل باقياً على مر السنين .

الحمد لله . . والحركة العلمية :

ولكن قد يقول قائل وما صلة « الحمد لله » بهذه الحركة العقلية العلمية العظيمة التى قام بها العرب ، والتى اتصلت اتصالاً وثيقاً بالحضارة

الحديثة ، وبحركة العلوم فى أيامنا هذه .

والحق أن الحمد لله ، هيأت المسلمين والعرب ، للتطور العقلى والتهيؤ العلمى الذى أعانهم على أن يصنعوا أسس العلم التطبيقى والتجريبى ، الذى أثمر « التكنولوجيا » الحديثة فالحمد لله — كما نص عليها القرآن الكريم — هى دعوة ذات جوانب ثلاثة عقلية ، ووجدانية ، ونفسية وكلها مفضية إلى التفكير والتأمل فى الكون ، على وجه يستقصى عناصره ، ويستنبط أحكامه ويستخرج قواعده ، فهى دعوة للتأمل العقلى فى كل ما ينطوى عليه هذا الكون الفسيح ، من صور العظمة والصنعة المحكمة والابتكار الفذ . فالمسلم المؤمن بعظمة ربه وبتساميه وفعاليته وتفرده ، استيقظ عقله ، ليزداد إيماناً بهذه العظمة ، وذلك عن مزيد من الجهد ، فى تبين دلائل هذه العظمة والإعجاب بها ، والتحدث إلى النفس وإلى الغير عنها .

وهى دعوة وجدانية ، لأنها تستحثه على تبين الجمال فى هذا الكون ، وفى العلاقات الإنسانية التى تربط الناس بعضهم ببعض ، وفى آثار رحمة الله ، ولطفه بعباده ، مما يزيد الإنسان رقة وعطفاً وحرية وتسامحاً ، فيزداد بذلك قدرة على التفكير المتسق الذى لا تشتته وتبدد قواه ، عوامل الكره والحقد والخوف والشك والتردد .

دعوة للاطمئنان والراحة :

أما أنها دعوة نفسية ، فذلك لأنها تؤنس الإنسان فى هذا الكون الفسيح المترامى ، فلا تخيفه من اتساعه ، ولا تلقى فى نفسه الجزع إذا

لمعت بروقه أو دوت رعوده أو توالت فيه الزلازل ، والبراكين والفيضانات ، لأنها تجعله يطمئن إلى قوة عاقلة ومدركة ورحيمة ، تدير هذا الكون وتشرف عليه وتؤكد للناس فيه أن خالقهم يبلوهم بالشر والخير فتنة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » (البقرة ٢١٦) ، وبروح هذه الطمأنينة ، وبفضل هذه السكينة ، تصبح الحياة مجالاً للإنتاج المثمر الهادئ ، فتكون سبل البحث عن الحقيقة مفتوحة للإنسان ، دون أن يصرفهم عنها تشاؤمهم ، وانقباضهم واعتقادهم بأن هذا الكون ، مكان كريه ومخيف ليس فيه إلا الكوارث والمصائب وأنه لا جدوى من البحث والاستزادة منه ، لأن كل شيء ما خلا الله باطل .

والمسلمون يفهمون قول الله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » (إبراهيم ٧) . لا على أن حمد النعمة يبقيها ويزيدها فقط ، بل لأن التأمل في كل ما هو جميل ورائع في هذا الكون ، من الماديات والمعنويات ، يزيد الإنسان في نفسه علماً ورقة وسعة أفق ، وقدرة على الابتكار والإضافة أشبه شيء بمن يقف مأخوذاً أمام لوحة جميلة ، من صنع فنان من البشر . فالذين يعرفون كيف يبحثون فيها عن أسرارها وحسن صنعتها يشعرون باللذة والارتياح ، وهذا الشعور يهيء الإنسان للعمل النافع والخلق الذى يقود الآخرين إلى مثله .

وإذا كان هذا التأمل ممن يمارسون فن الرسم ، فإنه يزداد علماً بهذا الفن ، وكذلك الحال إذا كان العمل الفنى كتاباً يقرأ أو موسيقى تعزف ، أو بناء يشاد ، أو خطبة تلقى فالانتباه والدراسة الفاحصة ، وحب الأثر الذى يمر عليه الإنسان يؤيد من أحبه وقدره فى الحال فى حين أن الذين

يمرون على آيات الكون ، دون أن يحمدوها ويشكروها ، فهم يغلقون نوافذ أنفسهم فتضمر قلوبهم وعقولهم .

عقيدة صنعت الحضارة والعلم :

وهكذا يرى الإنسان أن عقيدة ألا إله إلا الله وعقيدة الحمد لله صنعت فعلاً الحضارة الحديثة وصنعت التكنولوجيا ، وصنعت الإنسان العاقل المفكر المتدبر .

الإسلام والمذاهب (الحديثة)

فى بداية العقد الرابع من القرن الحالى ، كانت « النازية » ، قد بلغت قمة نجاحها وسط حيرة وارتباك خصومها ، وتساؤل ودهشة المحايدين من المراقبين والسياسيين والمؤرخين .

ولم يكن نجاح ذلك النظام ، عسكريا فحسب وإن كان الجانب العسكرى ، قد بلغ حد الإعجاز البشرى ، إذ حاربت ألمانيا بفضله كل القوى الحربية فى العالم المتمدين ، فهزمتها جميعاً – ولكن الجانب العسكرى لم يكن سوى الوجه الظاهر ، لحشد هائل من ملكات التفكير والتنظيم والاختراع والاحتيال ، والإسهام والتأثير ، فى دروب الحكم والاقتصاد والدعاية والتموين والنقل والمواصلات ، والطباعة والنشر ، والحرب النفسية .

النظام النازى

وقد بلغ هذا النجاح أقصى الغاية ، حينما استطاع أن يضم إلى صفه ، كبار رجال السياسة والفكر ، فى المعسكر الأوربى والأمريكى الذى يكره ألمانيا بطبيعته ويكره أنظمة الحكم الشمولية أو الكلية ، التى كانت النازية أوضح وأظهر نماذجها فقد اجتمعت كل السلطات فيها

فى حزب واجتمعت سلطات الحزب فى زعيم وحسبك أن تعلم أن بطل أبطال فرنسا عدوة ألمانيا التقليدية ، وضع يده فى يد زعماء ألمانيا النازية الدولة التى قهرت أمته ، وهزمت شعبه ، وفرضت على فرنسا ، أكثر المعاهدات إذلالاً ، وأشد أنواع الاحتلال امتهاناً ، ولم يكن هذا القائد سوى البطل القومى « بيتان بطل فرنسا فى موقعة » « فردان » ، فى حين كان أكثر الرأى العام السياسي فى الولايات المتحدة يضمر الإعجاب بألمانيا وقد كان على رأس هؤلاء جميعاً « كندى » سفير الولايات المتحدة إلى لندن « الدراجون كندى » أشهر رؤساء الولايات المتحدة فى نصف القرن الأخير .

ولا يحسبن أحد أن هذا مقدمة بحث عن (النازية) ، وإنما هو حديث متصل بهذا الكتاب عن (الإسلام والمذاهب الحديثة) ، والإطالة فى إيراد ما تقدم ، الغاية منه ، إثبات أن علماء المسلمين وزعماءهم المشغولين بجانب الفكر والنظر ، من حياة إخوانهم وشعوبهم وأممهم ، لم يكونوا بدعاً بين أشباههم ونظائرهم فى الأمم الأخرى التى خلبت (النــازية) أنظارها ، وأوهمتها ، بأنه نظـام جدير بالحياة ، وقادر على البقاء بل إنه الحل الأسمى لأزمة أوربا والغرب كله لذلك ليس عجباً ، أن يتقدم بعض علماء المسلمين حينما نفــد صبرهم من زحزحــة الاستعمار الغربى من موقفه المتعنت والمتعالى ، بعد طول الملاينة ، ثم المقاومة ، والمجاهدة ، ولعله مما استدرج هذا الفريق من علماء المسلمين إلى ما انتهوا إليه . موقف دول الغرب آنذاك ، أى فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية وطوال مدتها (١٩٣٩ - ١٩٤٥) من قرحة فلسطين الملتهبة ، وتأييد بريطانيا ثم الولايات المتحدة ثم الغرب كله لاستيلاء اليهود

عليها ، وطرد العرب أصحابها منها ، فى الوقت الذى كان يعلن فيه هتلر حربًا صليبية على اليهود ، فى كل أنحاء العالم ، محملاً إياهم مسئولية كل مصائب الدنيا من حروب وأزمات مال واقتصاد ، وانقلابات ودسائس ، وإيقاد فتن .

ولست أنسى ليلة ضمت عدداً من زعماء العرب والمسلمين ، فى دار واحدٍ من كبارهم فى القاهرة ، والحرب ، تبدأ أول أدوارها ، والجميع حيارى ، لا يعرفون ماذا يفعلون ، وإلى أى جانب يتحازون ، وأى طريق فى الحرب والسياسة ، يسلكون . ثم بدأ الكلام شيخ ذو لحية طويلة بيضاء ، تهتز فى رفق على صدره ، الفسيح العريض ، كلما نطق ، قال الشيخ ، فى رصانة يمازجها أسى عميق ، وحزن غائر ، تخفيه ملامحه الوقورة ، ونبرات صوته العريض : « صدقونى يا أولادى ، أن ما ترونه من نجاح ألمانيا ، وزعيمها ، دليل على صدق نظر الإسلام ، وصحة مبادئه . ما يحدث بالضبط هو تطبيق للجانب المادى البحت من الإسلام ، فلو أضيف إلى النازية ، الجانب الروحى الذى ينقصها ، لبرئت من العيوب التى تشينها ، وجنبتها الأخطاء والجرائم ، التى تسود صفحتها

فصدرت أصوات استنكار من ناحية فى المجلس ، وأصوات احتجاج من جانب ، وأخيراً أصوات تساؤل واستفهام من ركن ثالث ووجد الشيخ صعوبة فى استئناف الكلام ، ولكنه استطاع آخر الأمر أن يتكلم ، وأن يحمل الناس فى المجلس على الإنصات : —

من حقكم أن تنكروا على أن أقرن الحركة النازية المادية المتجبرة ، بالإسلام السمح . ولكن سنحرم أنفسنا من الوصول إلى الحقائق ،

والانتفاع بها ، كلما رددنا أنفسنا عن أن نناقش أموراً قد يكون فيها الحق ، لمجرد مراعاة أمور تواضعنا على التزامها واحترامها . أنا رجل شابت رأسه فى دراسة القرآن وتدريسه ، والدفاع عن الإسلام والذود عن حياضه ، ما استطعت . ولكن هل يعجبكم حال الإسلام والمسلمين ، التى تعرفون . . وما سر هذه الحال عندى ، إلا أننا نغمض أعيننا عما يجرى حولنا ، بدعوى أو بأخرى . النازية – بعد طول التفكير – هى الإسلام بعد إسقاط الجانب الروحى منه . وقد تسألون ، وماذا يبقى من الإسلام ، إذا سقط الجانب الروحى منه . وأحذركم أن تقولوا إن الإسلام روحانية بحتة فهذا خطأ كبير ، الإسلام بناء ومادة وقواعد حياة وأصول حكم ، وتجارة وصناعة وزراعة ، وزواج وطلاق . حياة بشرية كاملة ولكن يحيط بهذا كله ويرفعه إلى مستواه الأعلى ويجمله ، ويجلله روح سامية هى الإسلام . والله قد خلق آدم أولاً بيده ، خلقه من صلصال من حمأ مسنون ، خلقه من طين لازب . خلق جسمه أولاً ، أرجوكم أن تسمعوا وأن تفهموا . فبناء آدم المادى وجدتم نفخ الله فيه من روحه .

والله تعالى قال إنه خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم عقب تبارك : « ثم رددناه أسفل سافلين ، هذا شأن الجسم المادى ، إلا أن رحمة الله تداركته فقال . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . افهموا هذه الحلقات وعوها جيداً ، لتعرفوا الإسلام ، ولتدركوا دوره ، ولتهتدوا إلى سبيل تجديده وبعثه . فالبناء الإسلامى بقى مزدهراً رفيعاً ، تموج فى أبهائه طوائف العلماء والمفكرين والشراح والمفسرين ، والفقهاء والمجاهدين ، مع أن روح الإسلام كان قد نالها ما نالها ، بسبب انصراف المسلمين عن دينهم

وانشغالهم بدنياهم ، ولكن كانت روح الإسلام تشع نورها ، وإن حجب قليلاً عن القلوب . . وبقى البناء ، يزدهر ويرتفع ، ويبدوجميلا ، وإن كانت مصابيح الأنوار السماوية تنطفئ فيه ، مصباحاً بعد مصباح . والغاية من هذا التشبيه أن أقرر أن المظهر المادى للإسلام بقى ، وإن كان إيمان المسلمين ناله الضعف شيئاً فشيئاً ، بل لعل المظهر المادى ، زاد ضخامة ورواء ، بما فتحه الله على المسلمين من أراض وأقاليم ، وبما ساهم به علماء المسلمين ، وفقهاؤهم وفلاسفتهم فى تعليم الأمم وتلقينها والأخذ بيدها . ولكن الحقيقة لم يكن ممكناً إخفاؤها كان هذا البناء الباذخ يتحول شيئاً فشيئاً إلى بناء يسكنه المسلمون ولا يملكونه . أكثره مأخوذ ومنحول ومستعار من غيرهم وإن كان اللواء الذى يرفرف على أعلى سارية فيه ، هو لواء الإسلام ، وإن كان الشعار المكتوب على مدخله هو آيات من القرآن ، . . فإذا فهمتم ذلك ، فقد استطعتم أن تفهموا ما الذى أعنيه أن النازية هى التطبيق المادى للإسلام الذى يرينا كيف نجدد بناءنا ، مادة ورحاً .

« فما هى النازية فى رأيى أنا بوصفى من المسلمين ؟ . إنها زعيم متجرد للمصلحة العامة من عامة الشعب وفقرائهم . ولا أحد ينكر أن زعيم النازية ، يفيض حبا لبلاده وإعجاباً بها . قولوا عنه ما شئتم الا أن تنكروا عليه ذلك . ثم هو يعلن أنه يمثل المصلحة العامة ، لأنه لا يسعى إلا لها . ومن هنا فأنصاره يقولون عنه إنه زعيم معصوم . وأنه أقدر على تبين ما تقتضيه المصلحة القومية العليا لبلاده على وجه أسلم وأوضح من مئات المجالس النيابية ، التى لا يصل أعضاؤها إلى مقاعدهم فيها ، إلا بما نعرف كلنا

من وسائل شراء ذمم الناخبين بالمال ، والتأثير ، والوعد والوعيد .

فنفقه البداية فى النازية ، هى رجل قوى ، مؤمن حقًّا بما يقول لا يخجل أن يقول ما يؤمن صراحة ، بدلاً من هذا الهراء الذى تروجه ديموقراطيات الغرب ، من الإيمان بالشعوب والجماعات ، التى يضحكون عليها ، وتقاد من خطامها فنقطة البداية هى أن الرجل المتجرد للمصلحة العامة يضم حوله رجالاً قريبين منه وشبيهين به فى التجرد لها ، والفناء فيها . لا يصلون إلى مكانهم بالانتخاب وإنما بالجهاد والمضى على طريقه ، لا يترهلون من الاستسلام للراحة والإخلاد إليها .

والنقطة التالية ، هى أن هذه الجماعة ، وعلى رأسها ، زعيمها ، لا تعمل شيئاً إلا بالتشاور فيه ، وتبادل الرأى . هذه هى الشورى . شورى الرجال الصالحين الذين أظهرهم الجهاد ، وبرزوا فى ميادين العمل الصالح ، فى الحرب والسلم ، ثم النقطة الأخيرة ، هى الناس . نعلمهم بشىء واحد ، هو القدوة الصالحة . بإنكار الذات ، بزهد القادة فى مباهج الدنيا ، فالانقطاع الكامل للعمل من أجل الجماعة ، بالثقة فى الدين ، لا بالوعود الكاذبة ، ولا بادعاء أن الشعوب هى التى تحكم .

هذه الجماعة ، سيكون من حقها ، لا بحكم نص فى القانون ، ولكن بحكم التربية والتنشئة ، أن تقول للحاكم أخطأت وهى لا تهاب . لأن الحاكم وصل إلى مكانه بالجهاد ، لا بشراء الأصوات ، ولا ببذل الوعود ، ولا بالضحك على الناس . .

ثم عاد الرجل يتكلم فى هدوء عجيب ، دون أن يخرجه الترسل فى الحديث عن ضبط نفسه فقال :

الألمان يقولون « ألمانيا فوق الجميع » والقرآن قال « كنتم خير أمة أخرجت للناس » أنا أعرف أن هناك فارقاً كبيراً بين المعنيين ، ولكنه فارق روحي ، ولكن إن أخذنا الألفاظ على ظاهرها ، قد نرى تشابهاً .

« إن هؤلاء النازيين يريدون أن يرفعوا زعيمهم إلى المكان الذى رفع الله إليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، حينما قال لنا « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ولكن هيهات أن يصل زعيمهم إلى مواطئ قدم الرسول فهذا موحى إليه ، من ربه ، وقد اختارته العناية الإلهية « صدارهم على عينها . ولكن لا يزال الشبه المادى قائماً ، وأنا لا أود أن أحرج صدوركم بهذه المقارنات ، وأنا أعرف وقعها على أسماعكم ولكن اسمعوها ، وغفر الله لنا جميعاً » ، فنحن لا نبغى إلا الخير» .

« ولأمر ما كانت خصومة اليهود لزعيم الألمان ، أشد الخصومات لدداً ، والله تعالى قال « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » وقد أجلاهم رسول الله عن بلاد العرب ، فى حين أن زعيم الألمان ، تبعا لحضارة عهده ، مثل بهم وخرج عن كل حد معقول وهذا هو الفرق بين زعيم ورسول » .

وختم الرجل كلامه بقوله : أنا لا أدعوكم إلى النازية ، ولا أحسنها لكم لأنى لا أدعو إلا للإسلام : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ولكنى أردت أن أقول ما أقول لأحذركم من الوقوع فى حبائل ، ما يروجــونه للديموقراطية وأشباهها ، فإن الإسلام يأبى هذا الرغاء ، الذى يتناثر فى الهواء ، ويؤمن بالرجل المؤمن الصالح القوى ، ليتحلق حوله رجال أقوياء ، نذروا أنفسهم لطاعة الله ، رحماء بينهم ، أشداء على أعدائهم ،

يجد فيهم خصومهم غلظة ، وهم يتواصون بما قاله الله تعالى لهم :
« قل إن كان أباؤكم آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين .

وقد كنت أحب أن أرى هذا العالم الفاضل ، بعد أن توالت هزائم الألمان النازيين وزعيمهم ، ولكنى وجدت علماء مسلمين كثيرين ، يسدون وجه الأفق إذ تلقاهم فى كل مكان تذهب إليه ، يشيدون بالديموقراطية ، بعد أن رجحت كفتها فى نهاية المجزرة البشرية الثانية ، التى بلغت غايتها سنة ١٩٤٥ .

ومرة أخرى وجد الإسلام الناس بفضل هذا الجيش من العلماء ديموقراطيًّا ، ووجدوا نصوصه ، وآياته ، وأحاديث رسوله ، عليه الصلاة والسلام تدعو إلى الديموقراطية : حكم الشعوب نفسها بنفسها .

وقد قيل فى هذا الصدد ما أصبحنا نعرفه لكثرة ما تكرر ، فى القرآن الكريم آيتان تنصان على الشورى ، وتأمران بها ، فى سورة الشورى آية قال فيها الله تعالى فى وصف المؤمنين : وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » .

وفى سورة آل عمران : فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ».
وقد سجلت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقعة بدر أنه أراد أن ينزل المسلمين منزلاً اختاره لهم ، فسأله أحد أصحابه أهذا المنزل ،

أنزله إياه ربه ، أم هي الحرب والخديعة ، فأجاب رسول الله : بل هي الحرب والخديعة . كما أثر عنه عليه الصلاة والسلام ، أنه احتمل مراجعة أحد المسلمين المعروف باسم «ذى الثديية» لنتوء لحم فى وجهه يشبه الثدى الصغير فى أمر توزيع الغنائم إذ وجه إليه عليه الصلاة والسلام هذا الرجل قولاً جافيا بدأه بعبارة : أعدل يا محمد . وكررها ثلاثاً وفى الثالثة فقط قال الرسول . ويحك من يعدل إذا لم أعدل .

كما جذبه أعرابى جلف من ردائه حتى ترك الثوب أثره فى عنق الرسول ، والأعرابى يقول : أعطنى من مال الله . فأعطاه الرسول وهو يبتسم .

وقد روى لنا تاريخ المسلمين كيف اختاروا بعد ان قبض رسول الله إلى ربه ، خليفتهم الأول ، فى مشاورات طالت ، واحتدم فيها النقاش ، واشتد الجدال ، كما أترعن الخلفاء الراشدين من الأقوال والأفعال ، ما ينفى كل شبهة فى أن الإسلام دين الشورى ، ومن ذلك ما قاله الخليفة الأول رضى الله عنه وهو يطلب من المسلمين أن يطيعوه ما أطاعه الله فيهم ، وأن يؤيدوه ما استقام ، ويسدده إذا أخطأ ، وأن الخليفة الثانى رضى الله عنه خطب المسلمين فطلب منهم أن يقوموا اعوجاجه ، فأقسم مسلم ليقومن اعوجاجه بحد السيف . فحمد الله ، ان كان من بين المسلمين من يقوم اعوجاج أمير المؤمنين بحد السيف .

هذا كله بعد أن أرسى القرآن القاعدة الكلية من أن الناس سواسية ، وأنهم لا يتفاضلون إلا بالتقوى : «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، أن أكرمكم عند الله أتقاكم» وقد شرح

هذا المبدأ رسول الله بقوله : لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح » .

وذلك انتفت الشبهة على أن الإسلام هو دين الديموقراطية .

وتواصى المسلمون بأن يقيموا فى بلادهم هذه الديموقراطية ، لينصلح حالهم ، ويثوبوا إلى سابق أمجادهم ، ويدفعوا عن أنفسهم ما لحق بهم من الهوان وقلة الشأن ، وتفرق الكلمة ، والخضوع للأقوياء .

ولكن لم ينقض على انتصار (الديموقراطية) فى الحرب العالمية الثانية ، على دول الحكم الشمولى أو الكلى الذى تجتمع فيه السلطة كما قلنا فى حزب ، وتجتمع كلمة الحزب فى جماعة بين أعضائه ، وتجتمع سلطة هذه الجماعة ، فى زعيم يدين له الجميع بالطاعة والانقياد ، لم تنقض سنوات حتى واجهت الديموقراطية فى موطنها الأصيل ، من العقبات ، والصعاب ، وأزمات المال والعمل ، التى تمثلت فى تضخم النقد ، وكثرة المتعطلين ، وتوالى الإضرابات ، وفساد الأعمال ، حتى بدأ يساور الناس جميعاً إحساس بأن الديموقراطية ، التى هى الحرية السياسية لم تعد كافية لإقامة الحكم الصالح ، وعلا الحديث الذى يدور حول الحرية الاجتماعية أو الاقتصادية . وهى حرية لا تمنح كل مواطن صوتا يدلى به فى الانتخابات فحسب ، أى يتيح له الحق فى إبداء الرأى فيما يجرى فى بلده من أمور الحكم والاقتصاد والتشريع ، بل تضمن له قوت يومه ثم تضمن له قدراً من العناية الطبية إذا مرض ، ومعاشاً يعينه على مواجهة الشيخوخة إذا أسن وعجز عن العمل ، كما توفر له رزقاً مناسباً إذا تعطل لمرض أو لكساد الأعمال فى وطنه . وقيل أن الصوت الانتخابى لا قيمة له إذا كان صاحبه

جائعاً لا يجد ما يسد رمقه ، جاهلا لا يعرف كيف يقرأ ولا يكتب ، ولا يميز بين الغث والثمين من الأقوال ، وقد ظهرت دول كثيرة بعد الحرب العالمية الثانية ، تصطنع هذه الديموقراطية الجديدة ، وتزرى بالديموقراطية السياسية وبعدها نصبا واحتيالاً ، وتعد حرية الرأى فيها وهى مضللا إذ أن الصحافة فى بلد يحكمه الأغنياء أصحاب النفوذ ، لا تكون إلا بوقاً لهؤلاء ، لأن الصحيفة لا تقوم إلا بقدر ما تجنى من أرباح الاعلانات والمعلنون هم أصحاب المصانع والمزارع والمتاجر ، وهم بهذا أصحاب الكلمة فى الصحف ، حتى ولو لم يكونوا أصحابها فعلاً ، وشعر المسلمون أن قولهم بأن الإسلام هو دين الديموقراطية لا يكفى لإعلاء شأنه ، وإذاعة دعوته ، ونشر كلمته ، فلا بد إذن أن يكون الإسلام اشتراكياً .

وفى الحال استطاع هؤلاء العلماء ، أن يجدوا النصوص التى تؤيد أن الإسلام هو دين الأشتراكية ، بل هو أول مذهب أرسى مبادئها ، وأحكامها ، فقد قال رسول الله الناس شركاء فى ثلاث : الماء والنار والمرعى . والماء والنار كانتا مصدر القوة والطاقة فى عهد الرسول ، وقياساً عليهما ، يمكن أن نقول إن مصادر القوة والثروة يجب أن تكون ملكاً للدولة ، ليكون الناس شركاء فيها بحق .

والذين يقولون إن الإسلام اشتراكية ، سيجدون فى ركن الزكاة من أركان الإسلام الخمسة ، ما يؤيد دعواهم ، فالزكاة هى إضافة لجزء من أربعين جزءً من رأس المال ، إلى المال العام ، لينفق فى سد حاجة الفقراء والمرافق العامة والخدمات الاجتماعية فى الجهة التى تم فيها تحصيل حصيلة الزكاة . وقد بلغ من حرص الإسلام على إقامة هذا الركن أن

الخليفة الأول خاض حرباً ضروساً ضد القبائل التى ارفضت أداء الزكاة إذ وهمت أنها ضريبة تفرضها الحكومة المركزية فى مكة على القبائل الموزعة فى أطراف الجزيرة وأعطافها ، وقد بلغ من شدة هذه الحرب ، أنها كادت تكون ثورة ضد الخليفة الأول ، وتنذر بانهيار دولة الإسلام ، ومع كل هذه المخاطر ، أبى أبو بكر الصديق ، الوديع الرقيق إلا أن يمضى فى هـذه الحرب ، لا يلوى على شيء . فعل ذلك على الرغم من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حاول أن يثنيه عن إعلان الحرب على المرتدين ، وعمر هو عمر ، قرباً من الرسول وصاحبه ، وإيماناً بدعوة الله ، وتشدداً فى إقامة دينه .

على أن الزكاة ليست هى كل ما يطلب من المسلم أداءه فإن كتاب المسلمين ، القرآن الكريم ، فاضت آياته بدعوة متصلة للإنفاق فى سبيل الله ، أى فى السبيل العام ، أى فى وجوه الخير والمنفعة التى تتطلبها ظروف الجماعة وتقضى بها ، وهذا الإنفاق العام ، يصل إلى مرتبة العبادة ، لأنه يكفر الذنوب ، ويقرب إلى الله ، ككفارة اليمين الباطلة والإفطار فى رمضان ، والظهار أى الطلاق الجاهلى ، الذى كان شائعاً قبل الإسلام .

ومن الآيات التى تدعو إلى الإنفاق : «مثل الذى ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » .

ولكن لا يزال فى الإسلام من النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ما يظهر جانب الاشتراكية الواضح الجلى فى الإسلام ، فالقرآن يقول « وآت ذا القربى حقه والمسكين» كما يقول فى وصف

المؤمنين المسلمين :« كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » وبهذين النصين ارتفع الإنفاق على الفقراء ، وسد حاجتهم ، إلى مستوى الواجب ولم يعد تبرعاً أوتطوعاً ، وهو أمر لم تصل إليه كثير من المذاهب الاشتراكية الحديثة ، ولم تقرره بهذا الوضوح والإلزام .

بل ان فى النصوص القرآنية ، ما يعلن منهجاً اشتراكيًّا صميماً ، وعميقاً ، فقد قال الله تعالى فى سورة الحشر : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » فهذا نص صريح للدلالة فى كراهية استئثار الأغنياء بالمال ، وقيام دولة للأغنياء .

أما نصوص القرآن فى الربا ، فهى استظهار بين لروح الإسلام والاشتراكية ، فقد قال الله تعالى : الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » كما قال : يأيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ، إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون » .

فهذه النصوص تدل على كراهية كل صور استغلال حاجة الإنسان وفقره ، فى سبيل الحصول على المال والاستكثار منه ، وليس الربا ، إلا أظهر صورة من صور هذا الاستغلال المقيت ، فكل استغلال آخر ملعون فى الإسلام ، وواجب المنع والتحريم ، وتصوير من يأكل الربا ، بأنه كمن يتخبطه الشيطان من المس ، تصوير بالغ التأثير ، يكاد

يلمس الإنسان بفصله باليد ، مدى ما يضمره ويعلنه الإسلام من كراهية وُسخط على هؤلاء الذين يركبون ظهور الناس ، ويستذلونهم ، لعجزهم وقلة شأنهم فى المجتمع ، مع تقرير الإبقاء على رأس المال ، بعد تجريده من سلاحه المسموم ، وهو الفائدة التى تحيله وحشاً مفترساً ، وغولاً شرساً .

فانا أضفنا إلى هذا قول الله تعالى : والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب آليم » بدت صورة المجتمع الاشتراكى الذى أراد الله تعالى أن يقيمه بأحكام القرآن . مجتمع لا يكون فيه المال سيداً ، ولا يسمح فيه بجماعة منه تتميز استئثاراً بالمال ، ولا يكنزه ، ولا بالكسب من غير العمل ، لأن المال لا يلد مالاً ، وإنما الذى يلد المال ويصنعه هو العمل وحده .

وتزداد هذه الصورة وضوحاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أهل عرصة أصبح فيها امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تعالى وتبارك » وبقوله عليه الصلاة والسلام : ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم »

وقوله : أيما جماعة مات فيها امرؤ جوعاً ، لزمتها ديته » أو كما قال .

فجماع هذه الاحاديث ، ان مجتمع المسلمين ، هو مجتمع التضامن الاجتماعى ، الذى يكفل فيه أهله بعضهم بعضاً ، والذى لا يكون فيه للجوع والفقر ، موضع ، يعضف فيه بفريق من أهله : وأن من يموت جوعاً ، فيه ، بمثابة من قتل عمداً ، فتجب على الجماعة

كلها أن تعوض أهله عن مقتله لأنها قتلته بشحها وشرها .

وقد استوحى خلفاء وصحابة رسول الله ، هذه الروح ، من بعده ، فقد كره رسول الله ، أن يضع للسلع سعراً ملزماً ، أى أن يلجأ إلى التسعير الجبرى ، حينما قال له المسلمون ، كما قال أبو هريرة : يا رسول الله سعر لنا » فقال بل أدعو ، ثم قال : إن الله تعالى يخفض ويرفع » وعن أنس أن الناس قالوا ، يا رسول الله غلا السعر فسعر لنا فقال : أن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق ثم روى البيهقى « أن عمر مر ببائع تمر وأمره أن يرفع سعره أو يدخله بيته » أما التابعون ، فقد أفتوا بجواز التسعير ومنهم سعيد بن المسيب وربيعة بن عبد الرحمن ويحيي بن سعيد الأنصارى ، والتسعير هو صورة من صور تدخل الدولة فى المجال الاقتصادى ، وتوجيه المال . وهى بداية اشتراكية ، بلا خلاف . وقد ذهب الإمام مالك إلى جواز التسعير ، ويرى هذا الرأى بعض الشافعية ، فى حالة الغلاء .

ولكن الذين دعوا إلى الحرية الاجتماعية ، واعتبروها مناط حرية الإنسان الحقيقية ، ولم يقنعوا بضمان رزق الفقراء ، وتقرير المعونات والمعاشات للمتعطلين وتقرير معاشات للعمال المسنين ، وإقامة مرافق واسعة النطاق للخدمة العامة المجانية من جمية صحية وثقافية المستشفيات والمدارس المجانية ، وتقرير وتمليك الدولة مصادر الثروة الطبيعية ، ومرافق المواصلات والإنارة ، واعتبروا هذا كله عبثاً لا طائل تحته ، فاستغلال الفقراء فى رأيهم لن ينتهى إلا باستئصال رأس المال الخاص من جذوره ، وقصر الملكية بأنواعها على الدولة التى تمثل الشعب كله ، لتصنع خططاً

مركزية وشاملة ، تعين على زيادة الموارد العامة لرفع مستوى الشعب الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، ولتحول حيلولة كاملة ونهائية دون نشوء أية صورة من صور الاستغلال ، بأى اسم ، وفى ظل أى نظام . وأن الوعظ والإرشاد ، والنصح والتوجيه ، لا ترد المستغل عن استغلاله ، ولا تمنع من بيدهم المال ، من إخضاع الحكم لتوجيهم ، وحينما تخضع الحكم للمال ، فلا أمل للفقراء الكادحين فى أن يحصلوا إلا على فتات موائد الأغنياء . وجملة القول أن هؤلاء قد بشروا بأقصى درجات الاشتراكية وخاتمة المطاف فيها ، حيث ينعدم رأس المال الخاص فتنعدم الطبقات ، ويصبح المال العام ملكاً للجميع وينتهى القهر ، وتفقد الدولة وظيفتها ، لأن الدولة لا تقوم إلا لخدمة الأغنياء والأقوياء فى المجتمع لقهر الضعفاء والفقراء ومنعهم من إزالة الحكم القائم على استذلالهم واستعبادهم .

وقد رأى فريق من المسلمين ، أن الحرب العالمية الثانية أسفرت عن ظهور قوة هائلة ، هى قوة الاتحاد السوفييتى ، الذى قام على هذه النظرية ونفذها فى هذه القارة الفسيحة ، التى تسمى (روسيا) والتى تترامى آفاقها لتشمل مساحة عظيمة فى آسيا وأوربا معاً ، فإن الناس فوجئوا ، عقب الحرب العالمية بأن هذه الدولة التى لم يسمعوا عنها وعن نظامها من قبل ، إلا أقل القليل ، لم تقنع باقتسام النصر العسكرى الهائل ضد ألمانيا ، مع الغرب إذ أعلنت أنها عرفت سر القنبلة الذرية ، كما عرفته الولايات المتحدة من قبل ، ثم استعملها فى صنع قنبلتين جهنمتين ألقت بهما على مدينتين تعيستين فى اليابان فى السادس والتاسع من أغسطس ١٩٤٥ ، فمسحتهما من فوق سطح الأرض فى ثوان ولذلك

نشأ ما بين هاتين القوتين أى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ما عرف (بتوازن الرعب) القائم على خوف كل جانب من قنابل الطرف الآخر الذرية .

والأهم من هـــذا كله ، أن الاتحاد السـوفييتى ، بسط نفوذه المادى والروحى على النصف الشرقى من أوربا ، ثم وقفت إلى جانبه أكثر الدول سكاناً ، وأعظمهما مساحة ، وأقدمها حضارة ، وهى الصين ، فأظلمهـا معاً علم (الشيوعية) ، ومضت كل منهما تحقق انتصارات مذهلة فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بحيث وصلتا فى بضع وعشرين سنة إلى مرتبة من النجاح والقوة ، لم تستطع دول غيرهما أن تصل إليها فى التاريخ الطويل العريض فى أحقاب وعهود ، بعد أن كانت روسيا والصين مثلين من أمثلة الفوضى والانحطاط والتخلف والعجز . ومن ثم فقد زاد أثرهما فى المجال الدولى زيادة مضطردة ، روجت لمذهبهما فى السياسة والاقتصاد ، كان من مظاهره نشوء أحزاب قوية غاية القوة ، فى دولتين من أعظم دول أوربـا هما فرنسا وإيطاليا إلى جانب أحزاب شيوعية عديدة فى دول أخرى .

ولم يكن ممكناً أن يشهد الفكر الإسلامى كل هذا التطور ، وألا يفكر فيه ، وألا يتدبر معانيه . فمن علماء المسلمين ، من رأى فى الشيوعية ، خطراً محدقاً بأقطار المسلمين ودولهم ، بل بعقيدتهم وبينهم ، فإن دعاة الشيوعية الأوائل ، دعوا إلى تأجيج نار الصراع بين الطبقات المحرومة والمغلوبة على أمرها ، طبقات العمال والكادحين والفقراء ، مع الأغنياء أصحاب المصانع والمزارع ، ورأس المال ، والموجهين لأقدار بلادهم

عن طريق أحزاب يديرونها ، وصحف يصدرونها ، وهيئات للطباعة والنشر ، وللسينا والمسرح يؤسسونها تروج أفكارهم ، وتخدع الفقراء والعمال عن حقيقتهم . وقال هؤلاء الدعاة إن رجال المال ، فى عهد رأس المال الطليق صاحب الكلمة النافذة ، استأجروا كبار الأحبار ورجال الدين فى كل مكان ، ليصرفوا الفقراء ، عن حقيقة حالهم ، وسبها ، بالرجاء فى عالم أخروى ، ينعمون فيه بأنهار من العسل المصفى ، تحيط بهم فيها الحور العين والولدان المخلدون . وأن الأغنياء ، لم يبخلوا على ترويج فكرة الجنة والفردوس المقيم ، لتبقى لهم شركاتهم وأرصدة ملياراتهم فى المصارف الدولية ، تروح وتغدو كالأسد المفترس ، بحثاً عن الفريسة فى أى مكان ، والمحرومون التعساء ، يرددون أدعيتهم ويرتلون أناشيدهم فى بيوت الله ، سواء كانت مسيحية أوإسلامية أو يهودية أو بوذية . فمن هنا وجب أن تهدم الكنائس والمعابد والمساجد على رءوس علمائها وأحبارها وقبسيسها وعلمائها . وأن يحرم الدين الذى يبعث هذه الأخيلة الكاذبة المهدئة والمنومة ، وأن يعلن أن الدين هو أفيون الشعوب . وأنه يجب تحريم تعاطيه ، ومن هنا أشفق المسلمون على دينهم ، وعقيدتهم ، وخافوا أن ترحف هذه الدعوة إلى بلادهم ، فتنخدع بها النفوس البريئة ، التى بهرها انتصار العالم الشيوعى العسكرى والصناعى وسرعة تقدمه وضخامة ما أنجز فى كل حقل ودرب ومجال ورأى آخرون أن المسألة ليست بهذا القدر من البساطة ، وأن الحكم على الأمور بهذه الخفة ، يؤدى بالمسلمين إلى أمرين أولاً مخاضمة قوة دولية هائلة ، تتعامل معها الدول الكبرى ، وتسعى إلى عقد المعاهدات والعقود معها ،

وإن كانت تعمل كل ما فى وسعها لاتقاء خططها وتدبيراتها وتسد فى وجهها مسالك ومسارب التسلل .

ثانياً – حرمان أنفسنا من دراسة هذه التجربة الإنسانية الضخمة ، التى لا ينكرها إلا كاذب ، أنها خلقت عالماً جديداً ، وغيرت مجتمعاً بأسره ، وأدخلت فى حياة الأمم والشعوب والأفراد أساليب جديدة فى الإدارة والسياسة والتوجيه والتخطيط والبحث .

هذا إلى أن بعض الذى يقوله دعاة هذا النظام الجديد ، صحيح فيما يخص رجال الدين ، لا الدين نفسه ، وأننا نحن أنفسنا شكونا ، كما شكا غيرنا كثير من الأمم من مصانعة الأحبار والعلماء ومداراتهم للحكام الظالمين وطنيين وأجانب . وأن الدعوات تبدأ دائماً ، فى صورة من التطرف ، ثم تصطدم بحقائق الحياة ، فتخفف من غلوائها ، وتقلل من اندفاعها ، فالثورة الفرنسية غالت فى محاربة العهد القديم حتى تتبعت رجاله بالقتل والتشريد وطمس آثاره ، واعتبرت كل ما قيل فيه ، أو صدر عنه كفراً وتحريفاً ، ثم أصبحت الثورة مذهباً معتدلاً ، ضاق به المؤمنون بالتقدم السريع .

ويهمنا من هذا كله ، أن بعض الذين درجوا على أن يوائموا بين الإسلام و بين أى مذهب ناجح فى العالم ، حرصاً على مستقبل دينهم حيناً ، وجرياً وراء كل ظافر ذى قوة حينا آخر ، قالوا إن المسلمين ، المؤمنين حقاً ، جديرون بأن يجدوا فى الشيوعية ، تحقيقاً لما دعا إليه الإسلام فإن رسول الله قال إن الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا سبيل إلى إقامة هذه المساواة إلا بما فعلته الشيوعية إذ جردت الجميع من أموالهم – وجعلت

المـال ، حكراً للدولة ، أى للناس قاطبة . فامتنع الاستغلال ، وزال الفقر ، وسدت السبل فى وجه الاستعلاء والادلال . كما ذهبوا فى التدليل على صحة دعواهم : بأن الإسلام لم يحارب أحداً كما حارب أغنيـاء مكة وقريش ، وأن القرآن لم يلعن أحداً كما لعن هؤلاء المتألهين الذين كانوا يدلون بمالهم وتجارتهم وعبيدهم وإمائهم ، وينفقونها فى الصد عن دعوة الإسلام ونبيه الكريم فقد قال مثلاً فى الوليد بن المغيرة فى سورة المدثر : ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدوداً . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد ، كلا أنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً .

وفى سورة القلم — ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين . وقد بين القرآن الكريم موقف أغنياء قريش ، من دعوة الإسلام ، وعقدهم العزم على استعمال المال وسيلة لمحاربة هذه الدعوة الجديدة « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » .

على أن فى القرآن من الآيات ما يكشف بجلاء عن نظرة الإسلام للمال ، فالمال ، هو مال الله ، أى أنه ملك عام ، فالله تعالى يقول : وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ، وقال عزو يتارك : وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

فالقول بأن المال ، مال الله ، وأن الناس ليسوا سوى أمناء وحراس عليه وهو قول لم يصل إليه مذهب من المذاهب الاشتراكية الحديثة ، لأن ترجمته بلغة هذه الأيام ، هو أن المال وظيفة عامة ، وليس ميزة شخصية .

ثم يقولون فإذا أضفنا إلى ذلك كله ، حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد ، فليعد به على من لا زاد له » أدركنا أن ما زاد عن حاجة الإنسان يجب أن يكون فى خدمة غيره ، وأن الاستئثار به ، لا تقره روح الإسلام . ولقد انتهى الأمر بالخليفه الثانى :
عمر رضى الله عنه أن قال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء وقسمتها على فقراء المهاجرين »

وهكذا ترى أنه ما من صاحب مذهب حديث ، إلا وقال عن الإسلام إنه تطبيق لمذهبه ، والصورة المثلى ، لعقيدته ، ولو صدقنا هذا كله لكان الإسلام نازية وديمقراطية واشتراكية وشيوعية فى آن واحد فهل هو هذا حقا ؟ وهل يتسع ، لترامى آفاقه ، لهذه المذاهب المتناخرة ويظلها بظله ، مع تناقضها ، وصراعها ، ليقيم منها بناء متناسقاً أم هذه دعاوى ، ليست لها إلا غاية واحدة هو أن تدخل إلى المسلمين من المدخل الذى لا يرفضونه ، ولا يلتفتون إلى ما يدس عليهم عن طريقه .

وواقع الأمر أن الصلة منبته بين الإسلام وبين هذه المذاهب التى جاءت بعدة بقرون ، وجاءت ثمرة تطور الحضارة الحديثة على أساس من الظروف التى صاحبت نشوء هذه الحضارة ، فقد ولدت ، بعد الحرب الصيلبية ، التى كشفت لأهل أوربا مدى تخلفهم عن العرب والمسلمين ، فعقدوا العزم على أن ينقلوا عنهم أصول حضارتهم ، وأن يقلدوهم ، ما استطاعوا التقليد ، وكان أن نقلوا عن العرب والمسلمين المنهج العلمى القائم على التجربة ، وقد بشر بذلك كل من روجر

بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٢) وفرنسيس بيكون (١٥٦٠ - ١٦٢٦) كما سبقت الإشارة فى هذا الكتاب وقد كانت تلك خطوة موفقة ، وسديدة ، ولكن صاحب هذا التطور العلمى الصائب حروب طاحنة وشرسة بين البابوية ، وبين عدد من أقوى ملوك وأباطرة أوربا ، جعل الدين مخوفاً فى أوربا وجعل سلطته على العقول والنفوس محل ارتياب وشك ، لما مارسته بعض السلطات الدينية فى هذه الفترة العصيبة فى تسلط على أفكار الناس ما يعلنونه ، بل وما يضمرونه من أفكار وذلك فى فترة ديوان التفتيش التى انتهت إلى تحريم قراءة الكتاب المقدس ، على غير القساوسة المأذون لهم ، وظهور طوائف متطرفة ، كادت تنقض بناء الكنيسة من أساسه ، بل ، والعقيدة المسيحية من قواعدها .

ومن ثم سار العقل والفكر فى أوربا ، فى طريق ، وسار الدين والكنيسة فى طريق مما جرد جميع الحركات الفكرية والتحررية والتجديدية فى أوربا من وحى الدين ومن قوى النفس الإنسانية التى لا تقل عن عقل الإنسان ، تأثيراً فى حياته .

وقد أيد هذا التطور وأكد آثاره ، اكفهر الطبيعية المادية فى أوربا ، فقد عاش الإنسان فى تلك القارة ، فى حرب مستمرة مع الأمطار والثلوج والضباب الكثيف والصقيع ، مما وسم الحياة كلها بالعنف ، وجعل كل ما فيها صراعاً فانعكس هذا على أسلوب حياة الأوربى ، فمضت كلها صراعاً دمويا بين قوى مختلفة : فبعد أن حسم النزاع بين الكنيسة والسلطة الدينية ، استمر الصراع بين الملك والأمراء ، وبين الملك والشعب ، وبين أهل القرى وأهل المدن ، وبين العمال وأرباب

الأعمال ، ولما سبقت أوربا إلى إخضاع قوى الطبيعة ، استطاعت بفعل هذا السبق أن تحصل على وسائل لإخضاع الجماعات بقوة البارود ، مما مكن دولاً أوربية صغيرة المساحة ، قليلة عدد السكان ، كهولندا وبلجيكا أن تحكم أقاليم شاسعة كأندونسيا والكونغو ، مما أكد هذا الصراع ، وأضاف إلى سجله فصلا جديداً ، ومن خلال كل هذا ، انبثقت المذاهب الجديدة ، متأثرة بطبيعة الفترة التى ظهرت فيها . فما كان من وجوه الشبه بين تلك المذاهب وبين الإسلام أو حتى بينها وبين المسيحية ، لم تكن إلا مجرد شبه سطحى ، لا يقوم على جوهر طبيعة الدينين وبينها .

فالإسلام عقيدة قائمة بذاتها ، ليس فيها ديموقراطية ، وليس فيها نازية ، ولا اشتراكية ولا شيوعية ، وقد تلتقى – كما سبق القول – مع بعض المذاهب فى أمر أو أمور ، ولكن عند تحليل هذا التشابه ، ورده إلى أصوله – يبين أنه فى واقع الأمر اختلاف لا التقاء .

فالديموقراطية التى استخلصها الأمراء ثم زعماء الشعب من ملوك أوربا ، غايتها ألا ينفرد الملك بالحكم ، ووسيلتها إقامة مجالس ينتخبها أفراد من الشعب ، كانوا فى أول الأمر ، ممن يؤدون ضرائب بمقادير تحددها قوانين الانتخاب – ولم تقم قط على أساس احترام الإنسان الفرد لذاته ، أيا كان نصيبه من المال والعلم ، ولم تنظر إلى نفس الإنسان ، ولا إلى عقله ، ولا إلى تقويم نظرته إلى الحاكم ، ولا إلى حقه إزاء هذا الحكم ، ولا إلى علاقة الحاكم والمحكوم ، بخالق هذا الكون والمبادئ الأساسية التى يجب أن تحكم العالم كله . ومن هذه كان ممكنا أن يموت

الإنجليزى أو الفرنسى ليظفر بحريته فى بلده ، ثم ينطلق بعد ذلك ، ليحكم غيره من بنى البشر وقد يكونون من أهل قارته أو من إخوانه فى الدين ليركبهم بالهوان والذل . لأن الحرية التى سعى لها ، وحارب من أجلها ، لم تكن حرية إنسانية وإنما كانت حرية ذاتية ، ثمرة صراع محدد ، ذى غايات محلية فى حين أن المسلمين حينما خرجوا إلى العالم ، كانوا أينما ذهبوا يحررون العبيد ، ويؤاخون بين الناس ، ويرفعون البلاد المحكومة إلى سواء العربى المسلم الفاتح ، ويفسحون أبواب الترقى والعلم والتحصيل والقيادة والإقامة لكل الأجناس بلا تفرقة ولا تميز .

فالديمقراطية السياسية فى أوربا ، كان أساسها فرضاً قانونيا ، هو أن الأمة هى صاحبة السيادة ، وأن المعبر عن هذه السيادة هو الناخب بصوته ، وأن الهيئة التى يفرزها أصحاب الأصوات الانتخابية هى أعلى سلطة ، ثم ثبت أن هذا الفرض وهم فالناخبون لا يعبرون عن الأمة ، وإنما عن مصالحهم الشخصية البحتة ، وفى بعض الأحيان ، لا يملكون التعبير حتى عن هذه المصالح بل عن مصالح من هم أقوى منهم حتى كاد الناخب فى كثير من الأحوال أن يكون صوت سيده ، وقد استمر الصراع بعد قيام الديموقراطية فقد ثار الشعب فى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والنمسا والمجر ، عشرات المرات ، وسقط الألوف بعد الألوف وبقيت الحرية وهى أمل لا تطوله الأيدى .

وقد جاءت الاشتراكية لترقع ما تمزق من ثوب الديموقراطية ، فلم يكن الاشتراكيون أحسن حالاً من الديموقراطيين ، فقد كانوا يسيرون الجيوش إلى بلاد الشرق العربى ولا إلى بلاد الشرق كله ، بل ولا إلى أمريكا اللاتينية

وآسيا ، ليقيموا ألواناً من الحكم الذى لا تسنده إلا الحراب والسيوف . وكانت الشيوعية اخر مراحل هذا التطوير القائم على نفس الأساس ، فظهرت فيها عيوب الأساس (١) .

فالشيوعية حبست نفسها فى سجن المادية الضيق ، الذى يؤدى حتماً إلى الإيمان بالعنف كوسيلة مبررة لإقامة النظام وتثبيت دعائمه ، والعنف لا يلد إلا العنف وردوده المتوالية . والمادية ، التى تحسب أن ما عداه باطل ووهم ، تقيم الحياة على جانب واحد من الإنسان وتلقى بباقيه فى العدم ، فيبقى كل شىء جزئياً ، ولم يقوم الواحد الصحيح ، ومن ثم فنحن نرى العالم قد انقسم إلى اثنين ، يتداوله معسكران ، يشطران كل مشكلة وكثيراً من الدول والمدن إلى شطرين فألمانيا اثنتان وكوريا اثنتان والصين اثنتان وإرلندا اثنتان وبرلين اثنتان وفلسطين اثنتان بل أكثر من اثنتين ، وقد لحقت بأولئك قبرص ، وأزمنت المشكلات ، وتحققت ، وما ينفق على التحضير للحرب والخوف منها ، واتقاء شرها مليارات فوق مليارات ، وثلث العالم لا يجد قوت يومه إلا بشق النفس ، وأصبح العديد من الدول لا يجد حتى جرعة الماء ، فإن حزام الجفاف يتسع ويزداد عرضاً .

أما النازية ، فقد انحسرت بوجهتها ، وإن لم تفقد جاذبيتها عند قطاعات عريضة فى عدد من الدول التى لا تجد لمشكلاتها حلا . ولم تكن النازية ابتكاراً (لهتلر) ، فقد كانت نتاجاً ألمانيا بحتاً يمثل مشكلة ألمانيا القوية التى لا تقنع بمكانها فى أوربا ، دون الزعامة التى ترى نفسها بفضل مواهب أبنائها النادرة ، وطاقاتهم الفنية والعلمية والإدارية والتنظيمية ،

---

(١) كتاب « الإسلام والإنسان المعاصر » للمؤلف فى سلسلة اقرأ .

جديرة بالقيادة ، وبأداء رسالة عالمية . وهى تؤمن بعنصرها ، ومن ثم فهى تؤمن بالرجل البطل العظيم ، وبحفنة من الرجال الأشداء الأقوياء يحفون به ، ويفنون فى سبيله ، وينفذون أوامره ، ولا يستوحون الشعب ، الذى يرتبطون به بدعوى أنه لا يحب الحرية . وبل يتعثر فى ذيولها الطويلة ، ويفضل عليها أن يساق إلى ميادين المجد ، وإن يتلقى أوامر واضحة ومحددة من قائد قوى ، يعرف ماذا يريد ، ويقتضى من الناس الاحترام والطاعة ، وهم سعداء به ، وبوجوده على رأسهم . ويرون فيه تجسيد أنفسهم ، ولا يضيعون وقتهم فى الثرثرة الديموقراطية ، التى روج لها اليهود ، ليشغلوا الناس عن مؤامرات اليهود ودسائسهم وجمعهم المال ، وتسلطهم على الأسواق ، وإشاعتهم الفن الوضيع ، والأدب المهلك .

فأين الإسلام من كل هذا .

الإسلام يقيم بناءه على قاعدة طويلة عريضة عميقة . هى الإيمان بإله واحد ، يحكم هذا العالم ، بقوانين ثابتة لا تتغير ويتساوى أمامه الجميع . والإيمان بالتوحيد ليس اكتشافاً تعبدياً روحياً ، بل هو هداية عقلية . فقد حررت هذه العقيدة الإنسان من الأوهام والأباطيل ، وسدت الطريق فى وجه المشعوذين والمتجرين بالأكاذيب العقلية الباب ، وأصبح اتصال الإنسان بربه ، وبالعالم كله ، اتصالاً مباشراً ، لا يقوم فيه أحد مهما كبر مقامه ، أو عظم علمه ، بدور الوسيط أو الشفيع بين الناس وبين خالقهم .

وقد تناولت هذا المعنى فى فصول هذا الكتاب ، بشىء من التفصيل

والإسلام يؤمن بأن الذى يصبوغ حياة الإنسان هو ما يدور فى عقله ، وما يساور نفسه ، وما يضطرب فى أعماق وجدانه ، لذلك حرص على أن

ينشئ الإنسان الحر الشريف ، الكاره للدنايا ، والصغائر ، المتطلع للسمو ، الباذل نفسه وماله ، من أجل المثل الأعلى ، ولقد قرر الله تعالى لهذا الإنسان حريته بنصوص عديدة فى كتابه الكريم منها قوله تعالى : لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » منها « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ومنها قوله « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا لم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

فالنص الأول يؤكد أن الإنسان يختار لنفسه عقيدته ، دون أن تفرض عليه حتى من خالقه . فحرية الإنسان إزاء العقيدة التى يأمر بها خالقه محققة بأمر هذا الخالق العظيم ، مبدأ ينفرد به الإسلام . وكان من أثره انتشار نوره فى أقل من قرن من الزمان مع قدرته الفائقة فى خلق الحضارة أينما ذهب . فقد بحث العلماء فى ظله حتى ولو لم يكونوا مسلمين وتناقشوا واهتدوا إلى حقائق العلم المادى الذى أقام الحضارة الحديثة .

والنص الثانى ألقى مسئولية حياة الإنسان على عاتقه ، فهو الذى يقبل وهو الذى يرفض ، وهو الذى يبنى وهو الذى يهدم . ومن ثم ، فقد انطلقت الطاقات الحبيسة فى هذا المنجم الغميق . منجم نفس الإنسان ، فكان العلم الذى نشره الإسلام الذى بنى عليه العلم الحديث ، مشطوراً أو محذوفاً منه نصفه .

والنص الأخير ، لا يعدل سموه وجلاله ، ، نص آخر ، فقد ساوى الله بين الظالم وبين المظلوم الذى يقبل الظلم ، إذ لا ظالم إلا حيث يجد مظلومين خانعين ، يذعنون للخسف ولا يجتمعون للوقوف فى وجهه ،

ملتفتين عن الحكم الذى قرره القرآن ، ليدفع عن النفس الإنسانية غائلة الخوف : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

وإلى جانب هذه الأحكام الثلاثة ، لم يأت القرآن لقوم ذاهلين عن الدنيا كما قلنا وكررنا ، وحقائق العيش المادى ، فقد وصف القرآن الإنسان ودوافعه المادية ، لا لينفض منه يده ، بوصفه مخلوقاً ، ميئوساً منه ، بل بوصفه قابلاً للعلاج والهداية قال الله تعالى : زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا » .

ولم يطلق الإسلام الإنسان فى الهواء ، قاطعاً صلته بالأرض ، التى يعيش عليها ، ويكافح على وجهها ، بل أنه ربطه بها ربطاً محكماً ، ليعرف كيف يسعى فى مناكبها ويجرى فى مسالكها فقال للناس : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » . فالقرآن لا يحجب الجانب المادى للحياة الإنسانية ، بل نبه إليه ، ويدعو الإنسان للتأمل فيه وقد كرر هذا المعنى من ذلك قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

« والقرآن نبه الإنسان أيضاً إلى عنصر من عناصر حياته فى الأرض ذلك هو الصراع القائم بين الأحياء والدافع للتقدم .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »

والإنسان فى القرآن ، يستوطن الأرض كلها ، فهو إنسان منتسب إلى العالم ، لا يغلق نفسه فى مكان ، ولا يقيم بينه وبين أخواته فى هذا الوطن الفسيح حواجز ولا سدوداً . .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفعوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » هذا هو الإسلام ، وهذا هو موقفه ومكانه ، مما سواه من المذاهب .

وقد تسألنى أى إسلام هذا الذى تحدثنا عنه ، وحال المسلمين أمامنا لم يصل إلى مثله ، أهل دين أو مذهب آخر .

والواقع أن هذا الاعتراض صحيح ، ولكن ما نراه هو ضعف المسلمين ، واختلافهم ، وتخلفهم ، وحيرتهم ، لشيء واحد واضح ، هو انقطاع صلتهم بدينهم ، ولعجزهم عن فهمه ، والتأثر به ، إلى حد أنهم لا يجدون مذهباً ناجحاً حتى يخيل إليهم أنه دينهم أو أنه يشبه دينهم أو أنه يغوضهم عنه . ولكن الإسلام لا يسأل عن كل هذا ، فإن التجربة الإسلامية التى استمرت بضع مئات من السنين حققت للناس الذين شاركوا فيها ، من القوة والسعادة والإخاء ، والتقدم المادى والطمأنينة النفسية والتألق الروحى ، ما لم تحققه أية حضارة أخرى فى ظل أى مذهب آخر ، فالإسلام لم يفتح فقط أبواب العلم للناس ، ولم يقفز بهم فى مجالات الرياضة والفلك والطب والجغرافيا والعمارة وعلوم البحار قفزات لم تتح لهم من بعد ، بل إنه آخى حقاً وفعلاً بين الشعوب ، وقضى على النزعات العنصرية وقلل إلى أضيق نطاق أسباب الفرقة والنزاع بين الطبقات والشعوب ومن ثم فمن حقه أن يقول إن هذه التجربة جديرة بأن تدرس ، وبأن تعاد من جديد .

فهرست

صفحة

العامل الاقتصادى فى القرآن ٤
تطور الإنسان فى القرآن . . . .
القصص فى القرآن ٩٩
التكنولوجيا بين لا إله إلا الله والحمد لله ١٨٣
الإسلام والمذاهب الحديثة ١٩٩

رقم الإيداع	١٩٧٦/ ٤٦٧١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ٥٠٢ – ٧

١/٧٦/٤٦٩ مطابع دار المعارف–١٩٧٦

